حبات السكر

حكايات
بنات أفكاري

غادة أكرم

حبات السكر

غادة أكرم

تصميم خارجي:

منى وجيه

تصميم داخلي:

رحاب جمال

تعبئة وتنسيق:

رحاب جمال

عمل فريق جروب:

حكايات بنات أفكاري

https://www.facebook.com/groups/BanatAfkare/?ref=share_group_link

المقدمة

هذه الرواية لا تمت للواقع بصلة..

ولكنها واقعية..

تقع بالحد الفاصل بين الواقع والخيال..

بعض حروفي المنثورة..

حروف أصرت أن تخرج للنور..

أتمنى أن تعيشوا معها رحلة ممتعة..

* * *

إلى كل من كانت مسؤولة عن أرواح طاهرة بريئة تتعلم لأول مرة كيف تخط بالقلم..

تتفهم معنى كتاب..

ألوان..

كراس..

صداقة..

صف دراسي..

لأول مرة من خلالك أيتها المعلمة..

* * *

إلى كل إنسان يعيش رحلته بين الأمل والألم..

ولكل شخص رحلته الخاصة وبصفاتها المميزة..

بكل تفاصيلها على درب حياته..

شكر خاص لكل من

نوبيان سارة

هدى مجدي

حنان الشيمي

إيناس سمير

فريق العمق

والغالية ألاء ياسر (إشبينة الرواية)

مقدمة ثانية

اسمي جميلة..

أنا أعمل مع حبات السكر..

لا لست طاهية..

أنا معلمة روضة..

هذا ليس تعريف كافي فمعلمات الروضة كثر..

أنا معلمة روضة صرت أعشق حبات السكر

أطفالي الصغار بالصف..

أحب عملي ومغرمة بكل تفاصيله..

يحلو مذاق أيامي معهم..

فأهلا بكم في صفي..

Sugar cubes class

الفصل الأول

"إن الأشياء الصغيرة حينما تحدث في وقتها يكون لها معنى أكبر منها، أقصد أن هنالك بداية صغيرة لكل حادث كبير"

غسان كنفاني

ولكن دعونا نعود للحظة البداية قبل ما يقارب عام كامل..

جلست قرب المائدة أتناول باقي إفطاري بفتور..

أنظر لحبة القرنفل الوحيدة بقاع كوب الشاي خاصتي تدور وتدور في دوامات مع حركة الملعقة وصوتها الرتيب.. متى أصبحت مثلها؟!

زفرت ببؤس..

قلبت نظري ببعض صوري القديمة..

أين هي جميلة المرحة المبتسمة دائما في كل

الأوقات؟!

شيء ما ضاع مني في خضم أحداث حياتي الأخيرة لا أدري ما كنهه.. لكنه على ما يبدو كان شيئا مهما وغفلت للأسف عن البحث عنه!!

ثلاث سنوات مرت منذ يوم ارتدائي فستان العرس الأبيض..

عدة أشهر في منزلي.. هذا المنزل الذي استغرق إعداده شهور.. بل سنوات..

نحلم كيف سيكون..

جمعت فيه كل ما قدرت على جمعه مما أحبه من ديكورات ومستلزمات المنزل..

وكلفت الشقة والأثاث وبعض الأجهزة زوجي كل مليم ملكه من يوم نزل لسوق العمل وأضاف والده ما يساعده به أيضا.. إلى جانب بعض الديون التي

مازلنا نسددها حتى الآن!! إلى أوتار السعادة الأبدية..

تسلحت بنصائح من حولي وغمزاتهن عن كيف أحافظ على بيتي..

صرت أقرأ ليل نهار

تبددت أحلامي الوردية مع غثيان الحمل الصباحي..

صارحني زوجي يوما أنه سينتقل لمدينة بعيدة مع فريق كامل من الشركة التي يعمل بها ..

بعد مرحلة الصدمة وافقته أن يسافر وأبقى ببيتي

مرت أيام دون طعم أو لون أو نكهة..

كان قراره بعدها أن نترك عشنا الثمين ونعيش بشقة إيجار مؤقت صغيرة بالمدينة الأخرى والمقابل أن نكون معًا..

رحلت معه..

وهناك بدأت حياة جديدة..

ليس بها أي شيء من حياتي الماضية إلا زوجي وطفلتي المولودة..

على بعد مساحات شاسعة عن أهلى وأهله..

عن مراتع الطفولة والصبا والشباب..

عن بيتي..

عن الأهل والأقارب والجيران..

نتواصل عن طريق اتصالات هاتفية أو فيديو صارت مع الوقت سخيفة للغاية..

كمن يشرب من ماء البحر فلا يرتوي أبدا..

تبعد كل البعد عن دفء اللقيا..

يمر يوما وراء يوم وأنا أبتعد عنهم جميعا ليس فقط بالمسافات بل أيضا بالتواجد وتشاطر

الأفراح والأحزان إلا كلما سنحت إجازاته ولم تكن تسنح كثيرا..

تغيرت دائرة مجتمعي لعدة جارات وزوجات أصدقائه بالعمل..

نجتمع لقتل الملل والرتابة بأحاديث عن الموضة والمكياج والمطبخ..

وحكاية فلانة وعلانة التي يجب أن نكون أذكى منها ونعتبر لننال حياة أفضل..

عن افتقاد الأهل وعن سنوات تضيع..

عن نصائح من هنا وهناك بعضها صحيح وبعضها حامض..

بعد كل هذه الأحداث بحياتي الراكدة جاءت كلماته اليوم مع تفاصيل شكواي الصباحية كجرس إنذار بعد حديث صباحي بيننا، أعترف

أني كنت سخيفة به للغاية.. قال بلهجة حاول أن تكون متزنة:

- ربما حان الوقت لتبحثي عما يشغل وقتكِ الثمين.. شمس كبرت ولا بأس أن تخرج من المنزل معكِ..

يمكنك دراسة شيء تحبينه، تنمية هواية..

أو ربما عمل ما..

وها أنا ذا أرقب حبة القرنفل الضائعة مثلي في دوامات الحياة عاجزة عن فهم ماذا أريد حقا لأعود أنا التي أعرفها؟!

تنهدت بملل.. يقول وقتي الثمين؟!

تمر الساعات بل الأيام وأنا أحس أن ليلي كنهاري..

لا جديد..

تمر ساعات لأقوم بكسل أنجز أعمالي المنزلية ببطء عجيب..

أين أنا النشيطة؟

كثيرة الإنجازات؟

بين لحظة وانتباهتها تبدل الحال من حولي..

من سكون لحركة..

من هدوء لضجيج..

من صمت لكثير وكثير من الأحرف المكسرة..

نعم لقد استيقظت عاصفتي الصغيرة شمس آخذه بطريقها كل أفكاري..

وفي المساء كان موعد استقبالي لأصحاب زوجي وزوجاتهن الذين هم جيراننا أيضا..

كنت أرتب ما أعددت من أطعمة وحلوى

أفكر بما ستعلق به هذا أو تلك على بيتي وابنتي

وحياتي..
أجهز الردود فأنا أستطيع توقع انطباع كل منهم.
نعم نحن مجتمع واحد مغلق تقريبا أربع أسر نتقابل أسبوعيا وأحيانا نخرج سويًا مرة أخرى..
للحقيقة العامل المشترك هو أن أزواجنا يعملون بشركة واحدة انتدبوا لهذه المدينة الجديدة وهنا تعارفنا، كل منا تحتاج من يؤنس وحدتها فكنا نوع الونس المتاح بجانب أشياء أخرى اعتمدتها كل منا لتمضية وقتها في هذا المنفى بعيدا عن الأهل والأصدقاء وكل ما ألفته طوال عمرها..
ربما كثرة تلاصقنا وتشابه ظروفنا جعل بيننا غيرة الأقران..
لكن لا بأس فنحن بشكل أو آخر الأهل البدلاء لبعضنا البعض..

وإن كنا لا نختار أهلنا كما يقول المثل فنحن حقا لم نختر بعضنا بعضا أيضا بل جمعتنا الظروف..

طرقات الصغار على باب الشقة سمعتها صغيرتي فطارت فرحا.. كان هذا أفضل الأوقات بالنسبة لها..

بعد الكثير من السلامات وتبادل القبلات الودودة منها والرسمية والباردة كل تلونت بمشاعر صاحبتها جلس الجميع معا لتبدأ جلسة السمر بينما فضل الرجال النزول للعب كرة القدم في مكان قريب..

وبقى الصغار حولنا يمرحون أحيانا ويتنازعون أخرى وقد خلقوا نوعا من الضوضاء اللذيذة في محيط غربتنا الهادئ..

تلك الأنيقة بجانبي التي تختلس النظر للمرآة كل

دقيقة هي سوزان أو سوزي كما يحلو لها أن نناديها..

نعم تملك بعض جمال فطري، لا أدري هل زاده أم قلله ولعها باتباع خطى صيحات الموضة الحديثة دائما؟

أرمق ابنها وابنتها وقد أخذا ملامحها لكنهما اقتبساها ببراءة دون أي رتوش فتكون أجمل..

عن شمالي علا..

علا العقل المفكر كما نسميها..

فهي كثيرة الاطلاع مغرمة بالقراءة..

عميقة تخافين أن ترى ما بداخلك ربما قبل أن تتحدثين!

رغم أننا بنفس العمر لكنها تبدو أكبر نفسيا وليس شكليا.. بالطبع، عادة تملك مظهرًا من نوع خاص

آسر رغم بساطته..

بسمة تتكئ على الطاولة..

نعم تلك التي تثرثر منذ نصف ساعة حول معاناتها مع الأطفال وحول مشاكلها مع أحد قريباتها أو كلمة ما أزعجتها من أحد ما..

نعم سريعة التأثر كما لو كانت أعصابها على قمة بركان متقلب..

وهي عنصر النكد بالشلة بامتياز..

وللحق فعلا تربية ثلاث توائم ليست سهلة ووحدها هنا..

من بين الأحاديث الدائرة استقبلت كلماتها بشوق زهرة عطشى للماء كانت سوزي تسرد مشكلة مدرسة ابنها:

- المشكلة أن المعلمة تركت الفصل فجأة.. وحتى

يجدون بديلا يغرق الصف في فوضى البدائل!
كل يوم معلمة بديلة هذا لا يساعد أبدا فكل معلمة لا تستطيع أن تساعد الأطفال بشكل كاف هي حتى لا تعرفهم ولا تعرف ما يحتاج كل منهم..
بصراحة المعلمة كانت مريضة للغاية ولكن أيضا ما ذنب الأطفال؟
توقفت تشق الابتسامة وجهي..
- حقا؟!
التفتت إليّ متسائلة عما أعني فأكملت بفرحة:
- إذن يحتاجون معلمة جديدة بالمدرسة؟!
كانت تواصل التحديق بي مع العديد من العيون المحيطة فما المبهج للغاية بمأساة فصل ابنها؟!
كان الهدوء الذي يسبق العاصفة حيث أنني اعتزمت تفجير مفاجأتي المثيرة للجدل..

هناك ملاحظة في هذا الطقس المفرط بالرتابة والملل واللا جديد ..

وجود شيء مختلف أو خارج صندوق حياتنا المعتاد نحن الأربعة يعد أهم من أكبر الخوارق الطبيعية وأجدى للتعجب منها..

لا أدري هل سبب العجب وجود شيء جديد حقا؟ أو الفكرة أن كيف لم تخطر ببالنا من قبل؟

استدركت غبائي الاجتماعي مردفة:

- حسنا يا بنات إنها إشارة!!

أنا أصلا أفكر جديا بالبحث عن عمل منذ يومين يشغلني تماما الأمر ولا أعرف من أين أبدأ البحث!!

هززت كتفي بتقرير:

- وها قد عرفت من أين أبدأ!!

لا تسألوني عما حدث بعدها..

طوفان من الأسئلة

حقا؟

كيف تفكرين بالعمل وتتركين الصغيرة؟

لمَ تنزلين للعمل والشقاء هل نحتاج مزيد من الأعباء فوق أعباء المنزل ورعاية الأسرة؟!

هذا رائع ما الذي دفعك للتفكير بالأمر؟

كيف لم نفكر في هذا من قبل؟! ربما آتي معك!!

أطنان من أسئلة الصديقات..

آلاف من الرؤى والتوقعات لمستقبلي الوظيفي وتأثيره على حياتي وأسرتي رغم أنني لم أتقدم للوظيفة بعد!!

نحن النساء نستبق الأحداث كثيرا!!

نوغل في التنبؤ وكأننا نرى المستقبل..

نسقط آراءنا ووجهات نظرنا ونطبقها على كل من يقابلنا بثقة خبير..

ولأنني أفهمهن.. أتفهم طبيعة كل منهن المختلفة تقبلت كل الآراء بصدر رحب وابتسامة مجاملة..

من يتحمل اندفاعاتنا التنبؤية و اندفاعنا إن لم تتحمل كل منا الأخرى؟!

وفي عقلي كان يدور حديث آخر..

سأتقدم غدا صباحا بأمر الله..

سأغير نمط حياتي الممل..

أحتاج حقا أن أتحرك..

أن أشعر أني أشارك في مجموعة لإنجاز مهمة ما..

طافت الكثير والكثير من الأحاديث بجلستنا لكن عقلي بقي مشغولا للغاية بما ينتظرني في الصباح

أتخيل آلاف السيناريوهات لمقابلتي الأولى بالمدرسة..

أتساءل كيف تبدو المدرسة من الداخل؟

كيف يسير اليوم الدراسي؟

كيف سأبدو كعلمة؟

نعم لقد عملت لعامين بمدرسة ابتدائية بمدينتي قبل الزواج لكن كان هذا منذ سنوات مضت..

سنوات رسمت خريطة جديدة لشخصيتي وعقلي وذاتي..

أين أنت يا أنا ها أنا أبحث عنك؟!

بمجرد أن أغلقت الباب خلفهن مودعة إياهن ببسمة واسعة، وكلمات عن سعادتي بحضورهن، ووعد باللقاء الأسبوع المقبل، كنت أتحرق شوقا لعودة زوجي لأخبره بفخر لقد

قررت ماذا سأفعل!!

حملت صغيرتي إلى سريرها بعد أن نامت على الأريكة من فرط إرهاقها من اللعب وحينها سمعت صوت المفتاح يدور بالباب عدلت من وضع الغطاء عليها وأسرعت الخطى..

منذ أول وهلة أدرك شريف أن لدي الكثير لأقوله..

هل بدى قلقا؟

متحفزا؟!

لمَ؟!

بدأت حديثي بكلمات متسارعة: عندي لك مفاجأة أتبعتها بصفقة من يدي في بهجة..

حقا أنا واثقة أنه منزعج الآن..

شريف بتوجس:

- خيرًا؟!

جلست بجانبه علي الأريكة وفي عيني نظرة لوم حاولت أن أخفيها قائلة:

- خمن؟!

بنفاد صبر فكر:

- حسنا هناك مهرجان خصومات قريبا بالمحال التجارية؟!

هزت رأسي نفيًا

اقترب بوجهه مني متفرسا وقد أيقظت فيه الفضول ببطء، قال:

- وجدتِ مكانا جديدا للتسوق تودين الذهاب إليه؟!

أعدت هز رأسي نفيا بغضب

ازدرد ريقه قلقا:

- هل هو عيد زواجنا ونسيته؟

عيد مولدك ؟

عيد مولد أمك أكيد ؟

كنت أواصل هز رأسي نفيا بإحباط

أكمل متحمسا فجأة:

- قررت أنت وصديقاتك إقامة حفلة؟

يا إلهي يبدو أنني أغرقته تفاصيلًا في الفترة السابقة حتى تاه مني..

قلتها ببساطة:

- وجدت عملا..

ارتسمت ابتسامة جدية على وجهه:

- جميل جدا.

كلمتان بسيطتان لكنهما ما كنت أحتاجهما إذن هو يوافقني الرأي..

لا أعرف من أين نبع الحماس بداخلي فجأة وملأ

كياني، كنت أتحرق شوقا لغدا صباحا..

حضرت ملابسي بعناية لمقابلتي الرسمية..

صرت أفكر ما سأقول، وما لن أتحدث عنه..

بعض أوراقي الرسمية وها أنا جاهزة..

أضاف شريف للملف ورقة سيرة ذاتية أعدها لي باهتمام.. وقد كانت لمسة لطيفة ومؤازرة منه..

في الصباح كنت أجيء وأروح من أمام المرآة بتوتر..

أرمق تفاصيل ملامحي..

أتأمل تفاصيل وجهي وأنا أتحدث..

أراقب مظهري بعناية..

حسنا سأجن إن لم أسرع..

تعهد شريف بالاهتمام بالصغيرة سيصحبها معه حتى أرجع على أن أتفاهم معهم بتفاصيل محل

تواجدها بحال عملي معهم..

طول الطريق بالسيارة كنت مشدودة الأعصاب تماما كوتر سينقطع حال لمسه..

فتح زوجي صوت القرآن منسابا من المذياع مع نسمات الصباح كانا خير ما يساعد على الاسترخاء..

عرض عليّ شراء إفطار ما من الطريق..

رفضت بشدة فأكد بتفاؤل:

- سنحتفل ونتناول الإفطار معا بعد خروجك بنجاح من المقابلة

كنت أرمقه بسعادة وأنا أفكر، لقد أتقن شريف رسم البسمة على شفتي فقد حاوطني بدعم لم أتخيله..

إنها أول مرة نعايش هذه الرحلة معا..

رحلة البحث عن وظيفة..

فقد ارتبطت به وهو متوظف بالفعل ولم أبحث أنا عن وظيفة منذ عرفته.. أتساءل الآن هل تأخرت؟!

نبهني بتربيته على كفي القريب منه لأدرك أننا أمام بوابة المدرسة وعليّ التقدم الآن وترك التفكير جانبا..

خطوت داخل المدرسة أحاول أن أحوط نفسي بجدار ثقة مصطنع.. قابلتني إحدى الإداريات بابتسامة رسمية..

أنا:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

الإدارية:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. بم أخدمك؟

أنا:

- علمت أنكم تحتاجون معلمة؟

الإدارية:

- حسنا سأراجع الإدارة وأعود لك..

مضيت أتجول دون أن أبتعد، تأخذني خطواتي هنا وهناك..

ونظري يتابع الغادي والرائح..

أطفال بكافة المراحل الابتدائية والمتوسطة..

بمختلف أشكالهم وطباعهم تعكس وجوههم وهندامهم اهتمام أهلهم بهم..

تعلق بوجه معظمهم البشر والسعادة في لحظات مرحهم القليلة..

يتناولون شطائرهم وحلواهم قبل العودة لمقاعد الدراسة..

استغرقت تماما بخلية النحل تلك ليستوقفني صوتها:

- تفضلي..

مضت المقابلة بشكل جيد وأعتقد أنني حذت اهتمام المديرة التي قالت أنها ستتصل بي لاحقا لتأكيد انضمامي لهم..

تنفست الصعداء وشكرتها..

لم أستطع الصبر حتى أصل لخارج المدرسة بل رفعت هاتفي أحادث زوجي أبث إليه البشرى:

- يبدو أني حصلت على الوظيفة!

شريف ببشر:

- الحمدلله.. مبارك تستحقينها فأنت ذات خبرة ودراسة تؤهلك.. هل ستخرجين الآن؟

هززت رأسي مؤكدة:

- نعم دقائق وأكون بالخارج

في طريقي للخارج كانت عيناي تلتهم بنهم كل صور الحياة والحيوية.. أتشربها بلهفة كإسفنجة جافة وجدت أخيرا قطرات من الماء..

لفت نظري حائط مختلف لممر خلفي..

كان غريبا عن ما شاهدته من نسق المدرسة العام وكأنه يقود لمكان آخر بطبيعة أخرى..

تسللت لا أستطيع مقاومة فضولي.. أتلمس الحائط وأمشي معه.. أوصلني لبوابة صغيرة مظللة تحجب ما خلفها..

طرقت الباب ففتحت عاملة بشوشة مبتسمة وأفسحت لي المجال لأمر للداخل ببساطة تعجبت لها فرددت ابتسامتها بأخرى ودلفت أتلفت حولي..

كان ملعب أطفال أصغر من الملعب الخارجي للمدرسة.. ألعابه أصغر.. مزدانة أرجاء الملعب برسومات طفولية وكرتونية بألوان مبهجة.. وقد غطت الأرضية بنجيلة صناعية ببعض الأماكن.. وغطت باقي المساحات بأرضيات لدنة تمتص الصدمات.. مرقت بجانبي تضحك ينافس صوتها الملائكي تغريد الطيور تتطاير شعراتها القصيرة لصنع لوحة من البهجة و المرح..

أغمضت عيني أسمعها وأعيش عبق لحظات الطفولة..

بدأت أستوعب وأنا أرى لوحة أنيقة أمامي كتب عليها قسم التمهيدي

كان رنين هاتفي يخبرني أني تأخرت..

أرسلت رسالة اعتذار لزوجي:

- آسفة أعطني بعض دقائق..

رفعت رأسي عن شاشة الهاتف فوجدتها تقف على مقربة.. بابتسامة متزنة وزي رسمي راق وشعر قصير مرتب بعناية تحدثت فناسب صوتها صورتها بهدوئه:

- أهلا بك.. أنا لينة مديرة التمهيدي..

كانت كلماتها تطالبني بذوق أن أفصح عن هويتي بالمقابل بعدما اخترقت خصوصية يبدو أنها رسمت بعناية للمكان..

(أنا أبحث عن وظيفة كمعلمة)

خرجت الكلمات من فمي خجلى أدافع عن موقفي المتلصص

قادتني لمكتبها المطل على الحديقة الصغيرة تلك وواصلت بعدما أشارت لي بالجلوس:

- حسنا أتمنى أن تعرفيني أكثر عن نفسك..

شيء من الطمأنينة تسلل لقلبي بالحديث معها كأني أعرفها من زمن طويل..

مددت يدي بالملف الذي يحوي أوراقي فأخذته ووضعته أمامها ببساطة مكملة: أحتاج أن أسمعك أكثر..

لماذا بدأت أتوتر؟!

ابتلعت ريقي أبحث من أين أبدأ:

- حسنا أنا عملت كمعلمة من قبل لكن بقسم الابتدائي.. ومكثت بالمنزل بعد زواجي لسنوات.. جئت اليوم للمدرسة حين سمعت بحاجتهم لمعلمات قابلت مديرة الابتدائي ولكن شيئا ما جذبني لهنا..

بدت متفهمة لمشاعري بل وسعيدة بها قالت:

- نعم لقسمنا طبيعة خاصة ومختلفة فنحن نتعامل مع طفل خرج للمجتمع لأول مرة.. بالكاد فارق حضن أمه ومنزله ونحن نعطيه حضن أم بديلة هي معلمته ومنزل بديل هو فصله ليتقبل وجوده لوقت ليس بالقصير بمكان مختلف يعلمه أكثر.. التعامل مع السن الصغير تحدي هل أنت قادرة على خوضه؟

قالت كلماتها الأخيرة بحزم وثبات..

وجدتني أرد بسرعة ولهفة لا أعرف من أين جاءت:

- نعم يسعدني ذلك.

ثم أضفت باهتمام:

- لكنني أردت أن أعرف أين يمكن أن تكون صغيرتي شمس حتى أنتهي من عملي؟

ردت بلطف:

- بالطبع هذا شيء مهم للغاية..

لن تستطيعي العمل باطمئنان إلا حين تكوني واثقة أن ابنتك بين أيدي أمينة..

بالمناسبة اسمحي لي جميل جدا اسم شمس..

ستنير المكان المخصص لأطفال ما قبل الدراسة من أبناء المعلمات..

قلت بسعادة:

- رائع هناك مكان مخصص لصغارنا هنا؟

أومأت مؤكدة:

- بالطبع بحيث يمكنك الاطمئنان عليها بأوقات راحتك.. وتتواصل معك الحاضنة المسؤولة عنها إذا كانت هناك أي مشكلة

واحتاجت مساعدتك..

شكرتها وأنا أشعر بارتياح شديد.. إنه مكاني المناسب حقا

بضع لحظات وكنت بطريقي للخارج وقد اتفقت معي أن أداوم من الغد وأعطتني بعض الكتب الملونة وخطة أسبوعية للدراسة..

في مكاني المفضل على أريكتي الرمادية المفضلة (والوحيدة) بمنزلي الصغير جلست أتفحص الكتب بتمعن..

حروف.. أرقام.. أشكال.. حيوانات..

بدت كل الدروس بديهية وبسيطة للغاية ومنطقية..

ضحكت كثيرا وأنا أرى طريقة كتابة كل حرف..

اكتشفت أنني بعمري هذا مازلت أكتب بعض الأحرف بطريقة خاطئة..

قرأت الخطة الأسبوعية كانت تحدد صفحات الواجب والفصل لكل يوم وكل مادة..
بدت كورقة مهمة ووصفة ناجحة كيلا أتوه بين أكوام الكتب الملقاة على عاتقي والمسمى أنها كتب تمهيدي!!
بالخطة كانت بعض الأناشيد التعليمية ظللت أسمعها وأكررها أحاول ضبط النغم وعاصفتي الصغيرة شمس تضحك و تتقافز حولي تحاول أن تعيد بعض الكلمات ورائي.. لقد كبرت الصغيرة!
على صوت المفتاح انتبهت أنه موعد عودة شريف..
دلف مبتسما لمنظري بين الأوراق والكتب والصغيرة تتقافز من حولي..
شريف:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرى أنكم تمضون وقتا لطيفا بدوني.. حسنا لملموا حاجياتكم سنخرج بعد دقائق.. إن تأخرتن سأنام ولن تستطيعون إيقاظي!!

كنت أعلم أنه سينام كدب قطبي ولن تفلح أي محاولات لإيقاظه من بياته الشتوي!!

هرولت ألملم ما حولي ..

حملت صغيرتي لألبسها ملابس ملائمة.

بعد دقائق كنت في كامل استعدادي أضيف آخر دبوس لتثبيت حجابي.. أتأمل انعكاس صورتي في المرآة برضا..

بعد أقل من ساعة كنا بالمجمع التجاري، لم أكن اشتريت إلا القليل من الملابس لي منذ قدمت للبلدة فقد قدمت كعروس معي الكثير والكثير من

الثياب وبقيت أضيف فقط ما أحتاج إليه من حين لآخر وبالطبع اشتريت الكثير لصغيرتي المدللة..

لكن طبيعة قسم التمهيدي حسبما فهمت من أ/ لينة منعزلة عن باقي المدرسة لتتيح للمعلمات كثير من الحرية في الحركة والملبس مما يتماشى مع احتياجات الصغار..

قالت لي:

- معلمة التمهيدي عليها أن تجيد لفت أنظار الطلاب كمهرج تضحك وتلعب وتغني وتمرح معهم لتوصل المعلومة عبر كل ذلك فترسخ في أذهانهم..

بدا الأمر لطيفا لأجرب كل ملابس الموضة الحديثة التي لا تناسب شروط الحجاب أبدا لكن يمكنني أن أتأنق بها بين زميلاتي بالمدرسة..

كنت أتأمل معروضات المحلات بشغف كل أنثى للملابس اخترت بعض القطع تكفي لتنسيق طقمين كبداية..

عقب عودتي للمنزل شعرت بالحيوية والسعادة ربما حقا المرأة تشعر بالسعادة بعد التسوق!

أو ربما لأني أجرب شيئا جديدا عليّ!

حضرت العشاء ووضعته على الطاولة وعيناي متعلقتان بأكياس التسوق ..

كانت صغيرتي تتناول لقيماتها من يدي بعينين نصف مغلقتين وقد أرهقها اللعب والجري بالمجمع التجاري..

مع انتهاء ثلاثتنا من الطعام أسرعت بابتسامة واسعة على غير العادة منذ فترة أرفع الأطباق بنشاط وأضع إبريق الشاي على النار، تراقبني

عينا شريف بسعادة مندهشة من حماسي المفرط وأنا أسحب أكياس التسوق منطلقة إلى غرفتي..

أمام مرآتي كنت أتساءل من هي تلك الواقفة أمامي بالمرآة؟!

بالتأكيد ليست أنا!!

بدت كمذيعة من التلفاز اقتحمت بيتنا أو مضيفة مثلا..

كنت اخترت جيبة قصيرة سوداء ضيقة تتعدى الركبة بقليل وبلوزة من الشيفون الأبيض بأزرار من اللولي وربطة أنيقة حول الرقبة العالية .. كان رداءا كلاسيكيا بامتياز..

أحاط بجسدي بأناقة نافسه فيها حذاء عالي الكعبين اشتريته معه وقلت سأرتديه بالمدرسة فقط ليكتمل مظهري المميز..

دلفت للمطبخ أتحاشى أن يراني شريف الغارق بين أروقة الفيس بوك..

حضرت كوبين من الشاي مع أوراق النعناع كما يفضله ولم يفتني إضافة طبق من الكيك للصينية وخرجت أتصنع التصرف بتلقائية رفع عينيه إلى بنظرة مبهورة حقا أرضت غروري الأنثوي مازحا:

- هل تسمحي أن نتعارف؟

الفصل الثاني

بريق البدايات

"أي شيء يمكنك القيام به أو تحلم بالقيام به فابدأ به"

غوته

كانت الأجواء جنونية بحق بعدما أوصلتني تلك الإدارية بابتسامتها الأنيقة وأشارت بإصبعها لغرفة الصف التي من المفترض أني سأكون مسؤولة عنها..

كانت بقايا زينة ممزقة على باب الصف المشوه تعكر المنظر..

فتحت الباب بهدوء متحفز متسائلة عن حال الصف من الداخل..

كانت عيناي مفتوحتان على اتساعهما من الدهشة

هذا ضجيج بين ضحكات وصراخ وبكاء..
حركات عشوائية حولي في كل مكان..
وسيدة آسيوية تقلب بجوالها في المنتصف..
فجأة بدأ الأطفال يلاحظون وجودي، يشيرون إليّ مخبرين أصدقائهم أن هناك شخص جديد..
دخلت الصف آخذه شهيقا عله يهدئ من أعصابي التي توترت من كل هذه الفوضى..
لاحظت المساعدة الآسيوية وجودي أخيرا فرسمت ابتسامة مرتبكة على وجهها وخبأت جوالها الذكي بين طيات ملابسها بسرعة..
وبدأت تحاور الأطفال ليجلسوا.. فبدأ البعض يستجيب والبعض يرفض..
حاولت التدخل ومساعدتها فاستجاب الأطفال بعد وقت طويل بعدما نال مني التعب..

لأتذكر أن وقت الحصة مر كثير منه وأنا فقط أحاول أن أجعلهم هادئين جالسين..

يا إلهي!!

متى سأطرح عليهم الدرس؟!

متي سيكتبون؟!

متي سأصحح؟!

كانت فوضى كبيرة كثقب أسود يسحبني إليه دون قدرة مني على المقاومة!!

تعثرت في اللاشيء أخرج كتبي..

ومسودة أعددتها بالأمس لخطوات سير الحصة والشرح وأراها الآن محض أحلام يقظة!!

على ذكر الأحلام.. لا أدري أم الكوابيس، هل هذه أستاذة لينة واقفة بالباب ترمق الأوضاع المزرية من حولي أم هو محض خيالي الخصب؟

بخطواتها الواثقة دلفت للصف وأنا أحاول تجميع بعض كلمات الترحيب فتخرج مبعثرة إحراجا منها..

بابتسامتها الواثقة حيتني وحيت المساعدة ببعض كلمات..

كنت لاحظت أنها لا ترتدي زيها الرسمي كالمعتاد بل ملابس خفيفة كمعظم ملابس المعلمات هنا.. بنطال رياضي واسع و تي شيرت بسيط..

ملابس أقرب لملابس الأطفال ببراءتها وألوانها الهادئة المبهجة..

أفقت من استغراقي بمظهرها على كلماتها الموجهة للصف:

- السلام عليكم، كيف حالكم يا صغار؟

وبدأت تصافح الأطفال فتقبل ذاك وتلثم تلك وتربت على رأس هذا وتضم هذه بحب..

تدلى فكي ببلاهة أحسد عليها وأنا أراقب تحول تلك الكائنات ذات الضجيج العالي والعبث إلى كائنات رقيقة كقطيطات صغيرة تتمسح بها طلبا للحنان.

"يبدو أنهم يعرفونها جيدا".. هذا ما قلته في نفسي..

لكن في اللحظة التالية كانت دهشتي أكبر حين وقفت بمنتصف الصف تدندن بكلمات أغنية ما وترفق ذلك بحركات معبرة عنها..

التف الأطفال حولها..

فبدأت تحاول ترتيبهم كدائرة وهي تكمل كلمات الأغنية يشاركها الكثير منهم بحماس..

حسنا موجه عاتية من الإحباط أحاطت بي..

وانحنى حاجبي ببؤس..

أنا فاشلة!!

لم أستطع في أكثر من نصف ساعة عمل ما عملته في ثلاث دقائق!!

ربما عليّ الاعتراف.. أنا معلمة ابتدائي قد يكون ذلك صحيحا لكنني لن أفلح كمعلمة تمهيدي!!

امتدت يدها تجذبني بمرح من ثقبي الأسود لأشاركهم الدائرة..

كانت تتحرك بخفة رغم سنوات عمرها التي قاربت الأربعين..

في ملابسها المريحة..

بينما أتعثر أنا ملابسي الضيقة ورقبتها الأنيقة الخانقة.

ولا تنسوا كعبًا عاليًا بدا مع حركتي كوسيلة تعذيب!!

بحركة تلقائية نفضت معها بقايا خجل خلعت الحذاء وأبعدته جانبا..

أكمل دندنتي بكلمات الأغنية بصوت أعلى

خبأت أستاذة لينة فمها تكتم ضحكة مختبئة وترسل بعينيها نظرات مشجعة..

ترمق تواصلي الأول مع تلك الكائنات التي يصعب فهمها..

بين شدة الفوضى ورفض الأوامر وبين تناغم كامل مجرد كلمات أغنية أطفال وبعض حركات تتبع كلماتها ومعانيها..

كنت سعيدة جدا..

يملأني الفخر حقا..

أعادتني لبوتقة الواقع انتهاء كلمات الأغنية..

كانت الأعين الصغيرة ترمقني بتحفز..

مطالبة بالمزيد..

بدأ التوتر يغزوني من جديد وأنا أتململ في مكاني..

أتساءل أين تبخرت كل الأشياء التى قلت أني سأفعلها مع الصغار اليوم؟

طرقت كتفي برقة..

ووجهت بضع أوامر أطاعتها المساعدة فبدأت تعيد الأطفال لمقاعدهم، بدوا أكثر استجابة للأوامر بعد وقت لطيف مرح..

لينة:

- حسنا أنا سأتولى الصف، وأنت ستزوري الفصول الأخرى لمدة حصتين، محاولة جمع

أكبر قدر من المعرفة عن التعامل مع الصغار وطرق الشرح المختلفة، وآخر اليوم نناقشها معا.

بدت فكرة مميزة حقا..

حملت دفتري وقلمي وودعتها أتأمل كلماتها الموجهة للصغار أثناء مرورها بين الطاولات تصافح كل منهم باهتمام لطيف..

أغلقت الباب بهدوء حتى لا أقطع هذا الهدوء الممتع بالداخل

ومضيت أرمق أبواب الصفوف بالرواق بفضول كان لكل فصل اسم شيء من الحلوى

(lollipop - Candy cotto - Popcorn)

كل باب كان يحكي قصة..

بين ذي الألوان الهادئة والتفاصيل الرقيقة والدقة المميزة..

يشكل القطن الملون ثلاث وحدات من غزل البنات وردي وأبيض ثم سماوي، يعلوهم كلمات عن اسم الفصل، وشعار لطيف، بلون فضي لامع وخط أنيق وأبرز جمال الألوان خلفية مشكلة من ألوان رقيقة متعددة..

تنهدت أتساءل هل أملك المهارة لأصلح صفي المدمر ليصبح بنصف هذه الروعة؟!

التفت للصف المقابل حيث يقع فصل آخر بين أحمر فاقع وأزرق زاهي و كوب ورقي كبير مجسم يشغل نصف الباب ممتلئ للحافة بحبات الفشار وقد تقافزت بعض تلك الحبات للخارج حوله.. بخط واضح كتب اسم الصف (pop corn)

وتحتها بخط أصغر شعار الصف (لأنك تستحق

أكثر)،

بدا جريئًا مليئًا بالثقة..

الأمر محير حقا

أكملت طريقي بالرواق..

لمحت أبوابًا اعتيادية مختلفة..

لم ألمح بها أي تميز..

فلم أفكر في طرقها..

ولكن باب أخير لفت نظري..

بخلفية ذهبية لامعة..

وعدد من المصاصات وقد أضيفت لها ملامح طفولية باسمة..

بعث في قلبي سعادةً وميلًا للابتسام..

وبنظرة لعقارب الساعة التي لم تتمهل مع تأملاتي

وقطعت شوطا كبيرا دون أي إنجاز مني..

سحبت نفسا عميقا ورسمت ابتسامة دبلوماسية دربني عليها شريف أمس وأصر أن الابتسامة طريق القلوب وأنا تائهة على جانب طريق مجتمع المدرسة الكبير الجديد على وطرقت باب الصف الأول غزل البنات.

فتح الباب فتحة صغيرة أطلت برأسها فقط من بين دفتيه حتى ظننت أنه لا يمكن فتح الباب أكثر!!

حاولت الحفاظ على ابتسامتي المهتزة حاليا:

- صباح الخير.. أنا جميلة معلمة فصل حبات السكر..

مرت نظرة ساخرة غير مريحة بين جفنيها، أجادت تخطيها بمهارة شديدة حتى ظننت أنني لم أرها من الأساس!!

وأجابت بصوت ناعم رقيق كالموسيقى:

- أهلا جميلة، أنا زميلتك جولي..

وبضحكة قصيرة أزعجتني لا أدري لمَ أكملت:

- أتمنى لك وقتا ممتعا معنا..

أجبت أثبت أركان ابتسامتي بصعوبة وقد بدأت أشعر أنها حرب كلامية ناعمة للغاية وسخيفة لأبعد حد!

- شكرًا لك

لفظتها كما أردت بثقة

لكنها خرجت بثوب آخر

ثوب متلجلج إلى حد ما مما أزعجني أكثر..

كدت أنسحب من أمامها فقد كفاني ما مررت به

ولكني لا أدري من أين حصلت على صوتي

لأكمل:

- أستاذة لينة طلبت مني أحضر حصصًا لكم لاكتساب الخبرة

كانت عيناي تحاول الوصول لما خلفها

بدا الصف هادئًا للغاية بشكل عجيب

أسمع همهمات ناعمة فقط من حين لآخر رغم طول وقفتها معي نسبيا!

بدت متفاجئة لكنها ردت بحسم ناعم:

- طبعا يسعدني.. لكن صعب الحضور بشكل مفاجئ هكذا، لنحدد موعد الأسبوع القادم ما رأيك؟!

تململت في وقفتي ألملم كرامتي المراقة ببرود ومنتهى الرقة متمتمة:

- إن شاء الله .. شكرا

طرقات كعبي على الأرض المصقولة بالممر

كانت كطعنات تفرغ غضبي المكظوم..

دون تفكير طرقت باب الصف المقابل (حبات الفشار) بعصبية مفرطة..

فتح الباب بسرعة باتساعه..

ومقابلي وقفت بشموخ:

- بمَ أخدمك؟

أعدت كلماتي نفسها التي قلتها للأخرى بسرعة قبل أن أغير رأيي منسحبة حفظا لماء وجهي..

بنظرة سريعة أدركت الفرق بين مظهري المبالغ في التأنق وبين راحتها في طقمها الرياضي الوردي مع حذاء وردي رياضي خفيف لأول وهلة حسبته خفا بيتيا..

ابتلعت ريقي تحركت من أمامي مفسحة الطريق للداخل قائلة ببساطة:

- تفضلي (بيوتيفول).. أنا ليلى

والتفتت للأطفال الجالسين على سجادة على الأرض في شكل دائرة مكملة: هذه جميلة صديقة جديدة رحبوا بها ..

بدأ الأطفال في غناء أغنية ترحيبية قصيرة بأصوات ليست الأكثر عذوبة لكنها تلقائية ومتناسبة بشكل لطيف..

قلت بهدوء هامس:

- شكرا لكم

فهمست إحدى الصغيرات تقاطع عودة ليلى للدرس بحذر:

- معلمة أليس علينا أولا أن نعلمها قوانين الصف؟؟

التفت معجبة بها وأومأت لها ليلى أن تفضلي..

فبدأت مع الجميع تعديد القوانين مع إشارات مفسرة بأيديهم..

كنت مبهورة بهم .. بدوا سعداء، لطفاء، فاهمين جيدا لما يقولون وكأن أحد ما علمهم (الاتيكيت)

من أين حصلت ليلى على هذه الملائكة؟

كانت ليلى ما زالت تتحدث هامسة تارة ورافعة صوتها أخرى.. منهمكة تماما في تفاصيل قصة ما مصورة تحكيها لهم يتخلل ذلك تدخل أحدهم لوصف شيء ما بالقصة أو معقبا على حدث فيها.. ينهض بعضهم بهدوء من حين لآخر فيتحرك وعينيه عليها فتبتسم له وبعد ثوان ينضم للدائرة مرة أخرى..

كانت إمارات الاستغراق المرسومة على وجهها الخمري وملامحها الحادة تهديها ملمح قوة

منعكس من قوتها الداخلية..

نعم لقد أحببتها كما أحببت أطفال صفها وقررت أن أتعرف عليها أكثر حين يسمح الوقت..

بعد دقائق ثمينة شعرت خلالها كم هي مهمة قوانين الصف تلك..

وكم هو مهم أن يتعلمها الصغار ويفهموها قبل أن أبدأ أي دروس تعليمية فإن كانوا واعين ومتقبلين متحضرين جيدا للتلقي، تربوا.. نعم تربوا جيدا قبل بدء التعليم سيكون أي درس سهلا بعد ذلك.. فهم يبدون أكثر نضجا بكل الأحوال..

كانت دوامة من العصف الذهني تمر بداخلي وأنا أتوجه للباب شاكرة..

ودعني الأطفال كما طلبت منهم ليلي ونهضت بخفة تودعني بنفسها قائلة بصوتها الواثق:

- حسنا.. كان وقتا لطيفا (beautiful) ..

صافحتها مبتسمة للقبي الجديد الذي تناديني به.. ربما تكسر الجليد بيننا وأنا أكثر من مرحبة بذلك..

أغلقت باب الصف خلفي ومضيت أسرع الخطى أسب الكعب العالي ومخترعه للمرة المائة أعتقد اليوم..

وفجأة هبطت فوقي زوبعة ما لم يسعفني الوقت لرؤيتها أو تفاديها فوقعنا أرضا سويا بعنف لينكسر الكعب البائس أخيرا ، ويعانق كوب قهوتها بلوزتي الحريرة ناشرا بقعة بنية كبيرة عليها..

صرخت بهلع وصرخت هي:

- الأوراق .. الكتب

كانت تبعد الأوراق والكتب التي كانت تحملها بعيدا عن بقع القهوة المنثورة حولنا باستماتة أزعجتني أنا صاحبة البقعة الأكبر على ملابسي والكعب المكسور!!

بعد دقائق وبعدما اطمأنت أن كتب الأطفال بخير وقد جمعتهم صفا بسرعة، عادت إلي مادة يدها تتحدث بسرعة واندفاع:

- أنا آسفة جدا.. سامحيني..

أخرجت منديلا مبللا محاولة إزالة البقعة بلا جدوى فوقفت متململة:

- حسنا انتهى الأمر..

هلعت سائلة:

- من أنت؟

أجبت بانزعاج حقيقي:

- أنا جميلة.. زميلة جديدة..

كنت قد عرفت أنها معلمة من زيها المميز الصفات..

أكملت بدهشة:

- حقا! لفصل حبات السكر أكيد!!

ثم اندفعت تعانقني بقوة كأني أختها التي لم ترها منذ سنوات قائلة:

- أهلا أهلا.. أنا حلا.. وهذا صفي غزل البنات أو (كاندي كوتن)..

ابتسمت للتشابه بين اسمها واسم الصف..

بل بين شعرها الأشقر الفاتح جدا القصير وعيونها الملونة وحمرة خديها الطبيعية جميلة للغاية وملونة كباب صفها..

بدت بريئة كطفلة حقا..

تخلصت من حذائي بخفة بعدما صافحتها وعدت لمكتب أستاذة لينة بحالي المزري!

طرقت باب مكتبها آمله أن تفتح سريعا قبل أن يراني أحد بهذه الحال المزرية!!

كعب مكسور وبلوزة ملوثة بالقهوة وقد بدأ شعري جولات فوضى مبعثرة حول وجهي !!

فتحت الباب وعلى الفور لاحظت ابتسامة ثغرها..

قلت بارتباك:

- لا تعلقي أرجوك!!

هنا استحالت بسمتها ضحكة خافتة لتكمل:

- لا بأس صدقيني.. مررت بأحوال أسوأ في أوقات سابقة.

تقدمتني لتجلس خلف مكتبها برقة مشيرة لي أن

أجلس على المقعد المقابل ..

دونت بضع كلمات على أوراقها تاركة لي بضع ثوان للاسترخاء ثم بدأت حوارها بتأنٍّ:

- حسنا.. كيف كان يومك؟!

وكأنني كنت أنتظرها منها!!

لم أستطع رسم ابتسامة أو محو ملامح البؤس من على وجهي ولم أحاول تكبد مشقة ذلك..

أعترف أنا أملك وجها يشف كل ما أشعر به بسهولة ويفضحني في كل الأوقات !!

أجبت بإيجاز:

- كان عصيبا جدا ..

أومأت:

- حسنا استعدي للغد ليكون أفضل!

قالتها بابتسامة:

- وكيف أستعد؟!

سؤال وقف بخجل على عتبات لساني.. ولكني لجمته واكتفيت بالتحية وانصرفت لانتظار موعد الخروج بغرفة المعلمات..

زفرت ببؤس وفتحت هاتفي النقال الذي نسيته طوال اليوم لأفجأ بعدد من الرسائل منها بعدة مواقع عن تعليم الطفل..

بعض فيديوهات عن قسم التمهيدي وبعض المعلمين عرب وأجانب وكيف يبدعون في فصولهم..

كان التركيز على الفيديوهات غير العربية لأنها للأسف مبدعة أكثر ..

حسنا ما دمنا بذيل تصنيف التعليم عالميا فلنتعلم منهم ولا ندفن رؤوسنا بالرمال..

وفي آخر رسالة كانت بعض الجمل والتصميمات التحفيز عن عدم الفشل والإصرار على النجاح..

بعض الناس قادرة على ملء الفراغ الأسود داخلك بطاقة إيجابية..

دفعك للعمل بشغف دفعك لاكتشاف هذا الشخص الذي يجب أن تسعى لتكونه.. وطبعا كانت كلها مرسلة من أستاذة لينة.. لم تفتها حيرتي ولم ترد إحراجي..

عشر مكالمات فائتة من شريف؟! رفعت كفي لجانب وجهي بصدمة..

يا إلهي يبدو أني سأعود لبيت أمي اليوم ..

لم أخبره أن الهاتف ممنوع بالصف!!

بالتأكيد هو قلق حد الموت..

غاضب حد كوب ماء يغلي حتى قارب على

الجفاف في قاع الإناء!!

كان الجرس يدق وأنا أنقر بإصبعي بالتزامن معه..

أجب.. أجب ..

أنا آسفة..

أنا بخير..

تزاحمت كل الكلمات في رأسي لتتبعثر مع موجة غضب انطلقت من سماعة هاتفي ما أن فتح الخط فأبعدت الهاتف عن أذني قليلا..

صرت أبعثر كلماتي أحاول تهدئته..

بعد حوالي عشر دقائق من التقاء موجة غضبه بأمواج اعتذاري هدأ الوضع..

وفِي المنزل مع كوب من الينسون بحثا عن صوتي الذي سيحتاج وقتا ليعتاد مجهودي الجديد

كنت أفكر في موقف أستاذة لينة معي..

كنت أشعر بارتياح عجيب بحديثي معها..

كأنما تتحدثين لصديقة مقربة..

أو إلى شخص تثقين بنصيحته..

كان الكلام معها يزيح العبء عن كاهلي..

حين حكيت لها شعوري حول الصف وكيف توترت بمجرد وجودي به وضاعت مخططات طويلة وضعتها بالأمس!!

قلت لها أنني أحببت ليلى..

وأحببت صفها..

واختزلت باقي الكلام عن زميلتاي الأخريات..

فلا داعي له..

مر الوقت سريعا وأنا أسمع كلماتها عن الصف عن المساعدة عن يومي غدا وأنني يجب أن

أستفيد من كل ما مررت به لوضع خريطة لغد أفضل!!

كانت حقا خير داعم يدفعك للأفضل بثقة وذوق..

جلست أقرأ وأتصفح ما أرسلت ومعي كراسة صغيرة أدون بها كل ما تعلمته من فيديو أو مقال كرؤوس أقلام حتى لا أنسى..

قاطعني رنين هاتفي المحمول بعد فترة فعدت أرتدي حجابي وألتقط ابنتي من قسم رعاية أطفال المعلمات وخرجت لشريف مسرعة..

كان شريف خلف مقود السيارة يذوب حرفيا تحت أشعة الشمس..

أسرعت الخطى مع شمسي شمس وخلال دقائق كنا قد عدنا للمنزل نتناول وجبة ساخنة..

كنت آكل بنهم..أشعر بجوع عميق لا أدري من

أين أتى فقد تناولت طعامي بالصباح!

ضحك شريف قائلا :

- حسنا حسنا.. لن يأخذ أحدهم الطعام من أمامك.. فقط تمهلي .. كيف كان يومك يا معلمة حبيبات السكر؟

قال جملته الأخيرة بلهجة مزاح ساخرة لكنني لم أكن أكترث كعادة كل حواء أصيلة بدأت في قص كل تفاصيل يومي الجميلة والحزينة..

مسهبة في شرح تصرفي وشعوري تجاه كل موقف..

لم يقاطعني شريف فقد كان للحق صبورا يكتفي بإيماءات و نعم وأفهمك من الحين للآخر ..

مطعما شمس من حين لآخر تاركا إياي لتناول طعامي واسترسال حكاياتي بانفعال..

أطرق مفكرا لثوان ثم رفع رأسه مؤكدا:

- نعم يبدو أنه كان يوما حافلا..

أي يا قطعتي الخاصة من السكر كنت تقولين أنك تحتاجين لبعض الضجيج بحياتك الخاصة هاقد وجدته!!

ثم استند بمرفقيه على الطاولة مقتربا مني محذرا:

- لكن إياك إياك من التعامل في موقع عملك من منطلق الصداقة مع الجميع أنت لست مع صديقاتك أو بالنادي.. فقط المهنية تحلي بالانضباط والمهنية لا تأخذي شيئًا بمحمل شخصي.. فقط مصلحة العمل وعلاقات دبلوماسية..

كدت أتكلم باندفاع لكنني غصصت بطعامي فتحول وجهي لثمرة طماطم حمراء وأنا أسعل

بشدة انتفض لها شريف محضرا كوب ماء وضاربا ظهري بشدة حتى كدت أجزم أني أصبت بعاهة!!

التقطت أنفاسي بعد بضع رشفات من الماء وأشرت له بكفي أن كفى مكملة حواري المندفع الذي غصصت به:

- ليس معنى أنني جديدة بالعمل أن تبدأ بإملاء نصائحك الثمينة، لا أراك بهذه المهنية مع أصدقائك بالعمل الذين نقابلهم أسبوعيا!!

انبرى مدافعا:

- لا طبعا الأمر مختلف.. نحن أصدقاء منذ زمن وبعضهم أعرفهم من الجامعة!!

كان النوم يداعب أجفاني حاليا بعد وجبتي الدسمة تلك ففضلت الانسحاب من ساحة النقاش بصمت

(وهذه أبدا ليست عادتي) غير مقتنعة لحين آخر فأنا الآن لا أرى إلا أحلامي بنوم هادئ!!

أطفأت الأنوار ووضعت الصغيرة بسريرها..

سمعت شريف يقول شيئا عن كونه سيجلس ليكمل تصميما ما يحتاجه غدا فأومأت له أن نعم وخلال لحظات كنت أسبح ببحر الأحلام..

بعد ساعة أو يزيد انتفضت على أزيز عال متواصل فقمت فزعة هل هناك قنبلة ببيتي؟!

كنت أصرخ وأتعثر يمينا ثم أعاود الركض يسارا ومازال الخدر يعبث برأسي..

أوقفتني يد شريف بحزم حنون بعدما حاول تهدئتي لكن كلماته تبعثرت وقد طغى صراخي على كل شيء آخر..

تشبثت به فزعة فانفجر ضاحكا رفع يده مقابل

وجهي فازداد الضجيج قربي وبحركة واحدة أضاء الغرفة فوجدت أنه كان هاتفي!!

احمررت خجلا ولملمت كرامتي المبعثرة مدعية أنه كان كابوسا ما ملتقطة هاتفي من يده أتساءل ماذا حدث بالعالم؟! من أرسل لي كل هذا الكم من المحادثات هل صرت مشهورة إلي هذه الدرجة؟!

كنت أحاول أن أقرأ الرسائل المتلاحقة لكنه كان فقط يرتجف بين يدي ويصدر أزيزا متلاحقا مزعجا!!

بعد لحظات استطعت أن أرى أنه صار لدي مجموعات جديدة مختلفة للتواصل على تطبيق WhatsApp

فهمت بعد قراءة بعض الرسائل أنه جروب المعلمات ويرحبون بحضوري بكلمات رقيقة

موجزة بعدما أعلمتهم أستاذة لينة بإضافتي للجروب..

وكان هناك جروب آخر باسم صفي حبات السكر أكثر من ثلاثمائة رسالة!!

نعم من هنا كان الطنين!!

كان عيناي تجري على السطور تلتهمها التهاما..

محادثات بين أرقام مختلفة كثيرة لم أميز منها سوى اسم أستاذة لينة..

كان الشعار العام هو الغضب والانزعاج ولا يخل الأمر من بعض الكلمات السخيفة والاتهامات وكل هذا كان موجه ضدي أنا!

معلمة الصف!

لقد أقنعوني أنني سبب كوارث الكون!

أنا من تسبب في رحيل الديناصورات بلا رجعة!

أنا أكثر تسلطا من هتلر!

وسادية من أعتى المجرمين!

أنا أجهل من أبي جهل نفسه

ولكل هذه الأسباب السالف ذكرها والتي لن أستطيع ذكر تفاصيلها لمداراة جرح كرامتي يطالبون برحيلي!!

كنت فاغرة فاهي تتصاعد الأدخنة من رأسي الذي يفور غضبا..

لم أقض مع الأطفال إلا يوما واحدا!! بل أقل من يوم دراسي كامل فقد اعتنت ببعض وقته أستاذة لينة!!

ولكنني قضيت ساعات طويلة اقرأ الكتب وأعد ما سأفعله مع الأطفال أتفهم طبيعة هذا السن كنت حريصة أن أتعلم..

كانت الأفكار تتصارع بعقلي..

لم أملك زمام غضبي فأرسلت رسالة لأستاذة لينة رسالة موجزة صببت بها موجز شعوري بالظلم..

ردي على عاصفة غضبهم الجائرة بحقي ..

(استقالتي ستكون أمامك في الصباح ، أعتذر عن إكمال العام.. جميلة)

الفصل الثالث

"لا تحاول الانتصار في كل الاختلافات، فأحيانا كسب القلوب أولى من كسب المواقف"

الإمام الشافعي

(استقالتي ستكون أمامك في الصباح، أعتذر عن إكمال العام.. جميلة)

كانت تلك حروف رسالتي القليلة العدد لكنها تنبض بوجع ونزف روحي..

وأغلقت هاتفي من بعدها..

ترددت هل أخبر شريف أم لا؟

لكني لم أستطع..

أحفظ ما سيقوله عن الالتزام بعقد وقعته..

عن المهنية والاحترافية ووجوب أن أجعل ذاتي بمنأى عن كل خلافات العمل..

ظللت أتململ بسريري غير قادرة على العودة لنوم أحتاجه..

غير قادرة على الخروج من طوفان أفكاري المنزعجة..

نهضت بهدوء حتى لا أوقظ شريف الذي نام للتو بعد إنهاء مشروعه..

تسللت لمكاني المفضل ببهو المنزل..

جلست على أريكتي أعيد ترتيب الأمر برأسي وقد بدأ وخز ضميري يلعب دوره..

هل أترك أستاذة لينة تتورط بعد كل هذا الجهد الذي بذلته معي؟

نعم الأمهات غاضبات بشدة، فهل أضيف لنيران غضبهن المزيد من الوقود برحيلي تاركة أستاذة لينة واقفة في طريق هذا الطوفان وحدها ببسالة

وشجاعة لا تحسد عليها؟!

شيء من التأنيب طاف بداخلي..

أعيد ترتيب أفكاري للمرة الألف..

ماذا أريد؟!

قرصني الجوع فأوقف أي فكرة أخرى..

مع كل ملعقة من الزبادي بالشوفان مختلطة بحلاوة طعم العسل الأبيض كنت أحاول أن أركز أكثر.. ترى، ما الحل؟!

أطنان من المشكلات!!

كل طفل صار قنبلة موقوتة قد تنفجر بمشكلة أو عدة مشكلات..

بل من الواضح مما قرأت أن كثير منها انفجر بالفعل كما رأيت على جروب الصف بالأمس..

أحضرت مفكرة صغيرة..

وبدأت أكتب المشكلات واحدة تلو الأخرى..

كل شكوى قالتها أم لم أعرف أم من هي!!

فقط مجموعة أرقام غاضبة!!

- ابنتي ترجع بفطورها كما هو!!

- ابني لا يفهم الدروس!!

- ابني يشتكى قسوة معلمته!!

- ابنتي ترفض الذهاب للمدرسة!!

كنقاط أحقق فيها بالصباح وأحاور أستاذة لينة صففتها بمفكرتي..

في الصباح حرصت على ارتداء ملابس رياضية خفيفة وحذاء رياضي كذلك..

رفعت رأسي في ذيل حصان على قمة رأسي انسدل بعدها حتى كتفي بشكل بسيط..

كانت نظرتي لذاتي بالمرآة مختلفة عن نظرتي

بالأمس..

كانت كنظرة محارب يرتدي دروعه وأسلحته ينظر أمامه مصرا على الفوز..

ولكل حرب أسلحتها..

كان الإصرار على النجاح..

الحرص على التعلم وتجديد المعلومات..

الإيمان برسالتي كمعلمة..

ثقتي بالله أولا وبقدرتي على النجاح ثانيا..

كلها أسباب جعلتني أتخطى انزعاجي بالأمس ولا يكون إلا كأحجار أصفها فوق بعضها ببئر مأزقي فترفعني للأعلى إلى أشعة النور بالخارج..

نداءات شريف المتكررة باسمى نبهتني من استغراقي الصباحي..

خرجت أطمئنه أنني قاربت على الانتهاء..

بنظرة مصدومة من أعلى رأسي لأخمص قدمي قال: هل ستذهبين بهذا الزي؟! أين أناقة الأمس؟!

أجبته وأنا أضع عباءتي معترفة: كنت مخطئة أحتاج الراحة أكثر من الأناقة حاليا..

أومأ متفهما وحمل شمس مغادرا للأسفل على وعد أن ألحقه خلال دقائق..

بعد أن وقعت في دفتر الحضور قررت المرور على مكتب أستاذة لينة بعد رسالتي الكارثية بالأمس أتغير بين حروف الاعتذار!

بعض القرارات تؤخذ بلحظة غضب..

تحمل وراء القرار شرارات يأس..

آهات ألم..

تحمل أكثر بكثير من معنى الكلمات الظاهر..

ورسالتي بالأمس كانت كذلك..

لكنني الآن ويا للعجب أحمل جذوة من الطاقة داخلي..

الكثير من التصميم والعزم والأمل في خليط مميز..

ليست المشكلة أننا لا نستطيع..

بل أننا لا نحاول كفاية..

ننهض بعد كل معوق بعد كل فشل موقنون أننا بعد الفشل سنجني يوما نجاح..

(إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا)

ربما لا يكون أول فشل وربما أيضا ليس الأخير لكنه حتما شيء على طريق النجاح سنتذكره يوما بابتسامة قائلين كم تعلمنا منه لنصل لنجاح اليوم

نعم هي فقط أسباب علينا الأخذ بها والتوكل على الله .. بهذه الطاقة الإيجابية التي تكفى للعالم كله

ليفيض تفاؤلا، فتحت باب أستاذة لينة بعد طرقات سريعة..

كان المشهد لافتا..

كانت نظرة الإدارية بمقابلي تشي بذعر لا أعرف سببه حقا مع غمزات وإشارات خفية، أحسست بغبائي الشديد وأنا أتابعها دون فهم شيء..

التفت لليمين أرمق أستاذة لينة بتساؤل.. كان وجهها يحمل ابتسامة رسمية واستطعت أن أقرأ بين تفاصيل وجهها بعض الانزعاج..

وأمامها على الكرسي المقابل يواجهني ظهرها كانت امرأة تتكلم بشكل متواصل وعصبية..

تستمع إليها أستاذة لينة بصبر شديد..

نعم يمكننا أن نشعر أحيانا أن وجودنا في اللحظة الخاطئة..

هذا ما فهمته من تجاهل الجميع الودود لوجودي في هذه اللحظة بل وطلب الإدارية التي تسللت إلي بالعودة لفصلي الآن..

هززت رأسي أن نعم..

ولكن كثير من كلمات متناثرة طالت أذني قبل رحيلي..

بغضب أحيانا

"مشكلة "

ممزوج ببعض يأس

"هذا الفصل لن ينصلح حاله أبدا "

وتصميم وإصرار

"ابني يستحق مكانا أفضل "

وأخيرا رفض

"لن أتحمل هذه الأوضاع أكثر.."

كانت كلمات تشع طاقة سلبية..

تحكي كل انزعاج الأم من عدم استقرار معلمة بالصف لوقت ليس بالقصير..

يبدو أن حبل صبرها نفد في ثاني يوم لي.

هززت رأسي وحاولت نفض ما علق بأذني..

مضيت أتحسس ورقاتي الموجود بها نقاط درسي

أجاهد لأتذكر الألعاب التي أعددتها لشغل الأطفال واستغلال حركتهم المتواصلة في التعلم

أدندن كلمات الأغنية التي صغتها لحرف اليوم

أغنية منغمة قصيرة تحكي رسم الحرف وصوته وبعض كلماته..

تسللت البسمة لشفتي بنعومة مع كلمات الأغنية الطفولية اللذيذة مع التصفيق بين مقاطعها بشكل

مميز ..

أنهيت دندنتي لأجد نفسي أمام باب الصف، قبضت بيدي علي كيس الزينة الذي لحقت بي الإدارية لتعطيه لي قالت شيئا ما عن طلب أستاذة لينة بأن أجهز الصف بشكل لائق فهززت رأسي موافقة..

حضرت ابتسامة واسعة أستقبل بها صغاري الذين حقا يستحقونها

أفتح معهم صفحتنا الثانية في كتاب تعارفنا الجديد

طرقت الباب برقة ثم فتحته ودخلت أدندن أغنيتي كما حفظتها بمرح..

كنجمة تقابل جمهورها من على خشبة المسرح متألقة كان حماسي طاغيا..

وللحق كان تفاعلهم مميزا!

كأجمل جمهور!

بعض البنات صرن يرقصن معي والأولاد يتحركون بسعادة ليقولوا جميعا معي أغنيتنا المشتركة الأولى ..

كانت الآسيوية ترمقني بابتسامة جانبية فهمت منها أن (أنت تتقدمين يا فتاة)

كانت سعادتي لا توصف وأنا استشعر التفافهم حولي

لم يستغرق الأمر ثوان الحمد لله!!

لذا لم أضع الفرصة، وبعد انتهاء الأغنية القصيرة بدأت أشكل معهم دائرة وفهمت المساعدة ما أحاول فعله فنهضت تشكل الدائرة معي تدندن معنا بالكلمات مما زاد فرح الأطفال..

انتهت الأغنية فأعقبتها بقفزة للأعلى وصيحة سعادة شاركنيها الأطفال..

كانوا أكثر من رائعين مليئين بالحيوية..

لاحظت آدم بدأ يتململ وسيشرد مني..

فطلبت منهم الجلوس بحزم..

وطلبت منه مجاورتي..

بدا مترددا بالتنفيذ لكن نظرة عيني المركزة بعمق عينيه أشعرته أن لا مناص..

بابتسامة ساخرة اقترب مني وجلس وبدأ يعبث بخيوط السجادة التي نجلس عليها بحركة عابثة متوترة..

رفعت حاجبي بتصميم..

لقد كان كل إعدادي الْيَوْمَ لحل مشكلة فرط الحركة لآدم

فقد قررت أنه إذا انتظم سلوكه فقد أنجزت نصف مهمتي في ضبط الصف..

آدم

حبة السكر الأولى في المعالجة..

كنت أرمقه في الْيَوْمَ السابق من طرف خفي ..

أرى حركته الدائمة؛ حركة استكشاف لكل ما حوله قد يتوقف عنها لوقت ما يعبث بشيء ما يحاول إدراك كنهه ثم يعاود حركته تحت الطاولة ربما أو حولها أو في أي من أنحاء الصف..

شعره الأشقر المجعد وبشرته الشاحبة وعينيه العسليتين اجتمعوا ليشكلوا نظرة تدل على شعرة من العبقرية..

ينظر حوله بابتسامة دائمة مستهزئا بكل ما هو عادي..

مستمتعا شغوفا بكل جديد..

وقد قررت أنا أن أكون الجديد!

وأحمل كل يوم جديد لأكسب قلب قبل عقل حبة السكر هذه..

دق الجرس معلنا بدأ وقت طعام الأطفال..

كنت قد اخترته كوقت أضع فيه بذرة قوانين الصف..

بهدوء همست: وقت الطعام يا صغار!

فرح البعض وابتهجوا وظهرت اللامبالاة على بعض الوجوه..

قلت قوانين الطعام في شكل نقاط سريعة وأخرجت طعامي وبدأت أطبق القواعد على أن تكون المساعدة مسؤولة بتسجيل اسم من يخالف على السبورة..

بعد ثوان قليلة كان آدم قد عاد لطبيعته وحركاته الدائمة

زفرت بهدوء..

لا بأس لقد هدأ وامتثل لنصف يوم وهو مبتسم وسعيد ليس تحت ضغط..

وبالتعود يصير تركيزه أكثر..

طافت عيناي على ما يمسك بيده..

كان لوحا كبيرا من الشوكولاتة..

خفضت بصري لصندوق طعامه حيث يوجد المزيد والمزيد من السكاكر!!

قطبت حاجبي وقد عرفت أنني أحتاج لتواصل سريع مع والدته بالطبع هذا الكم الهائل من السكر بداعي الحنان يجعل سلوكه يميل لفرط الحركة!!

لن أبني أنا ثم يضيع مجهودي سدى..

مر الْيَوْم سريعا أو ربما أنا من اعتدت رتم ساعاتي بينهم

أراقب سلوكياتهم وأتلمس حلو براءتهم..

استدرت ألملم أشيائي وأراقب عقارب الساعة بانتظار طرقات المعلمة الأخرى للصف..

"أنا أحبك"

كانت كلمات سكرية بتكسر حروف الأطفال اللذيذ أعقبها خطوات راكضة..

وضعت الحقيبة والتفتت أحاول أن أفهم كلمات من كانت هذه..

لكني وجدت الجميع حولي منهمكون باللعب ولا أعرف الفاعل أو الفاعلة..

دغدغت الكلمات اللطيفة مشاعري فكانت خير وسام لنجاحي في يومي الثاني باختراق تلك

القلوب النابضة الصغيرة..

بالطبع هي خطوة بداية فقط..

ومازال أمامي الكثير من الخطوات وسأمشيها

بأمر الله في طريقي الجديد..

كل شيء يبدأ صعبا

ثم يفيد التعود والخبرة هكذا صبرت نفسي وأنا

أحمل شمسي لخارج للمدرسة..

رأيت سيارة شريف بوضوح فخففت خطواتي

خلال دقائق كنت بالسيارة أتنفس الصعداء..

مر الْيَوْمَ بخير وانتهى الدوام

من قال أنه انتهى؟

بقي الاتصال بأم آدم والتواصل حول مشكلته

وحلها

بقي إرسال ملاحظاتي اليومية ورسالتي الرسمية

الأولى كمعلمة الصف لأمهات حبات السكر..
وبقي إعلان موعد تواصلي اليومي معهن بشأن أطفالهن كما اتفقت مع أستاذة لينة..
لا أنسى نظراتها الحنونة لي حين قابلتني وأنا أوقع توقيع الانصراف..
اقتربت مني مشجعة وربتت على كتفي بمؤازرة حركة بسيطة لكنها كادت تنزل دموعي أنا العاطفية الغبية..
ربما لو ظلت مكانها لارتميت بأحضانها أبكي كما أبكي بين أحضان أمي..
لكنها انصرفت تمر بطرقات المبنى تتلمس من تحتاج المساعدة..
كنت أدرك يوما عن يوم تغير خريطة يومي تماما

فلا مناص من تنظيم وقتي تنظيما دقيقا حتى لا أخل بحق طفلتي وزوجي أو أخل بواجباتي ناحية مسؤوليتي الجديدة.

في الحقيقة كنت أشعر أنني كلاعبة سيرك محترفة أناضل حتى لا أقع من على الحبل الدقيق بسقف السيرك

أسير عليه محاولة التوازن بكل تأني ورشاقة

كان شيئا يبعث الأدرينالين بعروقي لإثبات ثبات خطواتي يوما بعد يوم .

صرت أجرب؛ أمن الأفضل تجهيز الغداء في الصباح الباكر قبل ذهابي للمدرسة؟

أم تجهيز معظمه قبل نومي مساءً على أن أتم نضجه حين أعود؟

كان الاختيار الأسوأ أن أبدأ فور عودتي من

المدرسة ولَم أعاود تكراره بعد أول تجربة!

وأحاول الموازنة هل الأفضل غسل كل الملابس بآخر الأسبوع أم تقسيمها كل يومين أو ثلاثة؟

كان روتين يومي يتغير لأنني صرت مشغولة ووقتي بالمنزل أقل..

ولا وقت فراغ وهذا أفضل ما في حياتي الجديدة!

أنا طوال الوقت أجهز بيتي وشؤونه أو عملي وشؤونه.

صرت أشعر أني ملأت الفراغ داخلي قبل فراغ وقتي..

وها أنا واقفة أمام الموقد أتفادى الرزاز المتطاير من تحمير البطاطا المقلية كما تحبها شمس..

أشعل الموقد الآخر لتسخين المعكرونة كما يحبها شريف..

أجمل الوجبات هي وجبة صنعت بالحب..

بين يدي أم وزوجة سعيدة ومخلصة..

وجبة لها مذاق مختلف عن أي وجبة..

ولذلك يتذكر الجميع طعام الأمهات بحنين..

فهي وجبة صنعت مع دفء الأسرة وجميل الذكريات ممتزجة بعبق الحياة في وصفة لا ينسى مذاق أصالتها أبدا!

كان صوت شريف يداعب شمس راكضا خلفها يصلني فيطرب أذني متشوقة لأنهي ما أعد وأخرج إليهم..

بعد دقائق كنّا جالسين نتشارك تلك الوجبة وما أجمل من الكلام بين ثنايا وجبة دسمة!!

بدأ شريف الحوار قائلا:

- هل تعرفين أخو سوزان الذي جاء مؤخرا معنا

للشركة؟!

أومأت بنعم ويدي تمتد لتطعم الصغيرة الجائعة، فأكمل منطلقا:

- هو شاب مؤدب ومهندس ذو مستقبل إن شاء الله رغم صغر سنه وقلة خبرته لكنه متحمس للتعلم وأنا فخور بأنني أشرفت على تدريبه الأشهر السابقة حتى تم تثبيته بالعمل..

ابتسم بمشاغبة وأكمل: وبعد التثبيت صار يفكر بالاستقرار ويحلم بالعروس!

ضحكت مشاركة إياه هذا الطقس المرح:

- ههههه

فأكمل يتصنع البؤس:

- نصحته كثيرا أنه سيندم بعد هذا القرار وبعدما يتورط لا ينفع الندم!!

رسمت ملامح غاضبة على وجهي:

- أهذا رأيك؟.. حسنا لن أقول لك عن العروس التي لدي!

عاد شريف للجدية تاركا مزاحه الثقيل:

- حقا لديك عروس مناسبة؟!

تصنعت هدوءا مستفزا وأنا آكل طعامي بتلذذ مداعبة شمس وأنا أطعمها من حين لآخر..

حتى شعرت أن الدخان يتصاعد من رأسه فقررت قصر الشر.

فتكلمت بإفصاح:

- حسنا صديقتي بالمدرسة ليلى تقيم هنا منذ عدة سنوات ويملك أبوها الصيدلية القريبة من المدرسة..

قال شريف بابتهاج:

- نعم لقد تعاملت معه أكثر من مرة.. إنه شخص مهذب لكني لم أعرف أن ابنته تعمل معك.. على أي حال هذا رائع فيمكننا التواصل مع والدها دون إحراجها بالسؤال عن مكان بيتهم أو رقم والدها وليقدم الله ما فيه الخير..

كنت متحمسة للفكرة فأخو سوزان رغم أني لم ألتقيه يبدو كعريس لقطة كما يقولون وصديقتي تستحق..

منيت نفسي بحضور حفل خطوبتهما قريبا حتى لكأني أتشمم رائحة الزهور في باقة يدها..

تنبهت لصياح شمس وقد شبعت وأثقل النوم رأسها فحملتها لتغسل وجهها وأضعها بالسرير بعدما وعد شريف بتنظيف المائدة..

وعلى شق الوسن، وبين نومي وصحوي كانت

أحلامي وردية بأميرتي ليلى الحبيبة..

وفِي الصباح التالي الذي صادف آخر الأسبوع عرفت من شريف أن الأمير أقصد العريس قد قابل والدها وأخذ موعد للغد لزيارتهم .

طبعا لن ألقاها قبل بداية الأسبوع في العمل لكني كنت أتحرق شوقا لمعرفة نتيجة اللقاء..

وفِي تجمع الأصدقاء الأسبوعي كان موعدنا عند علا وتمنيت لو أعرف من سوزان أي معلومة عما تم في موضوع أخيها وليلى..

وبعد السلامات والتحايا جلسنا نتجاذب أطراف الحديث..

علا :

- ترى ما أخبار عملك الجديد يا جميلة؟

أجبتها وأنا أرتشف من عصير المانجو اللذيذ:

- بصراحه تغيرت حياتي ياعلا

صرت مشغولة دائماً بشكل جميل.. لا أعاني مللا أو فراغا.. تحسنت نفسيتي بشكل ملحوظ..

ضحكت سوزان قائلة:

- لكني لا أرى هذا التحسن على وجهك الأصفر والهالات السوداء تحت عينيك...

أكملت معقبة:

- أعرف يا سوزي لكني حاليا أبذل جهدا مضاعفا لأني جديدة وأحتاج لتحضير الكثير من الأشياء وتغيير روتيني المعتاد في المنزل وأحاول التوازن مع الاستيقاظ مبكرا الجديد على حياتي..

أجابت علا:

- صدقيني الاستيقاظ مبكرا أصح لجسدك فقط أيام وتعتادين الأمر.. هممت بالتعقيب موافقة لكن

صوت هند قاطعنا:

- هذا حين يكون لديك خيار النوم مبكرا أو النوم أصلا..

كانت تتكلم بحسرة وهي ترمق توائمها النائمين نوما عميقا يعني سهرة مميزة للصباح لها بعد العودة للمنزل!

انطلقت موجة ضاحكة بيننا وأخذنا نواسيها ببعض الحلوى التي تجيد علا صنعها ونحاول توفير بعض الهدوء والراحة لها لتستعين بهذا الدلال على أسبوع قادم مع كتاكيتها الثلاثة..

اندمجت تماما معهم فقد كنت أحتاج بشدة لبعض المرح.. لم تقل سوزان أي شيء ولَم أحب أن أسألها..

وفِي صباح الْيَوْمَ التالي كان صبري بدأ ينفد

كنت أفرغ توتري بموعد استراحتي في الصباح بالحركة حول المكان وأداء المهام المطلوبة والغير مطلوبة مني..

رتبت طاولة المعلمات الرئيسيّة..

صححت كتبي..

أعدت ترتيب ماذا سأفعل بالصف..

وكل هذا ولَم تحضر حتى الآن!!

زفرت بتوتر وألقيت جسدي على أحد الكراسي أعبث بلعبة صغيرة بين أصابعي من هدايا الأطفال التي أصبحت منثورة في أنحاء حقيبتي باستمرار كوصفة سرية لولوج قلوبهم..

ابتسمت حينما جالت بذهني وجوههم البريئة في الصباح وتأثير المفاجأة عليهم حين وقفت بمنتصف الصف

طلبت منهم إغماض أعينهم في انتظار مفاجأة..

بدوا متحرقين شوقا!

يحاول بعضهم الخداع والنظر بعيون شبه مغلقة

أغلقت الكيس الملون بين يدي بحزم هاتفه أن من

يغش لن ينال الجائزة!

بين أرجل تتحرك بتوتر..

وعيون مغمضة بشدة..

وملامح حالمة مبتسمة..

وددت لو أستطيع أن أتأملهم لباقي الْيَوْمَ !

لكن همهمات عجولة ومنزعجة نبهتني لضرورة

الإسراع..

بدأت أعطي كل منهم هديته بكفه..

مسموح له بتحسسها وتقليبها..

لكن غير مسموح له بفتح عينيه..

حتى أنتهي من التوزيع للكل..

كان امتثالهم للأمر بريئا لذيذا مهذبا..

حين انتهيت صفقت بيدي ليفتح الكل أعينهم بلهفة..

وضعت كفي على فمي أكتم ضحكة قصيرة أتت مع الذكرى البريئة لكنها تلاشت وحدها حين لمحتها تدخل الغرفة..

متأخرة على غير العادة يبدو على وجهها ملامح حزن تداريها بكبرياء مجروح..

كان تتحرك بآلية كأنه يوم روتيني تبدأه ككل يوم لكن لم يغب عن عيني أنها كانت مثقلة بالهم..

اجتاحتني المخاوف أن أكون أنا بفعلتي سبب ما هي فيه

فقد أصررت على شريف أن يقول لأخو سوزان

عنها

وأكثرت من يا بخت من وفق رأسين في الحلال

وستساهم في حل مشكلة فتاة حتى أنني هتفت فيه

وأين شهامتك؟

لويت فمي بخيبة أمل..

يبدو أن مسعاي فشل فشلا ذريعا..

آه يا صديقتي المسكينة!

بكوب المشروب المفضل لها جاورتني الكرسي..

وألقت تحية مقتضبة..

لكن ما قالته عيناها حين التقت عيناي كان مستفيضا!!

الصغيرة حزينة..

بل مجروحة..

ونظرتها تحملني المسؤولية كاملة ولن يجدي

الإنكار شيئا..

همست ببؤس :

- حسنا..

لا حاجة للكلام في الأمر!

أنت صدمتني..

لم أظنك كالآخرين تعرضينني كسلعة بائرة..

أنا حقا أتمنى الزواج وتكوين أسرة..

لكني أنتظر أن أتزوج زوج اخترته عن رضا..

وليس وافقت به لأنه المتاح..

المتاح هذا صار أقل وأكثر عيوبا..

وصار أيضا يكاد بمجرد أن يطأ بيتنا مفروضا علي..

يكادون يمسكون بأذيال ثوبه شاكرين تفضله بالحضور

مبتهلين أن يوافق..

كانت مطرقة برأسها تنساب الكلمات من فمها مغلفة بالألم..

غطت غرتها وبعض خصلات شعرها المنسابة معظم وجهها ولَم تترك لي الكثير..

لكنها صمتت بعدها زامة شفتيها بقوة..

كانت تكبح جماح عاصفة من البكاء بقوة تليق بها..

يبدو أن مسعاي فشل..

أدرت وجهي لحظات أتصنع لملمة أشيائي..

أسب فعلتي الغبية وتصرفي الساذج..

لم أسأل عن أي شيء عنه، لم أخبرها أو استشيرها..

فقط رأيته كعريس وطوق نجاة..

لقد ذبحتها بسكين بارد..

يالغبائي!

بعدما أمهلتها لحظات لتهدأ..

ومنحت نفسي ذات اللحظات ألملم كلمات أرد بها،

رددت بصوت بالكاد يسمع:

- لنغلق هذه الصفحة، أعتذر حقا

وكان الدور بدمعاتي أنا..

وأنا لا أملك زمام القوة لكبحها..

بدوت كطفلة صغيرة بأنف محمر ووجنتين مشتعلتين، فقلت محاولة الابتسام : ليكن بعلمك لقد طلبت الفطور الساخن لكلانا مع حلواك المفضلة ستصل مع استراحتنا القادمة ..

أضاء وجهها بضحكة غلفت بها كل ما بقى على

وجهها من آثار حديثنا..

وتخطينا الأمر بلباقة ولو ظاهريا..

وليداوي كل منا ما بداخله على مهل..

فالجراح لا تلتئم مع كلمة اعتذار..

إنما فقط تكون بالكاد تطهرت وتحتاج وقتا بعدها ومناخ صحي مراعي لتلتئم بالوقت المناسب..

ولقد تعلمت درسي بالتأني خصوصا في شؤون الغير هذا ما كنت أفكر فيه في طريقي لصفي كان باب غرفة أستاذة لينة مواربا..

لمحت إحدى المسؤولات عن إدارة المدرسة..

كانتا تبدوان في حديثا غير ودي بالمرة..

ترى ماذا جرى؟

شغلني الأمر ولكن ماذا بيدي؟!

مضيت بطريقي أدعو الله أن تكون الأمور بخير!

الفصل الرابع

تعاقب الفصول

"لو أنّ شيئا يدوم على حال فلمَ تتعاقب الفصول؟"

نجيب محفوظ، الحرافيش

يوم بعد يوم كانت طرقاتي على باب الصف تحمل دلالة بداية ليوم جديد مع حبات السكر خاصتي

يوم بعد يوم صارت العشرة بيننا أطول

صارت تفاصيلهم لي أوضح

لا أنسى وقت كلمت والدته .

جلست أعد للمكالمة وكأنه خطابي الرئاسي الأول للشعب..

أعيد الكلمات في رأسي مرات ومرات..

ثم حسمت أمري وضغطت زر الاتصال متشبثة بمفكرتي الصغيرة وقد كتبت فيها أهم النقاط لحل مشكلة الطفل كثير الحركة..

في نقاط صغيرة صففتها:

- شغل الطفل وتوجيه طاقته في اتجاه مناسب ووضع خطط لذلك مختلفة والتبديل بينها..

- تشجيع الطفل وإعطاؤه دعما نفسيا وإبداء الحب له وعدم إظهار النفور الشديد من أفعاله..

- ترتيب أنواع طعام الطفل حتى لا تزيد من المشكلة كتناول السكريات أو الطعام المصنع الغير طبيعي تزيد المشكلة..

بعد سماع الرنين المتواصل سمعت صوت فتح الخط الآخر وردت والدة آدم بصوت أنثوي رقيق:

- السلام عليكم ورحمة الله..

رددت بترحيب:

- وعليكم السلام ورحمة الله

أهلا والدة آدم.. أنا جميلة معلمته

ردت بقلق وتوتر:

- أهلا معلمة جميلة كيف حالك وكيف حاله معك؟!

قلت باندفاع وحماس:

- أهلا بك.. أنا بخير..

بخير حال هو حاله معي يحتاج فقط بعض الاهتمام الزائد ليكون الوضع مثاليا بحق..

هل سمعت صوت زفرة اطمئنان؟! لست واثقة لكنها أكملت بصوت هادئ متزن:

- بصراحة آدم كثير الحركة بل مفرط بها!!

قلت مدافعة عن حبة السكر خاصتي:

- اسمعي ليس اضطرابا مرضيا! فهو يسمعني ويتابع الدرس ويجاوب وقتما أسأله، لكنه شخص حركي بطبعه يحتاج للحركة دائما!!

قالت بسرور:

- أنت معلمة طيبة وصبورة.. صدقيني أنا أمه أتعب من كثرة حركته وما تسببه من كوارث بالمنزل فأصرخ عليه وربما ضربه والده تعنيفا ليهدأ قليلا قبل أن نجن!

قلت بذعر وأنا أراها تحطم كل قواعد معالجة المشكلة فتزيد من حدتها عند الطفل:

- لكنها حركة هو مجبول عليها!!

كثرة التعنيف وعدم التقبل تزعجه أكثر وتباعد بينكم عاطفيا فيشعر أنه منبوذ وهذا يعقد المشكلة

أكثر!!

أقرت بحزن:

- لقد صار يكرر أنه شخص سيّء ولا أحد يحبه بل إذا فعل شيء ما انتظر العقاب دون تأثر حقيقي..

لم يعد شيء يجدي معه!!

هل تعلمين أنت ثالث مدرسة تتعامل معه لكنك أول واحدة يقول كم يحبها!!

أول واحدة لا تشتكي منه!!

ثم أضافت بامتنان:

- شكرًا لتحملك!

قلت بحب حقيقي:

- آدم هو صغيري وحبي له فطري مثلك تماما..

ثم اندفعت أشرح لها حل المشكلة، أرمق المفكرة

بطرف بصري وأسهب في شرح خطوات الحل لإعادة تشكيل علاقته بمن حوله وتقبلهم له وتوجيه طاقته بشكل إيجابي مع عدم إغفال نوعية الطعام مبتعدين عن السكريات الزائدة والمواد الحافظة..

آدم الغالي كان مساعدي الدائم بعد هذا اليوم، كان هذا يشعره بالفخر ويشعره أني أقدر تميزه..

كان عليّ أن أمنحه الحب والتفهم وأوضح له قواعد التعامل وأضع معه خطة مشجعة لإخراج حركته بشكل مُرضي لي وله قبلما أعاقبه على أفعاله العشوائية..

نحن نعاقبهم ثم نعاقبهم..

نعاقب بروح الغضب المتحكمة فينا في لحظة تغييب عقل من تصرفاتهم الحمقاء أحيانا وننسى

أن نعطيهم القواعد قبل لحظة الانفجار ونفهمهم كيف يجب أن يتصرفوا..

نعاقبهم بالأخذ وأخذ المزيد إن لم يستجيبوا دون أن نمنحهم ما يحتاجون من حب وتقبل واحترام ومحاولة التفاهم معهم وتأكيد تفهمنا لحاجتهم للحركة بل ووضع خطط للعب يسيل لها لعابهم إن التزموا ما نقول..

ربما لو منحناهم لكانوا أكثر حرصا على طاعتنا..

وكنت أطلب من اثنين أو ثلاثة آخرين مساعدتي كل يوم ليستشعر الجميع روح الأسرة وروح المشاركة..

كأم تجمع أطفالها حولها بحب..

كانت ثاني حصصي الْيَوْمَ حصة الكتابة..

وحصة الكتابة لمن لا يعلم تحتاج مثابرة وصبر وطولة بال..

بسن الخمس سنوات يكون سهل على الطفل التعلم بالتلقين فهم شرح مبسط وربما حفظ أنشودة عن الدرس تحوي معلوماته بشكل منظم وكلمات بسيطة منغمة تطرب لها آذانهم ويسعدهم أكثر تعلم بعض حركات يؤدونها معها..

لذا بدأت حصتي بمراجعة أنشودة الدرس التي حفظناها في الأيام السابقة..

رددتها وردد الجميع معي في سيمفونية لذيذة بأحرف مكسرة ولثغات طفولية مميزة ونغم أصوات بريئة لطيفة

أرمق بسماتهم بسعادة غامرة..

انتهت اللحظات اللطيفة وصرنا للحظات

الأصعب..
أن تقنع أولئك الصغار بخط الحرف على الورق..
أن يمسكوا القلم بتلك الأصابع والكفوف الصغيرة محاولين إتقان رسم الحرف كما رسمته أنا بكل بساطة على السبورة بشكل واضح..
أن تزرعي في قلب كل طفل المثابرة والإصرار والمحاولة مرة بعد مرة حتى يتقن..
أن تقدري أن تمحي ما كتب بجهد بالممحاة مشجعة أنك واثقة أنه يستطيع أن يكتبها بالشكل الصحيح..
أن تصبي من يقين قلبك وثقته بهم في قلوبهم الصغيرة..
نعم إن التعليم صناعة، بل خير الصناعات..
فالناتج المنتظر الصحيح هو بشر قادر على

مواجهة الحياة!!

كالنحلة كنت أتنقل من طاولة لأخرى أتأكد من كتاب كتاب بنفسي بينما عينا المساعدة تدور في كل مكان لئلا يؤذي أحدهم صديقة بسن القلم!!

كطبيب يمسك مشرط الجراحة بحرفية ليجري عملية خطيرة كانت صغيرتي لين تخط الحرف بعدما مسحته..

علامات التركيز على ملامحها الصغيرة وهي تحاول التحكم بتلك العضلات الصغيرة بكفها في اجتهاد أخيرا انتهت الصغيرة وصفقت بكفيها في سعادة فشاركتها التصفيق هاتفة بانفعال:

- رائع يا لين

ثم اقتربت منها وضممتها بقوة فالتفت ذراعاها حول عنقي في تشبث طفولي محبب قائلة:

- أنت رائعة..

أنزلتها للأرض برفق، شاكرة ربي أن وفقني وأخيرا بعد أيام من التدريب تحسنت كتابتها وصارت تكتب على السطر بثقة!!

لا أنسى بكاءها بأول حصة كتابة ودموعها تحكي حزنها.

تهربها للحمام في طلب يائس للخروج من الصف ومن الكتابة لأجدها بين أحضان الدادة تشكو لها (لا أعرف، لا أريد أن أكتب)

والسيدة الطيبة تهدهدها برفق..

كانت تفر للحمام كلما ملت!!

وأنا أتساءل لمَ الصغيرة كثيرة الطلب للذهاب للحمام؟!!

تلك الماكرة الصغيرة تكتب بثقة الْيَوْمَ أخيرا!!

مررت بالجميع بين الأكثر مهارة يكتبون بكل ثقة وبين الأوسط يحاولون بدأب مع تشجيعي المستمر والمتعثرون يحتاجون الكثير من المساعدة دائما وبالكاد أخرج بنتيجة..

لكن نادين كانت مختلفة

حبة سكر بلون الشوكولاتة وعينين كحيلتين وشعر أسود ناعم كالليل يلامس كتفيها برقة..

أتابع تفاصيلها منذ فترة..

ألمح اضطرابها وفزعها مع كل حركة مفاجئة قريبة منها..

رفضها الدائم لإغلاق النور بالصف ولو أثناء اللعب..

الفتاة تحمل كثير من الخوف بقلبها..

ترى ما قصتك يا حبة السكر بلون الشوكولا؟!

اتصلت بالرقم الموجود بالإدارة لأهلها فلم يرد أحد.

سأحدث أستاذة لينة عنها لتساعدني بإيجاد حل..

وها قد انتهت حصة الكتابة أخيرا..

حصة ثقيلة ودسمة فقررت الاحتفال مع الصغار باللعب بالكرة فتقافز الجميع فرحا بالفكرة..

انتهى الوقت المخصص لي فودعتهم على وعد اللقاء وتوجهت لمكتب أستاذة لينة..

أنظر بعمق عينيها أحاول الوصول لما يطمئنني عن أخبارها فقد كثرت الإشاعات بالمدرسة دون خبر يقين..

ولكن على لساني خرجت كلمات تحمل أكثر من معنى فقد قلت لها ببساطة : كيف حالك؟

بابتسامة رزينة مطمئنة بخير حال يا جميلة.

ثم ضحكت مداعبة:

- مر أكثر من أسبوع ولَم تأتني شكوى من أمهات حبات السكر خاصتك..

أجبتها بامتنان: الحمدلله..

وشكرا لك على الدعم الدائم..

انطلقت أحكي بلا توقف عن الصف.. وهي تصغي باهتمام..

عن آدم وتقدمه المذهل سلوكيا..

عن لين التي صارت تكتب أخيرا..

عن الصف وتقدم الأطفال العلمي والسلوكي الملحوظ..

عن كثير من الخطط للمستقبل..

ثم شاب وجهي شيء من القلق قائلة : الصغيرة نادين شيء غريب بها!

دائماً حزينة كثيرة الخوف والقلق متأخرة دراسيا!

ارتسمت ملامح الجدية على وجهها قائلة: حسنا تواصلي مع أمها..

أجبت بشرود : نعم حاولت لكن الرقم المسجل لها بالمدرسة لا يجيب ويبدو أنها غير موجودة بالمجموعة الخاصة بالفصل على(الواتس آب) أيضا!

بريبة أجابت :

- هذا غريب فعلا!!

على أية حال حاولي الاهتمام بالفتاة وربما نتكلم مع من يحضر ليأخذها من المدرسة سواء الأم أو الأب ونأخذ رقما للتواصل!!

ورفعت هاتفها محدثة الإدارية مخبرة إياها باسم الفتاة قائلة:

- أخبري مسؤول البوابة أن يناديني حين يصل ذويها الْيَوْمَ.

أحسست أن عبئا انزاح عن ظهري بمشاركة المشكلة ومناقشة الحل.

وعدت لغرفة المعلمات شاكرة..

وبجوار ماكينة صنع القهوة تقابلنا كل منا تحمل كوبا منتظرة قليل من السائل الداكن، جرعة من اليقظة تعينها على استكمال يومها بنشاط..

كانت جولي واقفة بهدوء صامت لكنها لم تسمح لي بالهرب الناعم ذاك..

هتفت:

- جميلة أنت هنا؟!!

أومأت نعم

فأكملت:

- سمعت أنك تتقدمين مع حبات سكرك تلك

ابتسامة ثقيلة الآن على شفتي محاولة إنهاء الحوار بالانتهاء من إعداد كوبي بسرعة.

لكنها مدت يدها أمام عيني هاتفة:

- ما سبق (حمادة) والقادم (حمادة آخر)..

كانت مزحة تبعتها بضحكة عالية أمام ذهولي..

فهتفت موضحة:

- أول يوم مفتوح لك قريبا..

لا كتب لا دروس..

إنما فعاليات ليوم كامل مع الصغار

لك وحدك..

كان فكي الأسفل يتدلى ببلاهة وعدم فهم وهذا زاد ابتسامتها الشامتة مع انصرافها..

أخذت شهيقا واستغفرت محاولة طرد انزعاجي

حاملة كوبي المعد أخيرا وبجوار الباب كانت ليلى التي لا أدري متى حضرت! تقف هامسة:

- لا تهتمي لها (بيوتيفول)..

هي فقط تقف متشدقة بخبراتها منتظرة عثرة لك..

نعم يغيظها نجاحك وكأنه يقتطع جزءا من نجاحها الخاص..

تكلمت بغيظ:

- تلك الإنسانة تزعجني يا ليلى

تعكر صفوي حقا..

أنا بالكاد أثبت خطواتي فلتدعني لشأني..

ثم أردفت بعدما تذكرت: وما به الْيَوْمَ المفتوح هذا أيضا؟

قالت ليلى رافعة كتفيها بلا مبالاة: كل التفاصيل كتبتها أستاذة لينة على مجموعة المعلمات وهناك

اجتماع آخر الْيَوْمَ لأي استفسار..

ثم أكملت بثقة مركزة نظرها بعمق عيني:

- لكنه منهك ومرهق للغاية.. رفعت بصري أفكر الآن، فهمت بما كانت جولي تفكر، لا تكف عن العبث بي والتهكم على كل ما أفعل!!

أخذت كوب قهوتي منصرفة مع ليلي وفِي أعماق عقلي تدور الكلمات..

لماذا بعض الناس يستمتعون بتكدير الآخرين؟!

جولي بموقف قوة هي من أقوى المعلمات هنا ولها سمعة طيبة فماذا يثير غيرتها من معلمة تخطو أول خطواتها مثلي؟!

ما الفارق بين ليلي وجولي ليكن لكل منهما رد فعل مختلف على وجودي بمدرستهم؟

فبينما ليلى تدعمني طول الوقت في علاقة صداقة

متكافئة تصر جولي على إثارة مخاوفي وتوتري وانزعاجي!

بصراحة العلاقة بين جولي وليلى دائما رسمية ولا أدري لماذا رغم أنهما زميلتان من وقت بعيد..

هتفت ليلى بصوت مرتفع نسبيا:

- من يحوز عقلك ليهنأ به..

نفضت رأسي نافضة عنها تساؤلاتي التي لا تنتهي وقلت لها مازحة: أنت أيتها السمراء!

ضحكت ليلى قائلة:

- ياللنفاق!!

فقلت بصدق:

- لا بل حقا.. بصراحة أنا لا أنسى لك فضلك علي..

دائما ما أجبت أسئلتي عن أي شيء يستشكل علي بتواضع وساندتني في الوقوف على قدمي

قالت بتندر: لا تظني أنه كان لأجلك.. فقط أردت التخلص من فصل حبات السكر المزعج والحصص الاحتياطي المتكررة كلما هربت إحداهن..

ثم أكملت بمزاح أقرب للجد:

- لكنك صمدت يا قوية وأكملت ما يقارب الشهر وهذا إنجاز يحق لنا الاحتفال به!

ضحكنا سويا بعفوية ولكني لمحت وجه جولي تشاهدنا من بعيد ثم تنصرف غاضبة..

الآن فهمت ماذا يزعج جولي فتعاديني!

عدنا لصفوفنا بعد الاستراحة وكنت قد تعودت الصف وصرت أستشعر ارتياحا بوجودي فيه،

ولَم لا؟! فكرت وأنا أتأمل الصف من النافذة بانتظار خروج المعلمة الأخرى بالداخل..

مكان ساعدت بتزيينه وترتيبه كأجمل مايكون بألوان مبهجة طفولية لطالما أحببتها..

تصميم الباب وحده أسهرني ليال وقد كنت بعد رؤية أبواب الأخريات وما خلفته في نفسي أعرف أنه بوابة الصف وأن كل من يعبر البوابة يرى انطباعا عنك وعن رؤيتك فيه فلم أحبه تقليديا من اللوحات الجاهزة بالمكتبات لكن مختلفا من صنع يدي وأشركت فيه الأطفال بأشياء بسيطة لأن من يشارك بشيء مستحيل أن يتلفه..

نعم كانت سعادة المساعدة عظيمة وهي ترى الأطفال بعدما زينوا الفصل معي كل يوم نكمل جزءا حتى اكتمل أخيرا قرروا الحفاظ عليه وإذا

ما حاول أي أحد العبث بديكوراته يدافعون ويذودون عنه بعدما كانوا يفسدون كل شيء بعد كل مرة يزين بها وتبدأ هي والمعلمة من جديد..

تلك المساعدة التي صرت أقضي نصف يومي معها تلك الآسيوية كانت مساعدتي بالصف لكنني بدوت كمساعدتها!!

بقوة شخصيتها ونظاراتها

بدت كطبيبة!

كانت خمسينية لكنها تفوقني نشاطا..

تعلمت منها أن العمر رقم ليس إلا..

كانت أحيانا ترمي لي بعض النصائح..

أو اللوم المبطن..

كنت أفهمها..

رغم اختلاف جنسيتنا ولغتنا الأم وظروف معيشتنا..

بدا لي رابط الإنسانية أعلى وأوضح بين كل البشر مهما اختلفوا..

بقيت أحترمها وأتعلم منها..

بعض الأوقات كانت تثرثر عن أبناء تركتهم خلفها تفتخر أنهم بالجامعة..

هي بعيدة عنهم لأجل أن ترسل لهم نفقات تكفل حياتهم..

واختبارات الحياة صعبة..

رغم كل هذا البؤس دوما ما كانت بشوشة..

صاحبة نكتة..

تنشر المرح في ذرات الهواء من حولها.. تداعب وتهتم بكل الصغار كأنهم أطفالها..

الآن خرجت المعلمة الأخرى وحيتني بكفها وهي تمضي للصف المجاور في عجالة وهرعت أنا لبيتي وبيت حبات السكر ومساعدتي أيضا..

بيتا نتعلم فيه جميعا كيف نصير أفضل..

ونظرًا لما كنت أمر به من حالة سعادة فقد قررت أن أهديهم فرحة معي..

فبعد تبادل التحايا والعناق طلبت منهم قائلة:

- حسنا يا صغار لنعد لأماكننا من فضلكم فأنا أملك أخبارا رائعة!

بدأ الجميع بالتحرك وأعينهم مثبتة علي تلمع بفضولهم لأكمل كلامي..

أخبرتهم بكل تفاصيل الْيَوْمَ المفتوح من مرح ولعب ومشاهدة لفيلم كارتوني سويا بالصف ثم فقرة المطبخ والطهي سويا..

كنت أنوي أن أكمل عن أهمية النظام والتعاون منهم معي والالتزام بقوانين الصف وَلَكِن صوتي بدأ يتوه وسط صيحاتهم الفرحة فصمت..

نعم لقد تعلموا الكثير لكنني مازلت أملك طريقا طويلا علي أن أمضي فيه معهم..

كانت صيحات المساعدة تطالبهم بالهدوء ثم بدأت بتهديدهم بإلغاء الفاعلية إن لم يهدأوا فجلسوا على رؤوسهم الطير خوفا من ضياع الْيَوْمَ الذي يبدوا أنهم كانوا ينتظرونه منذ فترة..

وبدأت الدرس..

كان إعداد الدروس قد صار بالنسبة لي فنا خاصا أعشقه وكلما زادت صعوبة الدرس كلما اجتهدت في التفكير والإعداد لأنسب طريقة ووسائل لشرحه وأجمل شعور هو حينما أنتهي وأسأل

بعض الأسئلة فأجد الصغار يجاوبون بسلاسة وحماس حينها أشعر بنجاحي الصغير..

انتهى الدرس وطلبت من مساعدة أن تعطي الأطفال بعض الصلصال ليلعبوا مؤكدة عليهم ضرورة اللعب بهدوء ودون إزعاج الغير بل والتعاون كمجموعة على كل طاولة فالعمل الجماعي هو ما يحتاج الصغار لتعلمه وتفهمه ليتقبلوا الاخر باختلافه واختياراته المتنوعة وبدأت دروي الثاني بمراقبة الصغار.

آدم قائد الصف لكنه صار أكثر اندماجا معهم بفضل الله وصاروا يحبونه ويتقبلونه أكثر ويمضون وقت اللعب معا وهذا كان نجاحا هاما..

لين قطعة السكر الذهبية بعيون لامعة وابتسامة واسعة لم أر أجمل منها أشرقت أخيرا بعدما كفت

عن البكاء، يوما بعد يوم أراها تتصرف بحرية أكثر وتآلف مع مجتمع الصف.. كانت تحادث نادين تحاول إقناعها بمشاركتها بعمل دمية بالصلصال ولكن نادين لم تبد متحمسة للمشروع الكبير بل ظلت تعبث بقطعة صلصال في يدها برتابة..

ولكن حماس لين لم يفتر فأخذت تشوقها:

- هيا يا نادين.. سأقول لك فكرة شاركيني بصنعها وسأجعلها تشبهك ذات عينان سوداوان وشعر أسود ناعم!

لم تتجاوب نادين فأخذت لين تغريها أكثر بالقبول:

- هيا صدقيني أستطيع أن ألبسها ثوبا رائعا سيعجبك كثيرا وبالألوان التي تختاريها أنت!

بدأت نادين تتجاوب ببطء وجلست بجوار لين

مادة يدها إليها بقطع الصلصال خاصتها ليتشاركا الصنع كان فرح لين بها عظيما فضمتها لها بعفوية وبراءة وهنا بزغت شبه ابتسامة على شفتي نادين أخيرا..

كنت أراقبهم مسحورة بالحوار الدائر بينهما أراقب اختفاء الحائط الذي تجعله نادين بينها وبين العالم وهي تتجاذب الحديث الآن ببساطة مع لين.. لين التي نجحت فيما فشلت فيه أنا! نجحت في رسم شبه ابتسامة بخطوط مهتزة على وجه نادين..

انتهى وقت الصف وحان وقت انصرافي ..كنت منهكة للغاية أحتاج قسطا من الراحة قبل أي شيء آخر فلملمت أوراقي وحقيبتي وقبل أن ألتفت لألقي عليهم تحيتي سمعت خشخشة

خطوات صغيرة خلفي ابتسمت وثبت مكاني

هذي هي الخطوات نفسها كل مرة تلك الخطوات التي ترمي لي كلماتها السكرية (أنا أحبك) ثم تمضي هاربة

كنت أنتظر اللحظة المناسبة للإمساك بصاحب أو صاحبة الخطوات المتسللة..

فالتفت بعدما تأكدت أن الخطوات خلفي تماما وقلت: (أنا أحبك)

لين يا غاليتي!

شيء ما وخز قلبي وأنا أرمق عينيها البنيتين وخصلاتها الذهبية وجسدها الصغير..

كان وقع كلماتها على قلبي بصوتها الرقيق كأجمل ما تكون زقزقة العصافير بالصباح ..

ابتسمت بحبور هذه المرة استطعت اللحاق بعينيها

ووجهها وهي تلقي كلماتها بلغة مكسرة وتتصرف هاربة ..

كانت تعني: " أنا أحبك "

يا إلهي!

نقاء الحليب لا يساوي شيئا بجوار نقاء قلوب الصغار!

ضحكت الصغيرة من تقليدي لكلماتها مشيحة بوجهها بخجل من ضبطي لها لكنني ضممتها لصدري بسعادة فقد لا يعرف الصغار أننا نحن الكبار نحتاج لهم أكثر مما يحتاجون إلينا نحتاج أن نقتبس من نقائهم..

خرجت من الصف بقلب يرفرف بسعادة مشتاقة حقا لمزيد من السعادة غدا في يوم الصغار المفتوح..

وفِي الْيَوْمَ التالي كانت المدرسة تحوي (كرنفالا)
إذا صح التعبير
الأطفال بملابس ملونة ولطيفة بعيدا عن الزِّي المدرسي بعضهم ارتدى زي شخصيته الكارتونية المفضلة وبعضهم ارتدي ملابس أنيقة
كان يبدو كيوم العيد..
كل شيء مختلف عن رتابة الْيَوْمَ الدراسي المعتادة..
أي شيء مع التكرار يصبح مملا
نحتاج لكسر الروتين من حين لآخر
لا يمكن أن تمضي حياتنا على وتيرة واحدة طول الوقت هذا ما كان يدور ببالي وأنا أتجول في المدرسة فرحة كأليس في بلاد العجائب!

كان هناك ماكينة صنع الفشار وغزل البنات وبعض الألعاب الضخمة المملوءة بالهواء للأطفال..

كان كل شيء يبعث على المرح بشكل لا يصدق!

سعادة لم أستشعرها منذ سنوات كنت ظننت أنني كبرت لكني وجدت الطفلة الصغيرة داخلي تتمرد محاولة الظهور ..

أحضرت حبات السكر للساحة، كانوا مبهورين بكل شيء تنير وجوههم من السعادة

بين حبات الفشار الساخنة وخيوط غزل البنات السكرية

ثم اللعب على الألعاب كان يوم أطفالي حافلا ومثاليا بحق!

كانوا يحاولون الالتزام بالقوانين التي قلتها عن

التحرك بهدوء وعدم الابتعاد عني وعدم التشاجر، لكنهم أحيانا كانوا ينسون القوانين في غمرة المتعة التي يعيشونها فكنت أذكرهم بلطف فجأة حدث مالم يكن في حسباني، انطلق مازن بكل طاقته جريا متسلقا اللعبة وفِي اللحظة التي أدرت أن أطلب منه فيها أن يحترس كان يسقط أمامي بعنف مصطدما بالأرض..

جريت ناحيته بقلق أتفحصه كان يبكي بلا توقف وأنا لا أدري ماذا أفعل بين محاولات تهدئته وبين التأكد من أنه بخير..

كانت ليلى على مقربة فأرسلت في إثر الطبيبة التي جاءت بعد لحظات طمأنتني أنه بخير إلا من بعض خدوش بسيطة في يديه ووجهه من أثر السقطة..

لقد سقط قلبي في قدمي حقا ..

إنه الشعور بالمسؤولية، حمدت الله أن وقتي مع الصف انتهي وحان دور معلمة أخرى فقد كنت أحتاج قليل من الهدوء لأتمالك أعصابي جلست بغرفة المعلمات واضعة رأسي بين كفي في حزن تجاورني حلا تحاول أن تهدئ من روعي..

قالت حلا محاولة التخفيف عني :

- اهدئي يا جميلة الطفل بخير لا داعٍ لكل ذلك الانزعاج ..

فقلت بانفعال:

- كاد أن لا يكون بخير.. حركته المفاجئة أربكتني ولَم أستطع التصرف بسرعة ولولا لطف الله لحدث ما لا يحمد عقباه

استطردت حلا بطيبتها المعهودة وهي تربت على

كتفي بحنان:

- لا بأس، اسمعي حين تخرجين بكامل الصف لأي مكان دائما الأطفال الحركيون أكثر يحتاجون اهتمام أكثر قسمي العناية بيهم بينك وبين المساعدة..

ثم ابتسمت ابتسامة صافية كالأطفال:

- هذه الطريقة تنجح معي .. عندي خمسة أطفال أتوقع منهم المشاكل في الحركة فيكون معي وتحت نظري عن قرب ثلاثة ومسؤولية الاثنين الآخرين على المساعدة أيضا مع ملاحظة عامة لباقي الصف ..

حقا حلا بطيبتها ونصائحها الجميلة مثلها استطاعت أن تتسلل لروحي وتهون علي ما أشعر به..

فرددت بإيماءة رأس:

- نعم يا حلا .. نصيحة ذهبية مثلك..

لكن الجالسة على طرف بعيد من الطاولة يبدو أنها لم يعجبها الكلام ولا حتى المتكلمين..

لم أكن أعرف أنها موجودة إلا حين وضعت كتبا كانت تجاورها أمامها بقوة..

فالتفت للصوت ..

بعينين واسعتين كحيلتين مليئتان بالمكر كانت تطالعني مع ابتسامة لا تمت للابتسامات بصلة! هممت بالعودة للنظر أمامي تحاشيا لحرب نظرات لا أتقنها لكنها نطقت بصوت ناعم للغاية:

لا بأس يا جميلة ستتعلمين هذه الأشياء كلها مع الوقت والخبرة ..

غرقت بمحاولة رسم ابتسامة على شفتي بلا

جدوى ولكن حضور الإدارية تهتف باسمي أنقذني ..

فقمت إليها قائلة:

- نعم

قالت بعملية:

- أستاذة لينة تطلب منك التواصل مع أم الطفل هاتفيا ليكون عندها فكرة قبل أن يصل للبيت.

بتوجس قلت :

- حسنا .. حالا أتصل.

بعد انصرافها صرت أحمل هما يثقل ظهري ..

ماذا سأقول لها وبما سترد علي؟!

تذكرت يوم جاءت شمس بخدش بسيط على وجنتها من الحضانة وكيف انزعجت يومها وصرت أقول للحاضنة الكثير من الكلمات عن

الاهتمام بالأطفال والحرص على سلامتهم.

يومها سحبتني ليلى برفق من مرفقي هامسة:

- كان قدر لربما لو كانت معك لأصابها أيضا..

بعدها هدأت قليلا مشاعري كأم ومع التفكير بتعقل أدركت أن الأطفال يختبرون كل ما في الحياة بشغف المعرفة واندفاع بريء ومهما حاولنا تقع الحوادث البسيطة أحيانا..

ولكن هل يا ترى أم مازن ستقدر موقفي هذا وستتفهم؟!

كنت أضع هاتفي المحمول على أذني أسمع رنين متقطع أنتظر إجابة من الطرف الآخر أتأرجح بين أمنية ألا تجيب فينتهي دوري أو أن تجيب حتى أخبرها وأكون أزحت الأمر عن كاهلي وليكن بعدها ما يكون ..

فتح الطرف الآخر الخط فوجدتني أبتسم وكأنها تراني، عرفتها بنفسي وبعد السلام والتحية حكيت لها ما حدث ثم كدت أصمت في انتظار ردها لكنها لم تمنحني الفرصة بل اندفعت في عاصفة عاتية من العتاب وعن أمان الأطفال و الكثير الكثير من الكلام على هذه الشاكلة..

استعنت في ذاكرتي بموقفي يوم خدش شمس لأستطيع مواصلة التحدث إليها وتحمل ثورتها المبررة كأم دقائق بعدها هدأت وأنهيت المكالمة باعتذار..

زفرت بحزن ها قد مر الأمر على خير تقريبا!

عدت للصف وقد تخطيت الأمر قدر الإمكان وإن كانت كلمات الأم ترن في أذني بشكل مستمر كصوت ضميري، كان وقت تعليم الأطفال

التعامل مع الطعام بشكل مبسط ..

قواعد النظافة بالصور وفيديو غسل اليدين غسل الفواكه والخضروات كيف نجلس على المائدة وكيف نشارك الآخرين الأكل برقي..

قسمت عدد الأطفال على أربع طاولات كبيرة تحاشيا للزحام ومحاولة لتخطي الوقت الباقي من الْيَوْمَ على خير..

كانت الضحكات البريئة تملأ المكان مع كثير من نظرات السعادة

بدا أطفالي مختلفين بدون الزِّي المدرسي بل بملابس متنوعة وجميلة الألوان ..

بدأ كل طفل بصنع ساندوتش خاص به بمساعدتي كانوا سعداء جدا وكأنهم يصنعون معجزة هم كبار كماما ويستطيعون إعداد الطعام ليجلس

الطفل بعدها بحبور يتناوله بعدما اكتسب ثقة وتقدير لذاته ..

حتى نادين اندمجت بشكل لا يصدق ناسية كل ما حولها

كانت عينيها تلتمعان بسعادة طال إصبعها يلمس الشوكولا الذائبة نظرة شقية التمعت بعينيها تتمنى ألا يكون رآها أحد لتلعق إصبعها بشغف.

كان هذا أكثر ما أسعدني بهذا الْيَوْمَ سعادة كل الأطفال بمختلف شخصياتهم ..

(لكم هو جميل الْيَوْمَ المفتوح)

كنت أفكر في آخر الْيَوْمَ كم أن الروتين ممل وأننا نحتاج التغيير من وقت لآخر وقد قررت سأعد يوما مفتوحا لصديقاتي وصغارنا تغييرا عن روتين مقابلاتنا الأسبوعية التي تفقد رونقها أحيانا

من التكرار ..ومن فرط سعادتي وحماسي بالفكرة أرسلت لهن رسائل بالفكرة ..

كنت أمشي بالرواق ومكتب أستاذة لينة عن يميني ففكرت أن أمر عليها لنتحدث في بعض الأمور.. ولكني ما إن اقتربت من المكتب حتى سمعت نقاشا حادا من خلف الباب ورأيت الإدارية تهرول نحوي بابتسامة رسمية مهزوزة : عذرا أستاذة لينة لن تقابلك الْيَوْمَ أيضا ربما في الغد.. هل من شيء أخبره لها؟!

كانت الأفكار تعصف بذهني كرياح تداعب أغصان شجيرة فتأخذها يمينا ويسارا.. ترى ماذا يجري؟! وكانت ليلى أول من قابلت بعدها سألتها بتوجس مشيرة بطرفي لمكتب أستاذة لينة: ليلى ما الأمر؟!

سارت ليلي للأمام آخذة كفي بكفها وبعد عدة خطوات كنّا بالساحة فوقفت هامسة:

- لا أدري.. لكن يبدو أن هناك أمورا غير اعتيادية..

قلت بجدية:

- لنذهب لأستاذة لينة ونسألها..

قالت بهدوء غريب:

- لن يدعونا نقابلها حاليا..

هنا ثارت ثائرتي فقلت بنزق:

- وهل دورنا هنا كمتفرجين فقط؟!

حاولت ليلى أن تضع كفها على فمي طالبة مني خفض صوتي قائلة:

- اسمعي بيوتيفول الأمر حقا لا يبدو بسيطا..

أنا كنت قبلك هنا منذ أعوام ومر علي الكثير..

وأعرف أن هذا الأمر مريب لكن لا شأن لنا بما يجري..

ثم أكملت بتقرير:

- اهتمي بمسؤولياتك وعملك وفقط ..

كان رنين هاتفها المتصاعد يعني أنه موعد انصرافها وأن والدها ينتظرها بالخارج فأنهينا الحوار أو بمعنى آخر تركناه وفِي آخره علامة استفهامة غير مفهومة!

مشت ليلى بخطوات متسارعة نحو الباب لكنها عادت فجأة وكأنها لم تستطع أن تتجاهل الأمر أكثر..

كنت أقف مقابلها تبعدني عنها خطوتين همست بحذر:

- ما يحصل الآن هو تحقيق رسمي!

ارتسمت علامات عدم الفهم على وجهي بوضوح فخفضت صوتها أكثر قائلة:

- بل وتسليم مسؤوليات..

بكلمات أوضح أستاذة لينة ستغادر خلال يومين على الأكثر!!

وخفضت رأسها قائلة:

- لا أدري الأسباب ولا شيء نملكه غير الانتظار والهدوء.. فهمتي بيوتيفول؟!

لم يجبها سوى دموعي المنهمرة بلا توقف ولكن رنين الهاتف تعالى مرة أخرى فأشارت لي بكفها مودعة بأسف وانصرفت ..

بعد دقائق كنت في السيارة بطريق العودة للمنزل..

كنت أبكي بلا توقف وهو جالس بجواري يحاول

فهم ما جرى..

أول شيء التفت ينظر للصغيرة واطمأن أنها بخير..

تفحصني ببصره للمرة الخامسة تقريبا ثم هتف متململا:

- هل من الممكن أن تشرحي سبب انهيارك هكذا؟ أرجوك كفى بكاءً.

الفصل الخامس

قطع الأحجية

"لو أن المرء ليس مسؤولا إلا عن الأمور التي يعيها، لكانت الحماقات مبرأة سلفا عن كل إثم. لكن الإنسان ملزم بالمعرفة. الإنسان مسؤول عن جهله. الجهل خطيئة"

ميلان كونديرا، المحاورة

كنت أشعر بالانزعاج لأكثر من أمر..

أولا لأني لم أقابل أستاذة لينة وأطمئن عليها بالمدرسة..

ثانيا أنني كلما اتصلت بها أو بعثت رسالة جاء الرد برسالة:

- شكرًا لك لسؤالك أنا بخير..

ثالثا لأنها نهاية الأسبوع ولن أستطيع التوجه

لمكتبها قبل يومين إضافيين!

نهاية الأسبوع كلمة أضاءت بذهني مع جرس تنبيه عال أيقظني من دوامة التفكير..

نعم نهاية الأسبوع تعني الكثير بالنسبة لامرأة عاملة مثلي..

إنهما يومان حقا لكنهما مكدسان بالمهام من تنظيف وترتيب المنزل وإعداد بعض وجبات نصف جاهزة للأسبوع القادم والتسوق للمنزل وقضاء الوقت مع أسرتي الصغيرة وأصدقائي والإعداد لدروس الأسبوع المقبل..

كنت أتلو أمام شريف مسؤولياتي المخصصة لآخر الأسبوع وهو يستمع وقد بدت الدهشة على ملامحه فقال بمشاكسة:

- هذه الأشياء فقط؟! بسيطة أعتقد أنك تحتاجين

الأسبوع كله لإنجازها وليس يوما الأجازة بآخر الأسبوع يا غالية!

أكملت باهتمام:

- كلا يا شريف!

الوقت يكفي صدقني فقط مع بعض التنظيم للوقت..

هل تعلم؟! قبل عملي كنت أقضي وقتي حتى الظهر نائمة.. كنت أصحو تقريبا في نفس الوقت الذي أعود فيه من العمل!

كلما تم تنظيم الوقت كلما اتسع لمزيد من الأعمال فأشعر بالإنجاز وهذا يسعدني كثيرا..

أومأ برأسه موافقا ثم أكمل مشاكسا كعادته:

- حسنا يا ذات الجدول المشغول برجاء حددي لنا أنا والمسكينة شمس وقتا في جدولك..

قلت بحماس:

- طبعا أنتما أهم ما في حياتي يا غالي.. ثم غمزت عيني قائلة:

- أعددت جدولا مميزا لأجازة آخر أسبوع مميزة معكم..

هللت شمس بسعادة متشوقة وكأنها فهمت من كلماتنا أن هناك شيئا جميلا آتيا..

المرأة هي نور كل بيت شئنا أن نصدق ذلك أم أبينا..

يجعلها الله سببا لسعادة أو تعاسة من حولها ..

ليس بالمال ولا بأي شيء آخر ربما تفاصيل صغيرة تضيفها تجعل عبق البيت والحياة لأسرتها مختلفة بل مختلفة جدا..

تحدثت مع صديقاتي أؤكد موعد الحضور مساءً،

كان الموعد عند سوزي ولكني كنت اتفقت معهن أن يكون المضمون مختلفا وحضرت بعض ألعاب للأطفال واتفقت أن ترتب كل منا شيئا مفرحا مقترحة عدة اقتراحات من الْيَوْمَ المفتوح بكل مبسط طبعا كألعاب ومسابقات وحبات الفشار والحلوى وهكذا..

واشترطت أن يكون حضور البنات بفستان وصنعت لكل منهن تاج من الفلين الملون اللامع وكذلك للأولاد..

كان الجو مبهجا بحق كانت تفاصيل بسيطة لكنها حولت لقاءنا لحفل مميز استمتع به الأطفال كثيرا..

بعد توزيع الحلوى واللعب مع الأطفال لثلاث ساعات متواصلة أسلمناهم لآبائهم القادمين أخيرا

من الخارج منذ قليل لنحظى ولو بساعة واحدة في هدوء في اتفاق غير معلن ولكنه مفهوم ضمنيا..

وزعت سوزي علينا أكواب الشاي الساخنة يتصاعد منها البخار الساخن مع رائحة النعناع المميزة..

أسندت علا ظهرها للمقعد خلفها باسترخاء مع أول رشفة من مشروبها أخيرا قائلة: بصراحة كان يوما مميزا للأطفال ولنا يا جميلة يا صاحبة أحلى الأفكار! يبدو أننا سنحظى بكثير من الأيام الجميلة مع أفكارك الجميلة..

رافقتها هند مكملة: نعم عندك حق يا علا..

ثم التفتت إليّ مكملة برضا:

- لقد أصبح عملك نافعا لنا يمدنا بأفكار مرحة

وجميلة مثلك وغير عادية!

كانت ابتسامة واسعة ممتنة على وجهي سعادة بشكر علا وبسمة..

مررت لنا سوزان أطباق الحلوى محدثة إياي:

- لعلك سعيدة مستقرة بعملك الآن بعد مرور أكثر من شهر يا جميلة؟!

كنت أشتم رائحة كريهة لسؤالها ولكنني أجبت:

- نعم الحمدلله يا سوزي..

أكملت سؤالها متابعة:

- عسى أن يكون راتبك مجزيا بعد كل هذا الجهد وتركك لابنتك طوال الصباح..

بدأت الرائحة الكريهة تغزو أنفي أكثر ولكنني أكملت بثقة:

- اسمعي يا سوزي.. الأمر ليس فقط الراتب

لكنني أشعر أن عملي هذا أضاف الكثير من الأشياء الإيجابية لحياتي ولحياة أسرتي وتعبي مع الصغار أثاب عليه مع احتساب النوايا الحسنة كما قالت لي علا وهذا أغلى كثيرا من الراتب..

وضعت كوبي الذي قد برد من يدي بعدم رغبة في استكماله قائلة:

- وصدقيني نزول شمس معي صباحا واختلاطها بأطفال من عمرها يوميا أفادها كثيرا أيضا..

كان وجه سوزان بدأ يتحول للون الأحمر لا أدري لماذا (أو ربما أدري) لكنها أكملت بجملة متعثرة:

- هذا رائع!

ربما تشجعني تجربتك لمحاولة خوض تجربة مماثلة فقد عرضت عليّ المدرسة العمل معهم

لكنني ترددت كثيرا خصوصا أن عادل يبدو أن ظروف عمله بالشركة ربما تجعله مشغولا بشدة في الفترة القادمة فستكون مسؤولية البيت والأولاد ومذاكرتهم عليّ بشكل كامل..

بدا كلامها غامضا غير مفهوما ومزعجا لكنني لم أستغرق الكثير في محاولة فهمه فشمس كانت تهمس في أذني أنها في حاجة ملحة للذهاب للحمام فاستأذنت قاطعة الحوار الدائر بيننا شاكرة لطلبها في هذا الوقت..

بعد العودة للمنزل فكرت أن أسأل شريف هل من تغيير لظروف عمله هو الآخر لكنني انشغلت بترتيب المنزل فور نوم شمس بينما ذهب هو لجلب أغراض المنزل للأسبوع القادم لأوفر يوم غد الثمين آخر أيام أجازتي الأسبوعية فأقضيه

مع أسرتي في هدوء..

نمت باستغراق أخيرا.. فالنوم يكون لذيذا كأجمل جائزة بعد تعب يوم طويل لكنني لم أنس ضبط المنبه لأستيقظ مبكرا بعد عدد ساعات نوم معقولة فما زلت أحتاج وقتا لترتيب تحضير دروس الأسبوع القادم قبل استيقاظ شمس وشريف..

مع تسلل أشعة الشمس من النافذة في الصباح التالي كنت أجلس على طاولتي الصغيرة محاطة بكتب المدرسة برسوماتها الطفولية.. أمامي الحاسوب المحمول وقد اكتمل تحميل معظم الفيديوهات وأغنيات الأطفال التي وجدت أنها تناسب أطفالي لهذا الأسبوع وأمامي بين سطور دفتري كنت كتبت بعض الألعاب التعليمية وتقنيات شرح كل درس من دروس الأسبوع..

وعلى الجانب الآخر من الطاولة كانت بعض الوسائل التعليمية جاهزة أخيرا تبقى فقط أن أجمع بقايا الورق الملون والسومو التي كنت أستخدمها في صنعها..

تمطيت أبحث عن بعض الراحة لظهري الذي كان قد بدأ يأن معترضا من طول جلوسي ..

كان صوت شمس يناديني ينبأني أن وقت العمل انتهى، فقمت ألملم غنيمتي قبل أن تصل يد شمس إليها وبعد دقائق كنت جاهزة ليوم الإجازة الأخير والأثمن..

يوم بدأ بصنع وجبة شريف وشمس المفضلة للغداء وانتصف بنزهة عائلية بسيطة وشراء المثلجات وها هو انتهى بجلوسنا متجاورين على أريكتنا نشاهد فيلما كارتونيا جديدا مع شمس

ونأكل بسعادة حبات الفشار اللذيذة..

كان شريف يتابع بتركيز كل تفاصيل الفيلم وكذلك تفعل شمس الجالسة على ساقيه بدلال فبدو متشابهين بنفس الجلسة وطريقة التحديق المنبهر بالشاشة رفعت كفي لفمي كاتمة ضحكة كادت تتفلت منه ولكني تذكرت شيئا هاما فهمست بخفوت:

- شريف

أجاب بخفوت:

- هاه؟

اتسعت عيناي في ظلام الغرفة سائلة:

- هل هناك تغييرا ما في نظام عملكم بالشركة؟!

تبخر اهتمام شريف بالفيلم والتفت إليّ يتفحصني بعيناه قائلا:

- حتى الآن لا.. ما الذي أثار هذا الخاطر بذهنك؟ بالتأكيد لكنت أخبرتك لو كان هناك أي تغيير!

هززت رأسي موافقة وقلت:

- حسنا لا بأس كنت أسأل فقط..

كدت أخبره أن سوزان قالت شيئا من هذا القبيل لكنني رأيت أنه ليس أمرا مهما فآثرت الاندماج معهما في مشاهدة الفيلم..

وفِي الصباح التالي كنت أعد حقيبة شمس وحقيبتي متأكدة أنني لم أنس شيئا مما أحتاج إليه أو تحتاجه طفلتي.. نعم نحن جاهزتان لبداية أسبوع جديد..

كنت أهرول على السلم رغبة في الوصول مبكرا أو على الأقل في الموعد..

خلال دقائق كنت أنا وشمس نلوح لشريف ونحن

نعبر بوابة المدرسة..

خمس دقائق أخرى وكنت قد سلمت شمس للحاضنة وأتوجه بنشاط لصفي محملة بالكثير من الآمال لبداية أسبوع مشرقة ومثالية..

بضع سلمات بقيت لأكون داخل المبني الخاص بصفي وكأنني استعدت الذاكرة فجأة بأحداث آخر يوم بالمدرسة!

ترى هل أتوجه لمكتب أستاذة لينة للاطمئنان عليها؟ أم أذهب لصفي حتى لا أتأخر وأعود لها بوقت لاحق؟ وربما قابلت ليلى بالطريق وأخبرتني بما يطمئنني وقد كان الخيار الأخير مقنعا أكثر فمضيت في طريقي للصف بثقة وفِي الرواق قبل عدة خطوات من صفي اصطدمت عيناي بحذائين بكعب عال بشكل مبالغ فيه قطبت

جبيني بتعجب أفكر ربما هي أم لطفل ما هنا لكن قبل أن أرفع رأسي لصاحبة الحذاء ذو الصوت المزعج كانت خطواتها تتجه إليّ بسرعة رفعت رأسي بتساؤل فاصطدمت بابتسامة أبدت صفي أسنان بابتسامة هوليودية، رسمت ابتسامة متسائلة على وجهي ردا عليها ثم قلت في ترحيب يحمل عدم فهم:

- أهلا وسهلا..

جاوبت باعتداد واضح بالنفس:

- أهلا جميلة..

كانت الدهشة تعلو ملامحي خير إجابة بعدما لم أَجِد أي كلمات إنها تعرفني!!

ضيقت عيني أحاول تذكر وجهها لكن اقتراب الإدارية أفكار منها بخطوات سريعة تتفحص

معها بعض الأوراق باهتمام واضح أنبأني أنها شخصية هامة..

ولَم يطل تفكيري كثيرا حيث قالت أفكار بابتسامة:

- رحبي يا جميلة بأستاذة إلهام مديرتنا الجديدة..

ثم أكملت:

- تعرفينها طبعا وهل يخفى القمر..

الآن كان فكي يتدلى ببلاهة، حقا استطعت تمالك أعصابي وكثير من الأسئلة التي آثرت الاحتفاظ لنفسي بها تعصف بذهني ولملمت حروفي لأقول:

- أهلا أهلا..

ومددت كفي أصافح كفها المزين بخاتم ضخم تتماشي ألوان فصوصه اللامعة مع طلاء أظافرها الفاقع اللون كدت أنصرف مستأذنة

لصفي لكنها، كانت تتحدث وتتحدث بلا توقف وكأن الحروف تتدافع للخروج من بين شفتيها!!
كانت تتكلم عن كثير من ال (يجب أن تفعلي..) وبعض من (كفي عن) مشيرة بإصبع السبابة ذات الظفر المطلي اللامع..
كانت منزعجة، يمكنني رؤية ذلك من صوتها المهتز..
فأومأت بنعم كإجابة على سيل التعليمات المنهمر ثم انصرفت لصفي أضرب كفا بكف..
حاولت تنحية عاصفة أفكاري بين ثنايا عقلي وبدأت يومي مع الأطفال كما خططت له، مرت الحصة الأولى والثانية بسلام على خير ما يكون وحان الوقت لأجمع أغراضي استعدادا لوقت الاستراحة لكن بعض أغراضي كانت مفقودة!!

بحثت على طاولتي وتحتها وبين ثنايا حقيبتي الكبيرة دون فائدة فهممت بسؤال المساعدة التي فتشت مكتبة الكتب بالصف في حيرة لتعلن أنها لا تدري أين ذهب الأغراض؟!

كانت الأغراض عبارة عن بعض وسائلي التي سأحتاجها في شرح درسي الْيَوْمَ بعد الاستراحة وغدا وكنت مستاءة للغاية فقد أمضيت وقتا طويلا في إعدادها لكننا حملت حقيبتي منصرفة من الصف حتى لا يضيع وقت الاستراحة الثمين على وعد من المساعدة بالبحث جيدا حتى أعود آملة أن تجدها في الوقت المناسب قبل بدء الدرس الجديد!

وفِي غرفة المعلمات

شيء ما كان يطن في الهواء من حولي..

اسمع ضجيجه رغم هدوء المكان الظاهر..

ليس كل الضجيج أصوات عالية..

بل هو ضجيج مشاعر سلبية تسري في ذرات الهواء الثقيلة حتى كدت اختنق..

لمحت حلا تجلس مقابلي، كانت معها معلمة أخرى كانت منزعجة جدا تردد كلمات عن حزنها عن رحيل أستاذة لينة وكم كانت نعم المديرة للمكان ثم تساءلت لمَ رحلت؟!

كان سؤالها يدور في سقف الغرفة فيرد عليه صدى الصوت يتلوه صمت كئيب..

وضعت كوب القهوة الساخن على الطاولة المستطيلة بوسط غرفة المعلمات وجلست مبتسمة ابتسامة مصطنعة لم أملك غيرها مع ضيقي الشديد من كل ما يجري..

ترمق ليلى ملامحي المستاءة..

لتهمس بمرح :

- ماذا بك (بيوتيفول)؟

رفعت رأسي تاركة قلم التصحيح الذي كان يتعذب من ضغط أصابعي المتوترة عليه قائلة بقنوط: لا أتحمل هذا الجو العام الخانق..

ردت بتحدي بارد مستفز:

- ما بِه الجو العام؟ إنه يوم ربيعي بامتياز..

كنت أعرف أنها تفهم قصدي ولكنها تتجاهله بالحديث عن طقس الْيَوْمَ ببساطة! لقد زادت حنقي!

لفت نظري على لوحة التعليمات الكبيرة بحائط الغرفة بطاقة خضراء مذهبة الأطراف وعلى طرفها ثبتت وردة بعناية..

نهضت إليها فقد كنت أبحث عن أي شيء يخرجني من هذه الأجواء العجيبة..

بخط منمق كتب عليها:

هل تعلمين يا صديقتي..

تبدو الدنيا كأحجية بعدد قطع لا نهائي..

نرى ترتيبات القدر فيها ونظل نحاول فهمها وتفسيرها بالجزء الذي نراه مكتملا منها..

ونظل نضع التخمينات والتفسيرات..

تتباين مشاعرنا حين نتلقى الأقدار..

تتبعثر كشظايا بثقل الحقائق خالقة بداخلنا فوضى ألم..

لكن رغم كل شيء علينا أن ندرك أن الخيرة فيما يختاره الله..

حيثما كان موقعك بالحياة صديقتي فقط تذكري

أن تتركي بصمتك بالخير كخير عنوان تتركيه لمن خلفك غير عابئة بأي شيء آخر..

وقفت أتأملها متسائلة ترى من صاحبة اللوحة؟!

التفتت حولي كان كل مشغول بحاله فاحترت أكثر..

شيئا من كلماتها أثر بوجداني حقا..

نعم.. كان الوقت مناسبا تماما لرنين جرس الحصة!!

عدت لصفي أجر قدمي جرا حيث لا أملك أي طاقة بالوقت الحالي!!

كلها نضبت في محاولة التظاهر بالهدوء التي تفرضها عليّ ليلى بإلحاح زاعمة أن هذا أفضل وأكثر مهنية..

فتحت باب الصف ببقايا طاقة أستمد قوتي من

نشاط وسعادة الصغار بملاقاتي..

سألت المساعدة عن أغراضي المفقودة فغمغمت بحيرة أنها لم تجدها..

لقد تلاشت أغراضي!!

فكرت ببؤس صار يناسبني..

لَيْس أسوأ من أن تضطري لشرح درس بطريقة تقليدية بعدما تعبتِ في تحضير وسائله!!

زفرت محاولة طرد روح السلبية من داخلي فالوقت يمر وصغاري يحتاجون لإنهاء دروسهم بالموعد..

لو كان شيئا قادرًا على رفع معنوياتي في هذا الْيَوْمَ الغريب فهي السرعة التي استوعب بها صغاري الأذكياء الدرس مما رفع روحي المعنوية كثيرا فصرت أمر بين الطاولات أرسم

لهم نجمة باسمة على صفحة الكتاب فتضحك قلوبهم البريئة قبل ثغورهم كانت لحظات جميلة بيننا قطعها فتح باب الصف فجأة بلا استئذان..

كانت ذات الكعبين أستاذة إلهام حاولت رسم بسمة على وجهي مرحبة وغمغمت ببضع كلمات..

فدخلت الصف مصدرة موجة هادرة من تعانق كعبها الرفيع مع أرضية المكان فالتفتت رؤوس الصغار إليها..

طافت نظراتها على لوح الشرح الفقير من أي وسائل.. ثم على كتب الأطفال الموضوعة أمامهم على الطاولات ثم على المساعدة وعلي أنا الماثلة أمامها بثبات أبرر موقفي وأحاول تحسين انطباعها الأول عن عملي والذي يبدو أنه ليس جيدا في رأيها:

- فقدت بعض أغراضي الْيَوْمَ أستاذة إلهام لا أدري كيف؟! ربما يكون موقفي أفضل بزيارتك القادمة..

انفرج ثغرها بشبه ابتسامة متعالية:

- بالطبع لي زيارات كثيرة وقريبة..

ثم مالت بوجهها للأمام هامسة:

- ودائما مفاجئة..

حاولت الإيماء بموافقة ظاهرية لكلماتها فرمقتني بنظرة أخيرة قائلة وهي تستدير منصرفة:

- أنتظرك بمكتبي فور انتهاء حصتك لدينا اجتماع.

أجبت بحيرة :

- بالطبع..

كان اجتماع حسبما فهمت لكن حين ولجت لغرفة

المديرة أحسست أنه عقاب جماعي!!

اختفت المقاعد فقد قررت مديرتنا الموقرة أنه لا وقت لدينا للجلوس والحديث وكلما كنّا وقوفا كلما لخصنا النقاش والملاحظات وعدنا لصفوفنا أسرع، ليست الفكرة في اختلاف وجهة نظري عن وجهة نظرها العبقرية لكني الفكرة أنها كانت تجلس في كرسيها المكتبي الفخم وتكرر تعليماتها حتى حفظتها عن ظهر قلب..

فنحن وقوف لكنها نسيت أنها جالسة!

كنت أحرك أقدامي بتململ رهيب ووجهي الشفاف يشي بضجري..

أسوأ شيء أن تمتلك وجها شفافا يفضح كل أفكارك ومشاعرك نظرة من عيني المديرة لعيني كانت كتوعد خفي على تمردي الأكثر خفاءً داخل

قلبي!

زفرت محاولة رسم ابتسامة وتصنع بعض إيماءات تشي أني متابعة ومنصتة للحوار الدائر.. مررت بعيني على الأخريات بينهم ليلى تملك ابتسامة عريضة لا أعرف من أين جلبتها بهذا الثبات تشارك بكلمات موجزة من حين لآخر فتلتمع عينا أستاذة إلهام إعجابا بينما حلا تبدو في واد آخر كانت جولي توزع الكلمات الحلوة شاكرة أستاذة إلهام على إنجازاتها الرائعة واقتراحاتها النيرة في تملق سافر يبدو أنه كان يعجبها!

كنت كلاعب سيرك يمشي على الحبل بحذر كيلا يقع!

وقد كنت أرى أي هوة أسفلنا!

في آخر الاجتماع استطاعت أستاذة إلهام جذب أنظار الكل بكلماتها التي يبدو أنها ادخرتها للآخر عن عمد فقالت بثقة:

- عندي خبران هامان..

الأول عن حضور أستاذة لينة حفلا غدا تكريما لدورها بالسنوات التي أمضتها بالمدرسة وأرجو منكن جميعا الاهتمام والحضور بالموعد دون تأخير..

خيم صمت يحمل الكثير من المعاني والكلمات الغير منطوقة كل بما يجيش بصدره..

لكنها أكملت تغير الموضوع باحتراف:

- والثاني عن مسابقة بين المعلمات لتكريم أفضل إذاعة مدرسية.. كل منكن ستبدأ بتدريب صغارها

لأجل هذه المسابقة معكم ثلاثة أسابيع من يومنا هذا..

أجابت جولي:

- رائع جدا فكرة مميزة للغاية..

فهزت إلهام رأسها شاكرة وسألت حلا بتوجس:

- أعتقد أن الوقت غير كاف.. فهل ممكن أن تأجل من لم تستطع الانتهاء بالموعد؟!

توتر الجو بالغرفة وجاءت ليلى بالحل السحري:

- ربما علينا الاعتماد على ما يعرفه ويحفظه الأطفال بالفعل وفقط ندربهم على قوله أمام الآخرين.

قالت إلهام موافقة:

- قرار صائب لتضع كل منكم خطتها وتشغل نفسها بها عن كل سفاسف الأمور..

كانت خطة من إلهام لإذكاء روح المنافسة وشغل المعلمات ببذل جهد إضافي عن الكلام في المشكلات الإدارية التي لم نفهم عنها الكثير وواضح أنها لا تسمح أن نسأل عنها..

لكنني كنت سعيدة رغم كل شيء سنطمئن على أستاذة لينة أخيرا ونراها..

- أين ذهبتِ يا بيوتيفول؟

كانت تلك ليلى تلاحقني بخطواتها في الرواق الذي يبدو أنني كنت أسير فيه سارحة في هذا الواقع الجديد..

توقفت أنتظرها للحظات حتى تجاورنا ثم قلت بصوت هادئ:

- موجودة أنا يا لي لي أحاول فقط تفهم ما يدور حولي..

ثم ضحكت بسخرية مكملة:

- لكن يبدو أنني بطيئة الفهم فأنا أرى أنك وجولي استطعتما تخطي الأمر سريعا بينما أناضل أنا محاولة الخروج من عنق الزجاجة..

ضحكت ضحكة مرحة قائلة:

- عزيزتي الأمر أبسط من ذلك العمل هو عمل هذه هي المهنية بغض النظر عن التغيرات الحادثة أبجديات عملنا واحدة وكلما ابتعدت عن تفاصيل ما يحدث كان أفضل وكلما اقتربت من النيران طمعا في معرفة الحقيقة علق بعضها بملابسك فأفسدها..

كنت أعي جيدا ما تعنيه من كناياتها فصمت محاولة تقبل الأمر..

ليلى تملك الكثير من الخبرة وتستطيع عزل

مشاعرها عن العمل وهذا ما عليّ تعلمه.. لكن هل بذلك التقبل أفقد إنسانيتي وتعاطفي مع الآخرين ويبقى الجميع أرقام تذهب وتعود تحت مسمى مهنية؟!

شيئا بداخلي كان يرفض الفكرة..

فلفظتها بغمغمة نصف واعية:

- أصبحت تتكلمين بلسان شريف أو ربما هو يتكلم بلسانك (مهنية مهنية احترافية) أسمع مصطلحاتكم نفسها في كل مشكلة ربما أعتادها يوما ما..

اكتفت ليلى بابتسامة مرحة كخاتمة تتوج حديثنا ولوحت بكفها داخلة صفها فاتجهت لصفي بالمثل..

كانت المساعدة بانتظاري تلوح بوجهها إمارات

انزعاج وقلق فهمست:

- خيرا..

هرولت إليّ قائلة بغضب:

- أستاذة جميلة.. لقد وجدت أغراضك المفقودة.

كنت أكاد أسعد بكلماتها لولا الانزعاج والغضب الذي يشي أن القادم أسوأ فتركتها تتابع فاقتربت مني بحرص ألا يسمع ما يدور غيرنا قائلة:

- لقد كانت بحقيبة زين..

انتقل انزعاجها إليّ بشكل تلقائي فهتفت:

- كيف حدث هذا؟!

لكنها أكملت قائلة:

- ومعها الكثير من الأغراض المفقودة لزملائه!

حسنا الآن بدت الصورة واضحة.

أهلا بالمشكلة الجديدة بصفي!!

قلت بحسم:

- اتركي الأغراض كما هي ودعيني أباشر الأمر من هنا.

أومأت موافقة فقد أزحت عن كاهلها حملا ثقيلا على ما يبدو.

كنت قد قررت التمهل والتعامل مع الأمر بحذر وأرجأت الأمر للغد فيكفي هذا الْيَوْمَ ما مر به!

أكملت حصصي وانصرفت لبيتي شاكرة أن الْيَوْمَ قد انتهى أخيرا وبقي يدور بذهني حبة السكر زين..

لمَ يا صغيري؟!

غمغمت لائمة بمقعدي في السيارة بطريق العودة إلى المنزل فالتفت شريف لي مبتسما منتظرا قصة جديدة.. كنت قد اعتدت أن أشاركه بعض

ما مر به يومي من تفاصيل في طريق العودة يوميا..

ضحكة عالية أطلقها شريف بعدما سمع القصة مما أثار غضبي لكنه وضح مبررا من بين ضحكاته المتتالية:

- بصراحة موقف مضحك للغاية أتخيلك تبحثين عن أغراضك بالحقيبة وحولك في حيرة ثم تدخل أستاذة إلهام لحضور تلك الحصة بالذات! حظك يا عزيزتي كقرن الخروب!

رددت بنزق:

- أنت تثير غضبي بسخريتك يا شريف!

ثم أدرت وجهي لخارج العربة معلنة بغضب:

- لن أحكي لك مرة أخرى!

كان شريف يحاول السيطرة على موجة الضحك

هذه وإن تفلتت منه أحيانا قائلا:

- لست أسخر منك يا جميلة فقط الموقف فعلا لا يصدق سخرية الواقع يا عزيزتي! هذا الطفل زين صنع يومك بامتياز أو أفسده!

كنت أتفق معه في هذه النقطة تحديدا زين أربك يومي بشدة والأهم ما الذي أربك عقل الصغير ووجدانه ليفعل فعلته ؟!

كنت أحمل شمس النائمة بين ذراعي محاولة تأمين أكبر قدر لها من الراحة بمساحة السيارة الصغيرة فكانت تتململ من حين لآخر..

توقف شريف بالسيارة فجأة ففتحت عينيها تستكشف ما حولها محاولة استيعاب أين نحن؟!

خلال ثوان كان طعم مخروط المثلجات بالفانيليا هو سيد الموقف في بادرة اعتذار وصلح من

شريف على ما سبق من موقفه الْيَوْمَ لكنني قبلتها شاكرة وممتنة كأفضل بادرة صلح مثلجة في طقس الظهيرة الحار متمنية أن تذوب معها كلها أفكاري المزعجة..

الفصل السادس

بداية ونهاية

إن الأشياء الصغيرة، حينما تحدث في وقتها، يكون لها معنى أكبر منها، أقصد أن هنالك بداية صغيرة لكل حادث كبير.."

غسان كنفاني

كانت تبدو الصورة مثالية للغاية..

قالب حلوى مزين باسمها..

هدية باهظة مقدمة من الإدارة..

صحبة ورد مميزة بيد طفلة بريئة..

رسم الجميع بسمة على شفاههم من أجل صورة أكثر جمالا..

كل التفاصيل ترسم المرح..

لكن لينة تلك الأخت الكبرى شيء ما في عينيها

الباسمتين انطفأ..

ترسم التماسك ولكني ألمح رعشة بعينيها التي تمثل ابتسامتها الهادئة لكن هيهات أن تستطيع تصنعها..

ماذا حدث؟!

سمعت الكثير من الثرثرة هنا وهناك..

الكثير حول دور أستاذة إلهام الكبير في كل ما يجري..

بعض همسات عن مخالفات أستاذة لينة للنظام العام..

وبعض آخر عن أنه خلاف شخصي قديم..

ثمة كلمات عن أنه فقط تغيير للدماء وللقيادة من أجل بث روح جديدة..

الكثير من القيل والقال دون دليل على صحة أو

خطأ أي معلومة..

لمحت حلا تمسح دمعة حزن تلك الفتاة تبدو حقا كالصغار في براءتهم وطهارة قلوبهم..

ليلى كعادتها متألقة وحيوية بنشاط وهمة كانت تشرف على كل تفاصيل الحفل عارضة مساعدتها بسخاء..

صافحت أستاذة لينة بحرارة مرحبة بها ولَم تغفل الترحيب بأستاذة إلهام وشكرها لأنها من خططت لهذا الحفل..

التفتُّ أحمل طبقي من الحلوى، أبتعد عن الصخب بعض خطوات لا أتحمل الضوضاء ولا الأماكن المزدحمة، والمكان حقا مزدحم بالحاضرات وأيضا بمشاعر متباينة تشوش تفكيري أكثر..

كانت خطواتي هادئة بالرواق أتذوق كعكة الشوكولا عساها تساعدني على التخلي عن توتري الحالي أوصتني ليلى بالهدوء وتقليل كلماتي على قدر استطاعتي بعدا عن المشكلات وها أنا ألتزم النصيحة..

يكتنفني بوادر دوار لا أدرى لها سببا!

تلمست بأصابعي أطراف اللوحة الصغيرة اليومية ذات الأطراف اللامعة المجهولة صاحبتها كانت بلون شاحب اليوم.. شاحب للغاية!

وقد كتب عليها بذات الخط المنمق:

هل تعلمين يا صديقتي؟!

بعض البشر أرق من النسيم.. وآخرون قساة كحجر صوان..

كقطعة من الحلوى بدت منمقة جميلة حد المثالية..

صلبة وقوية من الخارج حد أنك تطمئن أنها يجب أن تكون بخير..

هشة بأعماق لا يبصرها أحد حد أنك يجب أن تحتاط وتحذر قبل أن تتعامل معها خشية أن يتأثر داخلها الفائق الرقة وهو رغم ذلك أثمن ما فيها!!

تفكرت في معنى الكلمات؟!

لمن هي؟!

ومن تقصد؟!

شيء ما يجذبني لقراءة الخواطر المدونة المتغيرة يوميا بشكل أنيق وجذاب للغاية..

رسالة من مجهول!!

على بصيص ضوء المصابيح بدت في ركن من

الرواق جالسة بكفها هاتفها المحمول تشاهد شيئا ما وبكفها الآخر طبقها من الحلوى..

راقبتها مشدوهة تبدو خارج نطاق الحدث بل خارج نطاق الزمن كله..

هكذا هي دائما..

بعيدة عن الجميع دون سبب محدد تجيد وضع المسافات..

قررت العودة للحفل بعدما هدأت أعصابي قليلا فاستدرت بهدوء آملة ألا تكون رأتني من الأساس..

"جميلة"

دوى صوتها المخملي..

فالتفت إليها فأكملت برقة:

- كيف حالك يا جميلة؟

بإجابة مختصرة عن عمد قلت:

- بخير جولي، شكرًا لسؤالك.

فرفعت حاجبا واحدا مكملة بابتسامة ساخرة:

- لا أرى ذلك حقا.. بصراحة أرى موقفك حرجا وأنت بالكاد تتدبرين أمر صفك مع الكثير من المعاونة من المتفانية بخدمة الجميع ليلى ولكن طبعا مع كثير من الأخطاء لا أدري هل ستتحملها أستاذة إلهام كما كانت أستاذة لينة أم لا!

كان وجهي كحبة طماطم من الغضب حاولت السيطرة على زمام كلماتي لكنها انطلقت بلا رادع فجأة محطمة كل حواجز صبري، فاقتربت منها بخطوات وجيزة هاتفة بصوت عال :

- اسمعي يا جولي.. أنا لا أدري ما مشكلتك معي بالضبط!..

أم أنها مشكلة خاصة بك أنت نعاني كلنا بسببها؟

تلك المقارنات والاستفزازات التي تخضعينني لها

على الدوام ما سببها؟

رفعت سبابتي مشيرة لرأسها:

- سببها شعور حاد بالنقص ينمو هنا..

رغم أنك جميلة متميزة بعملك وذات خبرة

لكنك تستشعرين سعادة غامرة بتدمير ثقة

الآخرين بنفسهم..

تتآكلك الغيرة من مجرد محاولاتي التقدم قدما

التي لن تضرك بشيء!

يزعجك مساعدة ليلى لي وصداقتنا لأنك دائما

وحدك بسبب تصرفاتك!

كفى!

لن أسمح لك بالمزيد..

ورجاء ابتعدي عني!

هل.. هذا واضح؟

كانت عيناها مفتوحتين على اتساعها مفغور فاها بدهشة من تلك الموجة العاتية الغير متوقعة من الغضب..

بينما كنت أرتعد مع كل كلمة تخرج من فمي أشعر بألم عجيب يكتنفني ودوار رهيب يلف كل شيء حولي ولا أدري لما الأضواء حولي تخفت وتزداد بارتعاش ..

كنت أقاوم لئلا أسقط!

أتمسك بآخر ذرات القوة بداخلي.. رأيتها تنهض من أمامي تقترب منى في محاولة لمساعدتي فبذلت جهدي للابتعاد..

لا لا أحتاج يديك أنت لإنقاذي!

لكن يد قوية أسندتني لم أر لمن هي لكنني اكتفيت أنها لم تكن جولي وتركت الحرية لعقلي للغياب عن الوعي أخيرا..

عندما أفقت.. لا أدرى كم من الوقت كان قد مضى!

لكنني كنت ممددة على أريكة الرواق وبجوار رأسي كانت ليلى تحمل بيدها قنينة عطرها وتقف بجانبها جولي..

ما إن فتحت عيني حتى زفرتا بارتياح.

لتقول ليلى بقلق:

- ماذا حل بك بيوتيفول؟

هل أنت مريضة؟

هل أتصل بطبيب أو أتصل بزوجك لاصطحابك؟

كنت أشعر بإجهاد شديد ولكني رددت لأطمئنها:

- أنا بخير يا ليلى..

لا تقلقي ربما بعض الإجهاد فقط!

كانت جولي مازالت واقفة متسمرة مكانها لا تدري ماذا تقول حتى إذا ما سمعت جوابي سمعت خطواتها العائدة للحفل..

قلت محاولة تصنع المرح:

- هل أنهيتم الحفل من دوني؟!

قالت ليلى بثقة:

- كلا بالطبع هيا لنعود إليهم ستلقي دكتورة لينة كلمة وداع وتلقي أستاذة إلهام كلمة للحضور كذلك..

كانت كمشرفة من مشرفات الحفل تعرف كل ما سيدور بالطبع فاطمأننت وحاولت الوقوف بثبات أتمم على هندامي بحرص..

وقفت ليلى تطمئن أنني صرت بخير ثم أمسكت بكفي في دعم ومضينا سويا ولكن بعد خطوات قليلة قالت بخفوت:

- ماذا دار بينك وبين جولي؟

أجبتها وقد تذكرت كل ما جرى فجأة فعاد لي غضبي:

- أنا لا أعرف ما مشكلتها معي حقا لقد سئمت أسلوبها الغريب!

لكنها شدت على يدي لأخفض صوتي فقد اقتربنا من مكان الحفل وقد يسمعنا أحد ما وأمامي ومن الباب المفتوح رأيت أستاذة إلهام تتكلم بابتسامة واسعة سعيدة:

- نيابة عن الإدارة وعن المعلمات والعاملات أشكر أستاذة لينة على كل ما قدمته للمدرسة..

تلمسنا مقعدين فارغين وجلسنا حتى لا نفسد هدوء القاعة من حولنا منصتين..

علا تصفيق حار بالغرفة فأشارت أستاذة لينة شاكرة وبدأت كلماتها بهدوء متأن:

- كل الحاضرات شكرًا لكم على هذا الحفل..

ما قدمته لهذا المكان كان شيئا من روحي بذلته عن طيب خاطر..

أذكر يوم كنت أخطط المبنى قبل بنائه لبنة لبنة

أذكر الخطوط العريضة..

أذكر أول اجتماع حددت فيه السياسات العامة والقواعد..

كان كحلم وتحقق..

صمتت ترتشف بعض الماء من كوبها تغطى ارتعاش صوتها وأكملت بثبات واه: واليوم الحلم

يكتمل بوجودكم وخطواتكم..

تصفيق حار علا بالمكان مرة أخرى..

حقا شخصية تعلمت منها الكثير ومازلت أتعلم منها أكثر وأكثر..

وقفت جولي بين الحضور رافعة صوتها:

- شكرًا لكل شيء أستاذة لينة وشكرا أيضا أستاذة إلهام القائدة التي ستكمل معنا الطريق..

ثم صفقت فتبعها الحضور بالتصفيق في مشهد درامي للغاية ..

نهض الجميع يودعون أستاذة لينة التي اقترب موعد انصرافها، وقفت أنتظر أن يهدأ الزحام من حولها وامتدت يد ليلى تجذبني للأمام برفق وخلال دقائق بسيطة كنت أقف أمامها أبحث أي كلماتي الأنسب كانت ترمقني وليلى بحب قائلة:

- أنتظر أن أسمع عن المزيد من نجاحاتكن..

ردت ليلى ضاحكة:

- أعدك أن نرفع رأسك

فقلت:

- لا تقلقي ستسمعي كل خير..

لم يكن هناك المزيد ليقال..

كل نهاية تعني بداية جديدة.. هذا ما كنت أحاول أن أقوي نفسي به طوال طريق العودة للمنزل..

قال شريف داعما ولَم يخف عليه حالي:

- مر تقريبا معظم الفصل الدراسي الأول مازلت أذكر أول يوم لك هنا..

أتذكره وأتذكر كم تغيرت عن تلك التي كانت تخطو أول خطواتها متعثرة في هذا المكان منذ حوالي ثلاثة أشهر..

تعلمت الكثير..

تعلمت من الأشخاص الجيدين حولك وتعلمت أيضا من مواجهة الصعاب ..

ثم أضاف مرحا:

- ولقد اكتشفت اكتشافا مذهلا جديدا عنكِ..

ابتسمت بانتظار أن يكمل فلم يطل انتظاري وقال ضاحكا :

- لقد صرتِ تقضي وقتا لا بأس به في القراءة..

منذ متى صرت نهمة للقراءة هكذا؟ لا أذكر أنك حملت كتابا تقرأيه غير كتب المنهج الدراسي!

لكنني أراك الآن نهمة للقراءة أكثر وأكثر عن الأطفال وعن سلوكياتهم وعلم النفس الخاص بهم

قلت موافقة:

- أنت محق.. اكتشفت أن القراءة هي نافذة على

حيوات أخرى.. وفضاء أوسع في الحياة ..

تخبرك أن دائرة حياتك التي تراها كبيرة للغاية بكل نقاطها الناصعة والداكنة ما هي إلا نقطة في بحر الحياة ..

فتساعدك على التعلم وتوسيع مداركك وعمق احساسك بالآخرين وتفهمك لهم ..

أشعر أن كل كلمة أقرأها تقربني أكثر من حبات السكر الصغار وقبلهم من صغيرتي شمس..

كل كلمة أتعلمها تجعلني أما واعية أكثر متفهمة أكثر بتصرفاتها وبعدما كنت أراها أكثر طفلة مزعجة في العالم صرت أتفهم دوافع تصرفاتها مما منحني صبرا أكثر وهدوءا في توجيهها..

التفت شريف إليّ وقد أوقف السيارة أمام المنزل أخيرا مبديا سعادته:

- فعلا أنت محقة..

حسنا دعينا نبدأ تكوين مكتبتك الخاصة ببعض كتب نشتريها آخر الأسبوع..

كانت سعادتي بالفكرة مرتسمة على وجهي..

لكنه رمقني مازحا:

- لكن يا عزيزتي قراءتك دائما تترافق مع الطعام..

كان وجهي قد بدأ يحمر غضبا الآن ورغم نظراتي المحذرة من الاستمرار أكمل قائلا:

- وهذا سبب زيادة بعض كيلو جرامات مع زيادة معرفتك وهنا يدق ناقوس الخطر ..

رددت بنزق:

- نعم شهيتي تحسنت قليلا ..

أحمد الله على ذلك

رد ممازحا:

- الحمدلله .. دعينا نصعد للمنزل لتناول الغداء فشهيتي أنا تناديه

في المساء عاد شريف للعمل وأنهيت أعمالي المنزلية وها أنا أجلس على طاولتي المستديرة.. طاولة الطعام وفِي المساء مكتب لتحضير دروسي وأحيانا مائدة مستديرة لمناقشة الأمور الهامة.. بين الكمبيوتر المحمول وهاتفي وأوراقي أجهز ما هو مطلوب مني محاورة ليلى من حين لآخر لتسلية الوقت وربما لاستشارة ..

شعرت بوحش الجوع يهاجمني فجأة بضرواة ومازلت لم أنجز الكثير

فتحت البرادة ملتقطة أنواعا مختلفة من الجبن.. عشقي الأول ومتعتي الخاصة..

بين نعومة الجبن الكريمي المعتدل النكهة حتى إنك لتذوق اعتداله وتواضعه..

وبين طعم الجبن التركي الحاد بمذاقه الخاص بإباء ذابت أفكاري..

نعم ماذا سأفعل وماذا سأرتب من أجل المسابقة الإذاعية؟

رفعت الهاتف أحادث الغالية ليلى:

قلت لها منفعلة:

- لو كان شيئا سأقدمه أنا لكان الأمر سهلا لكن من سيقدم هم الأطفال!

فردت بهدوء:

- نعم أنت محقة.. فيجب أولا أن يحفظوا ما سيؤدون عن ظهر قلب ثم يملكوا الجرأة لقوله أمام الناس وهذه هي ثمرة مثل تلك الأشياء أن

نجعلهم يستطيعوا أن يعبروا عن أنفسهم أمام المجتمع ..

أغلقت الهاتف معها شاكرة وأنا أدير الأمر برأسي..

نعم لفتت نظري لأهمية الأمر ليس فقط تحقيق فوزا لاسمك كمعلمة فالأهم أن تكون تجربة تدعم ثقة الطفل بنفسه وليس العكس..

تزيد حبه لذاته لا تهدمها ..

على قدر ما تكون التجربة إيجابية على قدر ما تكون استفادة الأطفال النفسية والتي هي الغرض الأساسي..

أنا أنتقل بصغاري من مشاركتهم المعلومات والأناشيد داخل الصف لمشاركتهم إياها أمام مجتمع أكبر ..

ليصيروا أقوى وأنضج ..

مع قضمة أخرى من ساندوتش الجبن خاصتي وعيني معلقتان بأغنية الأطفال المعروضة أمامي عبر برنامج اليوتيوب كانت أفكاري تتبلور وتتضح أكثر وفِي اللحظة التالية طار الساندوتش من يدي فالتفت بغضب ليواجهني وجه شريف الضاحك

فنهضت صائحة بانزعاج:

- شريييييف لقد قطعت حبل أفكاري

رد ممثلا وجه نادم:

- نعم لاحظت ذلك!

ثم أكمل بصوت خفيض:

- تملكين توافقا عاليا بين عمل عينيك وعضلات يديك في العمل وعضلات فكك أيضا..

قالها رافعا آخر قضمة إلى فمه بتلذذ!

قمت غاضبة وهممت بالذهاب إليه ولكن فجأة دارت الصالة من حولي بقوة..

كان كل شيء يدور!

وأنا أرى شريف يقترب مني قلقا يتلقاني قبل أن أسقط أرضا ثم تحول كل شيء للون الأسود فجأة ناديت شريف ولا أدري هل سمع صوتي أم لا.. فقد فقدت الوعي أغرق بين أمواج الضباب!

* * *

فتحت عيني لأجدني بسريري تجاورني ليلى بقلق وقد أجلست شمس بجوارها تطمئنها، بينما أسمع صوتا ما يحاور شريف بالخارج..

ليلى بإشفاق:

- حمدا لله على سلامتك

قلقت عليك كثيرا!

أحضرت كوبا من العصير من على الكومود المجاور يبدو أنها كانت حضرته مسبقا للحظة استفاقتي قائلة:

- هيا تناولي القليل من العصير يا غالية..

ساعدتني لأسند ظهري جالسة بضعف فقلت بخفوت:

- منذ متى أنت هنا؟!

قالت هامسة محاولة تلطيف الأجواء:

- منذ اتصل المهندس شريف مستنجدا بي طالبا مني الحضور حتى أمكث معك ريثما يجد طبيبا.. لكنني كنت أعرف أن الوقت متأخر فأحضرت أبي معي..

ثم اقتربت مني قائلة:

- ماذا بك بيتوفول أم أنك تتدللين علينا؟

ثم ضحكت مكملة وهي تختلس النظر لتتأكد أنه لا أحد يسمعها:

- لقد كان المهندس شريف قلقا للغاية.. يبدو أنه يحبك كثيرا

مددت يدي أنوي لكزها لكن دخول شريف بعدما سمعها تحدث أحدا ما جعلني أعدل عن قراري.

اقترب من السرير بلهفة محاولا بث الطمأنينة في قلبي:

- الحمدلله على سلامتك..

لا تقلقي أنت بخير..

فقط ضغطك انخفض قليلا..

سنجري غدا بعض الفحوصات للاطمئنان لا أكثر..

وقفت ليلى مستعدة للانصراف وقد أصرت أن تصطحب شمس معها ليومين حتى أرتاح ..

كنت أسمع شكر شريف لها ولوالدها ووداعه لهم بالصالة..

عاد شريف بعد ثوان وجلس بجواري محيطا كفي بحنان غمرني قائلا بمشاكسة:

- يبدو فقط أنني حسدتك ولَم أقول تبارك الله ..

كان يرمي لحديثه الصباحي لي عن زيادة وزني ونهمي مؤخرا!

رفعت عيني إليه فقابلتا عيناه اللتين لمحت بقاعهما بحيرة من القلق بلا قرار يخبئها عني جهده ..

تنهدت محاولة رسم ابتسامة على شفتي لكنهما عاندتاني، فاقترب مني أكثر هامسا:

- بعد موعد الطبيب غدا سنذهب سويا لنشتري لك الكتب..

وأكمل غامزا:

- وربما رواية رومانسية تقرأين لي كل يوم جزءا منها حتى أنام يا شهرزاد!

كان يحاول التخفيف عني ..

لكنني كنت غارقة في إجابة سؤال أفزعني..

ماذا يحدث لي حقا ؟

هذه ليست أول مرة..

هل الأمر حقا بسيط؟!

كان سؤال قاتما يجول بداخلي مخلفا زوابع من القلق وموقظا هواجس لا أدري من أين أتت؟!

الفصل السابع

وماذا بعد؟!

"من يخفف من أعباء آخر لا يمكن اعتباره منعدم الفائدة في هذا العالم"

تشارلز ديكنز

كنت أضع الهاتف على أذني وأنا أذرع الغرفة ذهابا وإيابا بلا هوادة..

أستمع للطنين الصادر يعني جرسا على الجانب الآخر ولا مجيب حتى توقف الصوت معلنا إنهاء الاتصال بلا إجابة!

ارتميت على السرير أزفر بحزن فجاورني شريف يكمل لَبْس جواربه قائلا بصبر:

- لا تقلقي يا جميلة..

لعل ليلى مع شمس بالحمام أو تحضر لها شيئا

ولَم تسمع الهاتف..

قلت والقلق يأكلني:

- لقد أكدت عليها أن يكون الهاتف بجوارها طوال الوقت..

قال مازحا:

- نعم أكدت عليها في اتصالك المائة خلال أقل من أربعة وعشرين ساعة!

اهدأي قليلا..

لا بأس شمس بخير وليلى تعتني بها بشكل رائع والدكتور عامر والدها كلمني أكثر من مرة وطمأنني قائلا أنه سعيد بوجود شمس التي أنارت بيتهم كأول حفيدة وأم ليلى أيضا سيدة نادية تعتني بها مع ليلى والوضع مستقر تماما!

دعي عنك بركان القلق المتفجر هذا وارحمي

البشر من حولك!

صمت بتأنيب ضمير نعم أنا مفرطة القلق..

علي أن أهدأ قليلا كل شيء بخير..

كانت شمس في خيالي طوال الْيَوْمَ كلما نظرت في جهة من المنزل رأيتها كما كانت تفعل عادة بهذا المكان أو الوقت..

لم أعتد مفارقتها..

أغمضت عيني لوهلة أبحث عن لحظة هدوء بين ضوضاء عقلي ثم وقفت قائلة:

- إذا كنت انتهيت فهيا بِنَا..

بعد قليل من الوقت وفِي عيادة الطبيبة..

كنت أضحك بلا توقف بصوت عال كأني أشاهد أكثر فيلم كوميدي ساخر رأيته في حياتي..

يراقبني زوجان من العيون بقلق..

لوحت بذراعي في الهواء قائلة:

- صدقيني يا دكتورة ليس وقتا مناسبا للمزاح..

أعلم أنك تحاولين إضفاء جو البهجة مشكورة..

لنتكلم في لُب الموضوع رجاءً..

أزاحت نظاراتها عن عينيها واضعة إياها على المكتب برفق ثم نظرت إليّ مباشرة قائلة بثقة:

- أنا لا أمزح! أنت بالفعل حامل في شهرك الأول حسبما تقول التقارير أمامي..

التفت لشريف لأستمد منه الدعم فهز كتفيه علامة:

- حسنا هذا هو الواقع..

هنا تبخرت كل ضحكاتي وانخفض جانبي حاجبي للأسفل في بؤس:

- كيف حدث هذا؟!

ثم أعدت نظري للطبيبة أجادلها واثقة من رأيي:

- أودّ أن أشرح لك الأمر أنا آخذ حبوب منع الحمل!!

قالت بهدوء تحاول تبسيط الأمر لي:

- لا بأس لا شيء آمن مئة بالمئة.. ربما نسيتي حبة مثلا..

استطردت قائلة بانفعال:

- لا هذه أعراض مختلفة

أنا دائما مرهقة متعبة بلا سبب!!

غثيان وميل للقيء!!

قالت ببساطة مبتسمة وقد أحنت رأسها جانبا:

- هذه ببساطة أعراض الحمل..

صمت محاولة الاقتناع..

لكن هذه الأعراض موجودة من قبل هذا الشهر..

هي فقط زادت وتفاقمت..

بالسيارة كنت أجلس متجهمة..

لم أعرف سر المشكلة!!

نعم تفاجأت جدا من الحمل الذي لم أخطط له طبعا..

خصوصا مع عملي وصغر سن شمس..

لكن الذي يزعجني حقا وقوفي أمام أعراض تتزايد وعدم كفاية أسباب الطبيبة لها..

ليس مقنعا ببساطة تحليلها للأمر!!

هززت رأسي محاولة بعثرة أفكاري الضبابية القاتمة..

ورنين هاتفي وعليه اسم ليلى أعادني للواقع..

آه يا شمسي العزيزة..

ضغطت زر الإيجاب بآلية قائلة:

- أهلا ليلى..

كيف حالك وحال شمس معك؟

ردت ليلى ببساطة:

- بخير حال يا غالية..

طمئنيني على صحتك؟

لم أدر ماذا أقول حقا؟!! لكني لم أشأ أن أقلقتها أكثر..

جميلة:

- أنا بخير..

وفِي ذهني أكملت حاليا على الأقل!

* * *

في الصباح الباكر من الْيَوْمَ التالي كنت أهز كتف شريف برفق:

- شريف هيا استيقظ.. سأتأخر!

بشعر أشعث مثير للضحك وعينين شبه مغمضتين علاوة عن نظرة عدم فهم بلهاء جاورها فمه المفتوح بعدم استيعاب كان يرمقني..

كنت أقف أمامه أنهي ما بقى من ملابسي وبجواري حقيبتي شبه جاهزة للانطلاق..

تقريبا استوعب أنني جهزت للذهاب للعمل فنهض مزمجرا:

- لا مدرسة الْيَوْمَ!

هتفت بلطف:

- يجب أن أذهب يكفي أنني تغيبت بالأمس.. ماذا عن المهنية التي تكلمني عنها دوما؟!

يجب أن ألتزم بعملي!

قاطعني قائلا:

- لكنك لست بخير!

جاورته ممسكة كفه الحنون:

- سأكون بخير حال لا تقلق..

كانت عينه ما زالت تتمسك بالرفض فقلت ملحة:

- لا تقلق.. لو تعبت سأعود ومعي ليلى اطمئن..

نهض على مضض، بدا غير مقتنع لكنه لم يشأ أن يكسر رغبتي بالذهاب وهو يراني مستبشرة سعيدة بعد كآبة الأمس..

خلال دقائق كانت خطواتي ترسم طريقي لصفي يغذيها التفاؤل والتجلد الساري في عروقي..

طرقات خفيفة منغمة على الباب حفظها الصغار فتحته بعدها ودلفت للداخل ففاجأني طوفان الأحضان والقبلات من حبات السكر الفاتنة..

كان ترحيبهم الحار يؤكد لي أن قراري كان صائبا، لا يمكن أن أخسر روح البراءة والسعادة

التي تتملكني بالتعامل معهم وقتها سأخسر الكثير!
لا أطهر ولا أنقى من حب الأطفال؛ حب يسكبونه بسخاء من قلوبهم النقية التي لم تتلوث بعد..
حتى نادين ابتسمت أخيرا طالبة حقها من الدلال كأصدقائها..
كانت تلك النار التي أوقدت شعلة الحماس والتصميم بداخلي من جديد..
سأواصل حياتي وسأكون بخير بأمر الله.. أنا فعلا أشعر بتحسن الْيَوْمَ الحمدلله لعلها أعراض حملي فعلا كما تقول الطبيبة..
كانت المساعدة تناظرني مبتسمة مادة يدها لي بقالب من الشوكولاتة في تعبير عن سعادتها بعودتي!!
بدأت دروسي بحماس: السلام عليكم يا صغار..

اشتقت لكم جميعا..

هل تعرفون عن ماذا نتكلم الْيَوْمَ؟

* * *

بعد مرور وقت الصف خرجت وقد بدأ الدوار يلفني مجددا..

كنت قد حضرت بعض المقترحات لأقدمها لأستاذة إلهام، بعض ملحوظات عن الأطفال وبعض الاستفسارات وطلب لبعض الحاجات التي تساعدني أكثر لو كانت متوفرة بالصف..

كان شيئا معتادا أقوم به مع أستاذة لينة كل بضعة أيام وتكون فرصة طيبة لتبادل الأفكار والخبرات..

طرقت الباب بعدما أخذت إذن أفكار على باب

أستاذة إلهام وبعدما سمعت كلماتها بسماح الدخول دلفت للداخل ملقية التحية..

فردت أستاذة إلهام بكلمات موجزة:

- أهلا يا جميلة..

حمدلله على سلامتك.

قلت بابتسامة: سلمك الله أستاذة إلهام..

لدي فقط بعض المواضيع أناقشك بها بخصوص سير العمل..

هل بدا عليها التوتر والانزعاج؟ أم أنها خدعة من عيناي؟

قالت بتردد :

- حسنا يمكنك الجلوس لكن لتعلمي لا أملك من الوقت الكثير..

إن كانت لا تملك الوقت لمناقشة بعض تفاصيل

العمل فلمَ تملكه إذن؟!

كان هذا ما يدور بذهني لكنني جلست محاولة إخفاء امتعاضي وكأنني أتسول منها الاهتمام!!

بدأت بسرد كل ما كنت حضرته في نقاط مرتبة بمفكرتي الصغيرة كما اعتدت دائما مع أستاذة لينة..

وما إن انتهيت حتى عدت لها بناظري منتظرة إجابات..

ألقت نظرة على ساعتها ثم تحدثت قائلة:

- حسنا يا جميلة يبدو أنك كثيرة الأسئلة لوجودك بالمكان حديثا وافتقادك للخبرة..

لكن لماذا لا تشاركي صديقاتك استفهاماتك تلك؟ ربما يفيدونك بخبراتهم..

أومأت بصمت فأكملت:

- على أي حال رقم والدي

نادين يمكنك التوصل إليه من خلال التواصل مع الإدارة العامة، أما بخصوص توفير الخامات وبعض الحاجات يمكنك تسليم طلب رسمي للإدارية وسنناقشه في اجتماع الإدارة..

طرقت أفكار الباب برفق ثم دخلت قائلة بوجه متحفز قلق:

- أستاذة إلهام نحتاجك لحل بعض المشكلات!!

زممت شفتي غير راضية لأكتفي بإيماءة شاكرة وأخرج..

فور خروجي اجتاحني الغضب والحزن..

حسنا..

علي أن أخرج من البروتوكولات العقيمة..

سينتهي العام قبل أن يصلني الرد في هذا الروتين

القاتل الذي تطالبني به..

لأدور في حلقات مفرغة تستنفد طاقتي ووقتي وأعصابي طوال الوقت!

وعلي أن أخطط ما أريد الوصول إليه مع أطفالي وكيف..

قالوا قديما "الشاطرة تغزل برجل حمار"

ورغم عدم اقتناعي بالمثل ولا بتطبيقه في حالتي..

قررت أن أتصرف..

وضعت استراتيجيتي..

رؤيتي للأدوات التي تحتاجها المعلمة..

كوسائل..

وألعاب تعليمية...

ووسائل ترفيه يومية..

وصور وفيديوهات..

وهدايا للتحفيز أيضا..

كانت خطة متكاملة تجمع كل ما عرفته وتعلمته..

وما أصبو لتحقيقه .

أجمعت أمرا سأقتطع جزءا من راتبي لتحقيق ما أريد..

هو راتبي وما أستحقه وأستحق أكثر على ما أبذله من جهد أنا أعلم..

لكنها رسالتي والتي أود أن أؤديها بالشكل الذي يناسبني..

لا أنتظر شكرا..

لا من الإدارة..

ولا من أولياء الأمور الذين بالمناسبة سيعتقدون بطبيعة الحال أن هذا كله جهد المدرسة وليس

المعلمة..

وكلاهما ربما لن يدرك خطتي..

لكني أدرك جيدا وهذا يكفي..

نصف يومي أقضيه مع أطفال صفي..

ألا يستحق نصف يومي ويومهم الكثير من الاهتمام؟!

توجهت لصنع كوبا من الحليب الدافئ فلم تعد القهوة تناسبني وهناك كانت ليلى تعد مشروبها أيضا لبداية وقت استراحتها..

عانقتني قائلة:

- أفتقدك بيوتيفول المدرسة بدونك لا طعم لها..

أبعدتني عنها تنظر لوجهي مكملة:

- كيف أنت الآن؟

أجبتها وأنا أقلب السكر لإنهاء كوبي:

- أنا بخير يا غالية أتعبتك ووالدتك في العناية بشمس!

أسرعت ليلى تدافع عن منطقها:

- بالعكس لقد كانت تنير بيتنا وتجعل للحياة مذاقا آخر..

ابتسمت من مدى اندماجها وشمس في وقت قصير:

- شكرًا لك يا ليلي يا أجمل أخت..

قالت بغرور مصطنع وهي تجاورني في طريقنا لغرفة المعلمات:

- لا بأس..

يمكنك شكري بتسمية المولود الجديد باسمي مثلا لو كانت فتاة..

تشاركنا الضحك قبل أن أتذكر ما حدث بمكتب

أستاذة إلهام فحكيت لها الموقف كله متعجبة مما يجري، لم تتفاجأ على ما يبدو بل قالت بصوت خافت:

- بيوتيفول يا حبيبتي كل شيء تغير!

أستاذة إلهام ليست أستاذة لينة!

لم تهتم ولَم تعطيك إجابات لأنها لا تملكها أصلا

هي غارقة بمشكلات مختلفة لا تحري لها حلا!

كل ينتظر منها القرار وهي ذاتها لا تملك الخبرة لتعطي القرار..

لا تغرك ثقتها الزائفة..

همست بضيق:

- وكيف يستمر الحال هكذا؟!

قالت برفق:

- حقا لا أدري كيف سيستمر؟!

ولمَ وصلنا لهذا الحال أساسا؟!

فهي تعطي حلولا متخبطة لكل المشكلات ولا أدري حتى متى ستصمد؟!

"هذا الحوار ليس في صالحكن يا بنات"

التفتنا لصاحبة الصوت كانت حلا تقضم ساندويتش بيدها ببساطة..

فأكملت:

- نعم..

لا داعي لكثرة الكلام فأنا أخشى أن يسبب ذلك لكن المشكلات كما حدث معي..

جذبت الساندوتش من يدها بمشاغبة:

- هذا رائع نكتفي بالأكل مثلك يا غالية!

ضحكت حلا واضعة كفها أمام فمها وبعدما تمالكت نفسها أكملت بجدية: أنتن لا تعلمن شيئا..

أستاذة إلهام أصلا من مجلس الإدارة لكنها أبدا لن تكون مديرة قسم التمهيدي لأنها لا تملك الدراسة أو الخبرة التي تؤهلها لذلك ليس هذا مجالها أصلا!

لكنها تملك الكثير من الدارسات والخبرة في إدارة الأعمال..

لكن خروج أستاذة لينة المفاجئ اضطرها لأخذ مكانها بشكل مؤقت!!

هززت رأسي علامة فهم وأنا أقلب نظري بينهما..

أكملت حلا وقد أخفضت صوتها أكثر وقد أعجبها الاهتمام على وجهينا:

- يا بنات خالتي كانت ومازالت صديقة أستاذة لينة المقربة..

ثم أردفت مفجرة مفاجأتها:

- وصديقة أستاذة إلهام أيضا..

فبالأساس كن ثلاث صديقات كالأخوات منذ زمن طويل!

وهذا سبب معرفة أستاذة لينة بأستاذ سعيد صاحب المدارس..

نعم كان يعتبرها ابنته.. فخور بتفوقها، داعم لها ولإصرارها على النجاح والاجتهاد رغم ظروف أسرتها المتوسطة..

بينما كانت إلهام ابنته أقل تميزا وقد أثرت عليها بعض ظروف عائلية مرت بها لكنه دعمها بالذهاب للخارج مع زوجها واستكمال دراستها بالخارج لسنوات..

عادت إلهام منذ أشهر قليلة ويبدو أن وجود لينة

في مجلس إدارة شركة أبيها وثقتهم بها وانتظارهم رأيها دائما وكونها جديدة بإدارة مجلس الإدارة بعدما تنحى لها والدها عن رئاسة المجلس أثار غيرتها!!

ومن هنا بدأت المشكلات!

هنا كانت عيوننا مفتوحة باتساعها بذهول!!

(يبدو أنه حديث شائق)

تجمدت الدماء بعروقنا ونحن نستمع لكلمات أستاذة إلهام بالقرب، التفتنا إليها نتساءل ترى هل سمعتنا؟!

كانت هناك نظرة غريبة بعينيها لكنها أكملت محاولة رسم الثبات على ملامحها:

- بالتأكيد حديث شائق ما يبقيكن بالساحة تحملن أكوابكن وطعامكن بينما غرفة المعلمات على بعد

خطوتين!

كانت ليلى أسرعنا بديهة بينما تجمدت حلا لا تحرى جوابا..

وصمت أنا جاوبت ليلى قائلة بهدوء قائلة:

- عندك حق.. سنتوجه إليها حالا.. عذرا لو منا سببنا إزعاجا..

بعدها دفعت حلا المتجمدة برفق تجاه الغرفة.

وما إن دلفنا حتى انفجر ثلاثتنا بالضحك!!

قلت بتؤدة:

- حسنا يا جميلات..

لم يكن موقفا لطيفا..

قالت حلا بتلعثم:

- أنا أصلا يكفيني ما أصابني المرة السابقة!

لا أريد أن أعرفكن..

ابتسمت ليلى قائلة:

- موقف وانتهى لا تحملوه أكبر من حجمه!

ثم التفتت لحلا:

- بصراحة لديها مبرر قوي للقلق منك مع كل معلوماتك عنها..

اصفر وجه حلا لتقول ببؤس:

نعم ليتني لم أعرف شيئا..

ليت خالتي لم تلتق كلاهما قط!

ثم وضعت كفها الصغير على فمها:

بل ليتني فقط أستطيع إغلاق فمي..

ضحكت قائلة:

- بصراحة عليك ذلك إذا كنت تنوين الاستمرار بعملك هنا..

تركتهن تتابعن حوارهن الهادئ والتفت أبحث

عنها..

نعم اللوحة الصغيرة اليومية على لوح المعلمات..

كانت على ورقة فيروزية لامعة الأطراف كما العادة..

مختصرة بشكل أكبر..

هل تعلمين يا صديقتي؟!

ربما يكون الاختيار صعبا..

ومحفوفا بأشواك الواقع..

لكنها تبقى حياة..

حيث لا مثالية..

حيث لا سعادة مطلقة..

ولا حزن مطلق..

حيث بعض الاختيارات بينهما تتأرجح بثقة..

ونملك نحن زمام الاختيار..

كنت أتأمل الكلمات باستغراق ولكن.. ضجة مفاجئة على باب القسم الخارجي مع أصوات صياح رجل ما وتعالي صوت العاملة بالمقابل جعلتنا ننهض ونجري مسرعين للبوابة في قلق..

(أخرجوا ابنتي الآن!)

كان يصيح بها الرجل في حالة غضب شديد..

الفصل الثامن

فيلم هندي

"لكل دقيقة تغضب فيها فأنت تضيع ستين ثانية من السعادة"

رالف إيمرسون

خرجت من غرفة المعلمات أجري إلى الساحة وهناك كان الوضع عجيبا.. كانت المساعدة تمسك نادين التي كانت تبكي بهلع رافضة الخروج..

فتوجهت إليهم بينما توجهت ليلى للبوابة وتوجهت حلا لاستدعاء أستاذة إلهام..

لمست كفها فوجدته بارد كالثلج فأخذتها بين ذراعي قائلة بحنان:

- لا بأس حبيبتي أنا معك لا تقلقي..

التفتت للمساعدة:

- رجاءً عودي للصف..

فأومأت بنعم واتخذت طريقها عائدة لمكانها بالصف..

هنا عادت ليلى تجري إليّ هاتفة بتعجب:

- لماذا لا تخرجي الصغيرة؟ والدها يكاد يجن بالخارج!

تشنجت الفتاة بين ذراعي فور سماع الحديث فعدت أحتضنها بقوة أكثر مؤكدة:

- نادين ستبقى معي!!

والتفت أنظر لعمق عينيها.. إلى وجهها الباكي المليء بالدموع المسكوبة وأنف ووجنتين محمرتين من أثر البكاء فهزت رأسها بنعم في تأكيد..

فابتسمت وأنا أراها بدأت تهدأ قليلا وسألتها بحذر:

- مع من تذهبين للبيت يوميا؟!

قالت بلهفة كمن وجد المنقذ:

- مع أمي..

قلت لها بتفهم:

- نعم هذا صحيح.. هل أبوك يعيش معكم بالمنزل؟!

هزت رأسها نافية بعصبية وكأن صعوبة الموقف جعلتها تميل للبوح لتتخلص من مأزقها قائلة:

- لا لا..

أنا وأمي وأخي الصغير..

أبي يزعج أمي ويضربها ويجعلها تبكي..

ثم أكملت كمن يقول سرا خطيرا:

- لكن جدي قال أنه لن يأتي ويؤذينا مرة أخرى..

هنا اتضح الأمر..

تلك المسكينة نادين لم يكن انكسارها من فراغ!

نعم كانت أشياء جسيمة كبيرة على عقلها الصغير المكون من أم بالنسبة لها مفترض رمز الحنان..

وأب يفترض رمز الأمان..

في بيت عائلي دافئ..

بقى عقلي يرسم أشكالا وأفكارا لما رأته وسمعته فكسرها!

أعادني صوت ليلى للواقع وهي تزمجر بغضب:

- هيا بيوتيفول ماذا أقول للرجل قبل أن ينفجر بالغضب مرة أخرى؟!

حسمت أمري وقمت واقفة ولكنني حافظت على كف نادين بكفي:

- قولي له الفتاة لم تحضر الْيَوْمَ..

ردت بتعجب رافعة حاجبا واحدا:

- هل تتحملين مسؤولية ذلك؟

قلت بسرعة:

- نعم.. نعم..

هرعت ليلى تخبر عاملة البوابة أن الفتاة غائبة بينما سرت أنا ونادين عائدين للصف..

قلت لها برفق:

- حبيبتي نادين أنا أحتاج رقم والدتك لأمر هام..

دست كفها داخل جيبها الصغير قائلة ببراءة:

- هو معي بالفعل أعطته لي أمس بعدما طلبته العاملة مني بالأمس. ها هو!

أخرجت كفها ببساطة مع ورقة متغضنة بيضاء..

أخذتها منها بلهفة صائحة:

- أنت فتاة مميزة

فصفقت وقفزت للأعلى بجذل وقد نسيت خوفها تماما..

فتحت الورقة المهترئة برفق وكتبت الأرقام الواضحة ثم ضغطت اتصال..

خلال ثوان رد عليّ صوت أنثوي..

بعدما أخبرتها من أنا واضطررت أن أخبرها المشكلة فجاوبت بأنفاس متقطعة:

- وهل هل سلم سلمتيها له؟

أسرعت أهدئ من روعها قائلة:

- الصغيرة معي لكني لا أفهم وضعكما القانوني فرجاء تعالي واصطحبيها لأن لا أضمن أن يعود!!

أجابت بسرعة:

- دقائق وأكون عندك..

شاب صوتها صوت بكاء مكتوم:

- شكرًا لك..

(أستاذة جميلة)..

كانت صرخة حادة باسمي هي ما ينقصني حقا في تلك اللحظة وأنا بالكاد أحتفظ ببعض التماسك!!

التفتت الخلف وقد عادت نادين مع سماع الصوت العالي للإمساك بيدي بقلق..

رددت محافظة على هدوئي:

- نعم أستاذة إلهام!

قالت بعصبية:

- هل يمكن أن تفسري لي ما هذه الفوضى؟؟

يبدو أننا لن نعيش أبدا حتى نرى فصل حبات

السكر دون مشاكل!!

بدا لي أن بعض الدمعات تجمعن بعيني الآن بالفعل ينتظرن إذنا لن أمنحه بالهطول فرمقت ساعتي ثم قلت لها:

- للأسف موعد تواجدي بالصف الآن!

سأعود لأحادثك بهذا الأمر فور انتهائي..

ورفعت رأسي بشموخ مضيفة: وستكون فرصة جيدة لتكون أعصابك قد هدأت..

وبخطوات سريعة اتخذت طريق عودتي للصف متجاهلة بعض أزواج الأقدام التي رأيتها محتشدة لمشاهدة ما يحدث وبعض الشهقات المستنكرة والهمسات وبركانا أعرف أنه يكاد ينفجر خلفي..

لقد سئمت بصراحة كل ذلك الهراء!

أنا أدرى بمصلحة حبات السكر خاصتي ولن

أتنازل عن مصلحتهم لأجل أي أحد! ولتذهب المهنية للجحيم!!

أصلا أي مهنية في كل ما يدور حولي!!

بالكاد أعرف الأطفال ممن هم المفروض ناضجين ولكنهم يعبثون بقسم كامل بلا مبالاة!

دلفنا للصف فجلست نادين في مكانها تزين وجهها ابتسامة امتنان..

كان وقتا قصيرا فقد أوشك موعد الانصراف..

حاولت استجماع شتاتي لأنغمس بعالم صغاري بعيدا عن كل ما يشوش ذهني..

نعم المسابقة الإذاعية، كيف نسيت؟!

قلت بحماس:

- يا صغار من منكم يستطيع أن يغني لي أغنية مما حفظنا؟!

رفع حوالي نصف الصف أيديهم بينما سكت البعض بخجل ولَم يهتم القليل..

قلت مكملة:

- حسنا..

سأختار واحدا بعد واحد..

وبين كفي كانت مفكرتي وقلم رصاص لأدون..

وقف الأول متلعثما يقول كلمة وينسى أخرى لكن لين كانت تذكره كلما نسي..

صفقت له وقتما انتهى فتحول وجهه من حبة طماطم لوجه يحمل ملامح فخر طفولي لذيذ..

فتشجع العديدين بعده أولاد وبنات وأنا أدوّن جوار كل اسم الأغنية التي اختارها..

لين الغالية تتقن كل الأغنيات

وتساعد الآخرين بشكل رائع

بينما آدم يمثل كل أغنية بحركات طريفة تضفي بهجة..

أجمل ما فيهم براءتهم

بقيت طفلتان..

أقبلت ندى ونودي وهما توأمتان..

أوقفتهما متجاورتين وانتظرت أن تبدأ فبدأتا بدلا من ذلك بالشجار كعادتهما..

فأبديت انزعاجي قائلة:

- ندى ونودي رجاء قليل من التفاهم سأسمع كلا منكما..

وهنا بدأت موجة من البكاء من كلاهما وكل منهما تزايد أنها تستطيع رفع صوتها أكثر لكسب اهتمامي

فقلت بهدوء محاولة التحكم بأعصابي:

- حسنا أنا غير راضية عن تصرفكما سأسمعكما في الغد إن كنتما عاقلتين!

اقتربت المساعدة تهدئ من روعهما تشرح لهما سوء تصرفهما الدائم المنافسة بشكل مزعج!

فتابعت رد فعلهما على كلامها ولكنها ظهرت فجأة على باب الصف دون استئذان..

اندفعت تجاه نادين تحتضنها وتبكي بكاءً مريرا.. تتشممها كقطة تطمئن على صغيرتها..

ربت على كتفها بحنو فكأنما أفاقت فاستقامت أمامي تحمل نادين قائلة بحرج:

- آسفة..

أنا أم نادين..

مددت يدي أصافحها تمر عيناي على وجهها الجميل وتغوص بعينيها الجميلتين ترى أي قصة

بائسة عانت تلك الأم..

ولكنني تصنعت الجلد قائلة:

- أهلا تشرفت بك

صحبتها للخارج ووقفنا بالرواق نناقش الأمر..

قلت بروية:

- بصراحة كان موقفي حرجا للغاية وقد أتعرض لمشكلات بعملي!

قالت بحرج شديد وانكسار:

- أنا آسفة ربما كان علي توضيح الأمر من البداية!

قلت برفق:

- أرجوك لا تقس على نفسك.. علينا فقط التفاهم حول طريقة التصرف إن تكرر الأمر..

قالت وكأنها تسترجع كابوسا:

- هو فقط سوء

اختيار أواصل دفع ثمنه مع صغاري..

قفزت دفعات جديدة لعينيها فاحتضنت كفها

بكفي أشد من أزرها:

- بل ربما هو ابتلاء تثابين بالصبر عليه

هزت رأسها موافقة:

- على أيه حال.. رقمي الآن معك.. إن تكرر الأمر فقط اتصلي بي وسيأتي أبي من فوره لحل المشكلة فنحن لن نتفاجأ المرة القادمة على أية حال بل سنكون مستعدين..

ثم قالت بتردد:

- أم ترين أنه من الأفضل أن أجعلها معي بالمنزل؟!

قلت نافية:

- لا طبعا.. كفى ما تعرضت له الصغيرة ربما علينا جميعا أن ندمجها مع مجتمع الصغار وندعمها نفسيا لتتجاوز الأمر..

تمتمت بامتنان:

- أنا حقا شاكرة لك تحملك وطيبة قلبك وتفهمك للوضع..

ثم ابتسمت فأشرق وجهها كله:

- بصراحة نادين طوال الوقت تتكلم عنك وتقلدك بالمنزل..

تحكي عن الأولاد والبنات وتحفظ أسماءهم جميعا..

تسمي لعباتها بأسمائهم وتلعب معهم..

كانت الصدمة على وجهي جلية ولكني حاولت مداراتها عمن تتكلم نادين؟ تلك التي لا تحادث

أحدا إلا نادرا..

تلك الماكرة تلعب معنا كلنا بمنزلها وتعتزلنا هنا بالصف!

ضيقت عيني بتصميم سأعرف كيف أصل لقلبك المكسور وأضمده يا صغيرة..

- أستاذة جميلة

هتفت برقة

فأجبت:

- أنا معك..

توجهي لمكتب أستاذة إلهام رجاء..

إنه أمر روتيني فقط ليكون كل شيء بشكل رسمي..

شكرتني وودعتني وقد غاب جزء من قلبي معها ومع الصغيرة نادين..

انتهى وقتي بالصف وقد عزمت على تأجيل حواري مع أستاذة إلهام للغد..

الأمر انتهى..

أحتاج حقا بعض الراحة..

حملت حقيبتي ممسكة بيد شمس سائرتين عبر الساحة للخارج ولكنني شعرت بألم مفاجئ في معدتي وشعور جارف برغبة في التقيؤ..

ركضت للحمام ووقفت أفرغ كل ما في جوفي أتأوه من عمق ألمي..

خرجت ليلى من إحدى الحمامات قائلة بفزع:

- جميلة ماذا حدث؟

كنت أشعر بدوار شديد لكني حاولت أن أشير بكفي لا بأس..

لم تصدق ليلى ادعائي الكاذب وأقبلت تحمل

شمس وتمشي بجواري للخارج حتى أوصلتني للسيارة..

قال شريف بقلق:

- ما الأمر؟!

فقالت ليلى بهدوء مطمئن:

- أعتقد أنها أفضل الآن..

ثم أكملت ضاحكة:

- فقط تتدلل لترى معزتها في قلوبنا

* * *

في المساء كنت أناظر سقف الغرفة بملل قاتل أبحث عن النوم كما صرت أفعل يوميا مؤخرا أعاني صداعا لا يُطاق..

لا أدري ماذا حل بي مؤخرا حتى عظامي صارت تؤلمني في نوبات ألم مزعجة وكأنني قد

صدمت بشاحنة للتو..

كنت أتقلب للمرة العشرين تقريبا محاولة التحرك بهدوء كيلا أزعج الغالي شريف النائم بعمق بعد يوم عمل طويل.. بل طويل للغاية كما صارت كل أيام عمله مؤخرا..

ألومه فيقول ببساطة:

- العمل عمل يا حبيبتي الجميلة

ثم يكمل مبتسما بثقة:

- أملك مفاجأة لكنني لن أقول لك الآن

ثم يستدير لمكتبه مكملا غارقا بين رسوماته الهندسية..

لكن أثناء نومه كان يحدث شيء آخر..

كان نومه متقطعا قلقا كأنما يحمل هما..

وكان يبدو وكأنه يحلم أحلاما مزعجة لكنني كلما

سألته عن الأمر قال ببساطة:

- إرهاق فقط يا غالية.. لا تشغلي بالك

تنهدت بعمق أين ذهب النوم؟!

سأستيقظ في الصباح الباكر

* * *

دوى صوت المنبه مؤكدا أنه وقت الاستيقاظ فنهضت أتحامل على نفسي حاملة إرهاق الكون كله فوق كتفي..

صار النوم مهمة صعبة تأتي بعد عقبات وحين تأتي لا تفي بالغرض!! فأنا استيقظ أحمل إرهاقًا وتعبا كأنني لم أنم

عوضا عن آلام العظام والمفاصل التي صارت تلازمني أيضا دون أي سبب مفهوم!!

قمت أعد حقيبة شمس وأرتدي ملابسي وخلال

دقائق بعدما أيقظت شريف والصغيرة كنّا ثلاثتنا في السيارة في رحلتنا الصباحية اليومية..

استنشق عبير الصباح، كأنه ينقي روحي وجسدي ويرسل فيهما راحة وسعادة وبشر بيوم جديد..

وشمس تضحك في المقعد الخلفي سعيدة بمداعبة الهواء لوجهها برقة..

ضوء الصباح الخافت القادم للكون بهدوء فارضا بداية يوم جديد مشرقة للغاية إنها لحظات مميزة كل يوم صباحا..

مبتسما شريف سألني عن صحتي وهل أبدو أفضل؟

كان وجهه الحبيب المبتسم مع خلفية الصباح المشرقة حافزا لأكذب تلك الكذبة البيضاء لئلا أكدر خاطره فقلت مطمئنة إياه:

- بالطبع يا عزيزي أفضل بشكل كبير الحمدلله..

يبدو أن الطبيبة كانت على حق هي فقط بعض أعراض الحمل على ما يبدو..

قال بثقة:

- نعم ستمر بأمر الله.. المهم أن تتخذي قرارك هل تستمرين بالعمل؟ أم تعتذري وتأتي أخرى بدلا لك حتى تستردي كامل عافيتك؟

هذا عمل عزيزتي وليس لعب أطفال

تذكري المهنية قبل كل شيء

هنا جلجلت ضحكتي بكل أنحاء السيارة لأقول بسخرية:

- صدقني يبدو مؤخرا أنه حقا لعب أطفال

بدت الدهشة على وجهه مطالبا بإيضاح لكنني كنت قد وصلت فترجلت واعدة إياه بشرح الأمر

حالما نعود للمنزل ..

كنت أملك حصة راحتي ببداية الْيَوْمَ هذه المرة حسب الجدول المخصص فأردت أن أنهي مقابلة أستاذة إلهام لأنهي الأمر..

وضعت حقيبتي بغرفة المعلمات راسمة ملامح الجدية على وجهي لكنني اصطدمت بها..

نعم تلك اللوحة الصغيرة لامعة الأطراف التي صارت صديقة يومي بكلماتها المرتبة..

كانت وردية مذهبة الأطراف مصفوف عليها..

تعيش البنت بعيني أبيها أميرة..

لا يراها كما يراها الآخرون بعيونهم..

بل يراها بقلبه..

كروح المرح والبراءة..

ورمز الطهر..

ومنبع الأمل..

ويبقى هو بعينيها..

كملك لمملكتها.. رمز للأمان..

منبع السعادة بلا حدود..

ناظرتها ببؤس.. يبدو أنني ألتقي اليوم مع عكس تلك المقولة تماما..

اتخذت طريقي لمكتبها طالبة إذن الدخول من أفكار بعد إلقاء تحية الصباح..

لكنها اقتربت مني مختلسة نظرة لباب إلهام المغلق قائلة وهي تعدل من وضع نظارتها:

- هل تعلمين ما جرى بالأمس؟

قلت بحذر:

- بخصوص ماذا؟

قالت بصوت خفيض:

- نادين!

هنا زويت ما بين حاجبي سائلة:

- هل هناك شيء لا أعرفه؟!

اندفعت مكملة:

- بل أشياء!!

ثم انطلقت تحكي بلا توقف وعيناها على الباب المغلق من حين لآخر..

نعم جاءت والدة نادين لإلهام كما طلبت منها وحكت لها ظروف ابنتها لكن رد إلهام كان صادما:

- لن أعرض مدرستي للمشكلات بسبب ابنتك..

انهارت الأم من رفض أستاذة إلهام وطريقتها الجافة المهينة..

ولكنها خرجت من مكتبها غاضبة مهددة أنها لن

تسكت وأن أبيها وسنعلم من هو سيكون له تصرف آخر مع الإدارة الخاصة بالمدرسة!!

كنت أطرف بعيني وأنا أسمعها وكانت تلك هي الإشارة الوحيدة مع أنفاسي أنني على قيد الحياة ولَم أتحول لتمثال شمعي بعد..

فركت كفي طالبة منها الصمت قائلة:

- حسنا صارت مهمتي أصعب الآن..

طرقت الباب ودخلت كانت عيني إلهام معلقتين بشاشة الكمبيوتر أمامها تنقر أصابعها على لوحة المفاتيح بسرعة وحدة..

بدا الجو ثقيلا خانقا فقلت محاولة كسر الصمت:

- السلام عليكم..

التفتت وكأنها بالكاد علمت بوجودي:

- وعليكم السلام ورحمة الله..

قالتها بطريقة مسرحية تعبر عن مدى انزعاجها

قلت :

- هل من الممكن أن أجلس؟ جئت أناقش مشكلة نادين!!

وجلست..

كان حوارا هادئا صاخبا أكد لي أننا لن نفهم بَعضُنَا أبدا حقيقة!!

تتعارض وجهات نظرنا في أي موضوع..

ولكنني حاولت لأجل الصغيرة إثناءها عن قرارها برفض حضور الصغيرة للمدرسة..

فردت بحدة:

- أستاذة جميلة طال وقت النقاش..

ثم أكملت مضيقة عينيها يتوعد رامية لكلماتي أمس:

- ربما هو وقت عودتك للصف..

أرجعت رأسي للوراء متفاجئة..

ثم قلت بهدوء وأنا أقف مستعدة للانصراف:

- نعم.. أنت محقة!! ولكن عديني أن تفكري مرة أخرى بالأمر لأجل الطفلة..

ثم انصرفت مغلقة الباب خلفي مغلقة لباب النقاش المرهق للغاية..

كانت أنفاسي تتلاحق الآن كأنني كنت أركض لمسافة طويلة..

تناولت شطيرتي على عجل بطريقي للصف مع بعض العصير الطازج لإعطائي بعض القوة لأبدأ يومي..

دلفت صفي وسط صيحات الترحيب المعهودة..

لكن زين الصغير ماذا حدث له حقا؟!

تأملت وجه الصغير الموسوم بصفعة واضحة الأثر وذراعيه المكدومتين بقهر..

تذكرت كلمات أمه لي بالهاتف منذ يومين..

كنت أخبرتها بمشكلته فاستنكرت:

- ابني أنا سارق؟

قلت بهدوء:

- الطفل لا يدرك معنى هذه الكلمة بعد ولا حدود الملكية.. يحتاج فقط متابعة وتوعية بخطأ سلوكه ودعم نفسي وعاطفي ليتجاوز الأمر..

قالت بسرعة وحزم:

- سيعيد كل الأشياء غدا ويعتذر..

قلت شارحة الأمر:

- أنا لا أريده أن بشعر بالفضيحة.. ولا أنني أو أصدقاءه عرفنا..

ليضع الأشياء غدا على طاولتي وسأمثل أنني لم ألاحظ من وضعها..

ولكن أبدي شكري له وفرحتي بعودتها..

قالت بملل واضح من عرضي للحل:

- لا تقلقي.. دعي الأمر لي..

لم يكن لي خيار آخر وقتها مع أم رفضت التعاون..

لكن يبدو أنها عالجت الأمر بأسوأ طريقة..

كان زين يرمق ما حوله بخجل متلبسا بكونه مهانا!

وكأننا برؤيتنا لآثار الضرب على جسده رأيناه حين صفع وضرب!

احتضنته محاولة عدم إبداء ما هو واضح!

قائلة:

- زين لماذا كنت غائبا بالأمس؟ لقد افتقدتك!

قال كمن وجد طوق نجاة:

- حقا؟!

المسكين كسر قلبي!

وكأنه يشعر الآن أنه منبوذ من العالم كله وليس من أمه فقط!!

وهذه للأسف أفضل طريقة لصنع شخص غير سوي وربما يوما ما مجرم حقيقي!

أنه بأي حال منبوذ مكروه فلا شيء ليخسره..

واصلت حديثي معه برفق محاولة إشعاره بأهميته وأنه شخص محبوب ومهم بالصف طلبت منه مساعدتي طول اليوم..

بل وصف أغراضي بمكانها فأخذها بخجل من ثقتي به بعد ما فعله سابقا..

درس تلاه درس..

وإعادة لكل الأغنيات كما فعل الأطفال بالأمس..

مع متابعة لين وحركات آدم اللطيفة..

يبدو أنهم أتقنوها بشكل أفضل حقا!

ندى ونودي الباكيتين كانتا أهدأ وأجمل حينما أدركتا أن الصراخ والبكاء ليس وسيلة طلب فقط الهدوء والتحاور عما نريد..

كانتا أجمل كثيرا مع ابتسامة مشرقة ودون أي دموع!

نبهتني المساعدة أن وقتي بالصف انتهى وبدأ وقت استراحتي..

فنهضت ألملم أشيائي..

متوجهه لغرفة المعلمات..

لكنني اصطدمت بأفكار المتعجلة القادمة لصفي..

توقفت كل منا محاولة استعادة توازنها قالت بعجلة:

- آسفة للغاية!.. لكن أنت مطلوبة بمكتب أستاذة إلهام حالا!!

كانت ترمي كلمات غير مرتبة عن إصابة وعن والدة طفل من صفي جاءت للشكوى وعن غضب عارم لأستاذة إلهام..

هل صارت حياتي كفيلم هندي متسارع الأحداث مؤخرا؟!

الفصل التاسع

حد التخمة

"أكبر خطأ يرتكبه الناس في الحياة أنهم لا يحاولون أن يقتاتوا مما يستمتعون بفعله"

مالكوم فوربس

يبدو أن كلمات اللوحات اللامعة صارت أقرب لنفسي مما أتخيل.

مجرد كلمات لكنني صرت أتمثلها بكل موقف أمر به وها أنا أخطو خطواتي باتجاه مكتب أستاذة إلهام أحمل شعورا غامضا بالانزعاج..

ذكرني باللوحة الحمراء القانية ذات الأطراف سوداء التي كتب عليها يومها..

بعض الناس حين تتعاملين معهم ينتابك إحساس مختلف..

هل تعرفين شعور ذات الرداء الأحمر حين رأت الذئب في بيت جدتها يطمئنها ويتبادل معها حديثا ناعما؟!

هل جربت إحساس بيضاء الثلج والعجوز تقنعها أن تتناول تفاحتها خيرا لها؟

هل فكرت بما شعرت عروس البحر يوم خدعتها عدوتها إنها إنما تساعدها لتحقيق أمنيتها؟

تلك اللحظة التي تسبق حدوث أمر نندم عليه كثيرا.. يخدعنا الظاهر الحنون الناعم الذي تختفي خلفه نوايا سيئة.. ونعرف بعدها أننا ربما أسأنا الاختيار.. ولكنه درس ربما نتعلم بعده أن لا نسلم لكل ما يبدو ناعما براقا.. فالثعابين ناعمة براقة لكنها تنفث سُما!

كنت أحاول أن أتنفس بانتظام مهدئة أعصابي.

أرسم خطواتي بعناية.

أحضر كلماتي لموقف لم أعرفه بعد!

لم الرواق صار مخيفا هكذا؟!

لم مكتب أستاذة إلهام بعيدا هكذا؟!

جفاف حلقي غير طبيعي!

يد وضعت على كتفي فانتفضت..

كانت ليلى!

لم يبدو عليها الانزعاج بهذا الشكل؟!

كنت غريقا يتمسك بآخر قشة!

لكن قشتي تبدو غرقى!

قالت ليلى وهي تلهث من فرط الانفعال:

- حبيبتي بيوتيفول.. أنت ستذهبين لمكتب أستاذة إلهام الآن..

أريد منك فقط الهدوء ليس إلا!

كل ما سيحدث هناك اعتبريه مسرحية هزلية وستمر..

أشياء كثيرة تغيرت لن أستطيع أن أخبرك إياها الآن..

فقط أَن كل شيء سيصير أفضل قريبا!

لا تقلقي!

أومأت لا أحري جوابا!

وتابعت خطواتي الوئيدة..

طرقت الباب كما العادة ودلفت للداخل..

كانت تزين وجه استاذة إلهام ابتسامة واسعة ..

أليس هذا شيئا جيدا؟!

يبدو أنهم يضخمون الأمور..

حين تكون غاضبة يبدو الأمر أسوأ كثيرا يابنات صدقوني!

- اجلسي يا جميلة..

همست بها.

على الكرسي المقابل كان وجها غاضبا، بل متفجر غضبا..

قالت أستاذة إلهام بلهجة تقريرية:

- هذه أم مؤيد.. هل تعرفينها؟

هززت رأسي أن لا..

ثم أكملت أصطنع دعابة ربما تلطف الأجواء:

- لكني أعرف مؤيد جيدا بالتأكيد!

لم يضحك أحد..

لهذا الحد مزحتي سخيفة؟!

أكملت أستاذة إلهام:

- مؤيد كسرت رجله بالأمس، هنا بالمدرسة وبصفك!

والدته أصرت على تصعيد شكوى للشرطة لحماية الأطفال الآخرين من التعرض لنفس الإهمال..

لكنني طمأنتها أننا سنقوم بالواجب.. ولهذا سأجري معك الآن تحقيقا ترفع نتيجته للإدارة يترتب عليه تحديد العقوبة المناسبة..

كان الوجه لغاضب أمامي يبدي ارتياحا إلى حد ما الآن..

لكن أستاذة إلهام وضعت ورقة أمامي وعليها قلما طالبة مني التوقيع..

رفعتها أمامي

كانت طلب استقالة مقدم مني أنا!

قالت بأحن صوت سمعته منها يوما:

- أرجوك جميلة هذا وقت تحملك مسؤولية

إهمالك وأعفي المدرسة منها من فضلك..

لن يسامحك ضميرك لو كنتِ سببا في ضرر لنا صحيح؟!

تفاجأت؟! للحق لقد تفاجأت للغاية!

هل هذه هي المسرحية التي عنتها ليلى؟

وماذا تملك ليلى لحل المشكلة؟

هل إذا وقعت هنا الآن لن آتي غدا؟!

هل هو قرار صوري فقط لترتاح أم الطفل؟!

أصلا لم يَصْب مؤيد!

وكأنني وجدت قارب إنقاذي..

قلت بروية:

- حسنا.. بعيدا عن كل ما يجري وتلك المحاكمة التي تقام لي دون دفاع.. أحتاج أن أفهم أصل القضية أقصد الحادثة؟!

أدرت وجهي لأم مؤيد ابتسمت قائلة:

- شفاه الله وعافاه مؤيد.. لكن ماذا حدث بالضبط؟!

قالت أم مؤيد بغضب مكتوم:

- ابني حضر للصف أمس كان سليما..

عاد قائلا أنه مرهق ويريد النوم..

حالما استيقظ كانت ساقه متورمة للغاية..

صحبته للطبيب قال أنها تحتاج تجبير..

بدا الاهتمام على وجهي قائلة:

- إذن لن يستطيع الحضور لثلاثة أسابيع؟

قالت بتردد:

- ليس كسرا بل مجرد شرخ يحتاج رباط ضاغط وعدم حركة لأسبوعين..

قلت متسائلة:

- وهل سألت مؤيد إن كان سقط في الصف أو حدث شيء ما؟!

أكملت بانزعاج:

- نعم.. إنه حبيبي خجول للغاية..

قال أنه سقط على الدرج وهو عائد من الحمام..

وتحمل الألم طوال الْيَوْمَ ولَم يخبر أحدا..

كنت أتخيل الجميل مؤيد يتحمل هذا الألم وحده مثابرا، ياللمسكين الصغير!

قلت برفق:

- شفاه الله وعافاه..

لكن اسمحي لي بسؤال آخر؟!

متى كان الأمر أول الْيَوْمَ أم آخره!

ردت فورا:

- قال حدث ذلك قبل وقت الانصراف بوقت

يسير..

رددت بثقة وقد اطمأننت من خلو ساحتي:

- حسنا.. أسأل الله أن يتم شفاءه على خير..

ورفعت بصري لأستاذة إلهام:

- أنا فعلا مقصرة..

كان علي أن أعلم صغاري التوجه إليّ حال ما تقابلهم أي مشكلة.. الطفل تحمل الألم وحده..

لكنني لم أكن أنا المعلمة الموجودة بالصف بهذا الوقت للعلم فقط..

ثم التفت لأم مؤيد:

- الطفل خجول بشكل زائد علينا مساعدته أن يتخطى هذا الخجل ويعبر عن مشكلاته أليس كذلك؟!

أنت أمه لم يخبرك شيئا حتى استيقظ ولاحظتِ

تورم ساقه!

أومأت مرة أخرى..

سحبت ورقة الاستقالة قائلة:

- أظن الأمر واضح الآن..

سأوقع رغم كل شيء كما طلبت أستاذة إلهام..

ولكن أعتقد التحقيق يستلزم كتابة كامل الواقعة وتوقيعي عليها والأم وكذلك أنت أستاذة إلهام أليس كذلك..

لا بأس سأكتب كامل الواقعة، وأوقع وستوقعون أنتم أيضا..

بعد دقائق كنت أتممت الكتابة ووقعت كلاهما بصمت مذهول..

تركت الورقة على المكتب واستأذنت بالانصراف..

حال خروجي من المكتب كنت أشعر بالإنهاك الجسدي والنفسي..

ياللحبيب مؤيد!

ما إن خرجت من المكتب حتى جذبتني ليلى من ذراعي للخارج..

قلت بخفوت:

- هل توقيع استقالتي داخل في المسرحية الهزلية التي تكلمت عنها؟! أرجوك قولي نعم!

ارتدت للوراء متفاجئة:

- يا إلهي لقد تمادت كثيرا!

حسنا لقد قابلت أستاذ سعيد والد أستاذة إلهام بالأمس..

قلت بخفوت:

- حقا؟!.. وما كانت المناسبة؟!

ردت ببساطة مخفضة صوتها أكثر وعينيها تدوران بالمكان حولها للتأكد ألا أحد يسمعنا:

- لم أكن أعرف المناسبة بل جاءني هاتف من الإدارة بضرورة التوجه لمكتبه بعد الانصراف من العمل . سأحكي لك ما جرى..

وقفنا مستندتين للجدار المزين بالرسومات بالساحة وأكملت ليلى كلماتها قائلة:

- كانت المرة الأولى التي أراه بها.. كان واقفا مديرا ظهره لي ينظر من النافذة للخارج بمكتبه الفخم.

قلت بصوت هادئ:

- أستاذ سعيد؟

التفت إلى بابتسامة وقورة مرحبة:

- نعم.. أهلا معلمة ليلى..

كنت أراقب وجهه بملامحه البشوشة امتزجت مع نظرته العميقة التي تشي بخبرة في الحياة..

أشار مادا ذراعه لكرسي أمام مكتبه:

- اجلسي رجاءً

جلست فجلس خلف مكتبه مقابلي..

- هل تعرفني؟!

قلتها باستغراب..

فضحك ضحكة وقورة قائلا:

- ربما لم ألتقيك وجها لوجه..

لكن أؤكد لك أني أعرفك جيدا وإلا لما طلبتك الْيَوْمَ أليس كذلك؟!

قلت ببساطة:

- لكنني لا أدري ما سبب تشريفي بهذه المقابلة!

صمت خافضا رأسه للأسفل بحزن:

- ابنتي إلهام.. مرت بالكثير..

وابنتي لينة لا تستحق ما يحدث معها..

رفع رأسه إليّ:

- اعتبري نفسك رسول عني لداخل القسم الحبيب لقلبي..

قسم البراءة والطفولة..

لحل مشكلاته!

قلت بدهشة:

- أنا؟!

قال:

- بصراحة تصاعدت حدة المشاكل مؤخرا سواء بين لينة وإلهام..

أو شكاوى أولياء الأمور التي بدأت تتفاقم..

عرضت على حلا حل المشكلات لكنها رفضت

التدخل زاعمة أن الأمر أكبر منها..

فهل ترفضين أنت أيضا؟!

قلت بثقة:

- أنا لا أرفض..

أمضيت سنوات من عمري هنا..

يهمني هذا المكان كما يهمك وأنتمي إليه أكثر منك اعذرني..

لكن على الأقل أرشدني من أين أبدأ؟!

قال بهدوء وبعينين نظرة فخر أبوي خالص:

- بأعقل العاقلات لينة..

علت وجهي المفاجأة..

فأكمل شارحا:

- لينة تعرف إلهام كما تعرف كف يدها وهي رغم كل شيء لن تؤذيها..

وستساعدك بطريقك لحل الأمور وترشدك للأفضل..

تمتمت وفِي ذهني ألف فكرة عن كيف سألتقيها وبفراسته قرأ السؤال بعقلي!

فقال:

- حتى الأمس كانت ترفض أي حوار..

بل ترفض حتى أن تحضر لمقابلتي زاعمة أنها تحتاج للتفرغ لأسرتها..

كنت أعلم أنها حجة منها..

لكن الْيَوْمَ كلمتها..

قصصت لها كيف صار الوضع مزريا

فأجابت:

- أنا تحت تصرفك رامية الكرة بملعبي لأتصرف لحل المشكلة..

لكنها للأسف لن تعود قبل شهر لأنها سافرت مع زوجها وأسرتها قبل أن أحدثها بالتطورات..

لذا القسم بين يديك حتى موعد عودتها سالمة بأمر الله..

أعطاني رقم هاتف أستاذة لينة الشخصي قائلا أنه سيحدثها وستنتظرني للتحدث حول كل ما يجري حال عودتها..

أنهت ليلى حكايتها فقلت وقد علت ملامحي الدهشة:

- حسنا.. اعذريني أنا متفاجئة!

فأجابت:

- أنا متفاجئة أكثر..

لكن كل شيء سيحل بإذن الله..

قلت ساخرة بمرارة:

- وحتى يحل هل آتي غدا أم أبقى بمنزلي؟!

قالت فورا بصوت شابه الحرج:

- ستأتين طبعا الاستقالة سترفع لأستاذ سعيد وسيرفضها فأنا سأوضح له الأمر..

زفرت بضيق وصمت..

فعادت ليلى تواجهني:

- أنا آسفة أعرف أنك مررت بالكثير من المشكلات مؤخرا..

رددت بحزن:

- صدقيني ليست مشكلة هذا الزخم العجيب من المشكلات بالعمل لكنني أيضا أشعر بالضعف يوما عن يوم!

ليلى أنا أشك حقا في تشخيص الطبيبة الأمر ليس حملي فقط!

هناك أعراض كثيرة موجودة من قبل تاريخ الحمل تزايدت تدريجيا وتفاقمت مع الحمل..

أنا أعاني أرقا وأستيقظ شاعرة بتيبس أطرافي..

أستيقظ مرهقة كأنني لم أنم أصلا!

هذا إلى جانب نفسيتي السيئة دون مبرر وآلام عظامي التي تزداد كل مدى

مع صداع يدوم أحيانا لفترات

اضطراب معدتي أيضا أمر آخر

كل عرض منهم وحده كنت أبرر له

صداع؟!

ما المشكلة كل الناس تصاب به..

عظامي؟!

ربما هو برد أصابني..

وهكذا..

لكنني الآن أشعر أن أشياء كثيرة تغيرت وأحتاج أن أفهم ماذا أواجه حقا؟!

أي مرض دب في أنحاء جسدي؟!

رددت ليلى:

- حبيبتي بيوتيفول.. الأمر بسيط إن شاء الله..

حسنا لماذا لا تراجعين طبيب العظام أو الأعصاب أو أيا كان؟!

قلت:

- نعم أنتوي ذلك، أنتظر فقط حتى يملك شريف وقتا.. فهو مشغول للغاية هذه الأيام!!

قالت ليلى بسرعة وحس:

- سأصحبك أنا.. هل يناسبك الغد؟!

تلك الغالية ليلى صحيح رب أخ لك لم تلده أمك!

* * *

وفِي الْيَوْمَ التالي استأذنت شريف بالذهاب مع ليلى لإجراء بعض الفحوص فوافق على الفور ظانا بأن الأمر متعلق بمتابعة الحمل كما العادة..

لم أشأ أن أثير قلقه فيكفي ما يعانيه من ضغوط العمل في الفترة الأخيرة..

كنّا نلف من طبيب لآخر عظام أعصاب طبيب عام..

دون أي جدوى سوى مزيد من التحليلات والنتائج التي يرمقها حائرا يكاد يهتف أني ذات مخيلة واسعة أو أنه لا مبرر طبي لما أعانيه..

أن تصاب بمرض لهو ابتلاء..

أن تجهل ويجهل الأطباء مرضك هو كابوس..

تقف لشرح آلام وأعراض..

محاولا رسم شكل هذا المرض الغريب وكيف

يهاجمك..

فيجيبوك أنه شبح..

غير موجود..

لا يعرفونه..

تكتشف أنك تقف أمامه وحدك..

بلا دواء..

بلا طبيب..

بلا أي نصائح أو خبرات..

وفِي طريق عودتي للمنزل كنت أفكر..

ما هذا الزخم الذي ضرب حياتي؟!

هل كنت أشكو الفراغ حقا؟!

يالي من ساذجة!

هاهي حياتي ممتلئة حد التخمة!

* * *

كنت جالسة على السفرة أحاول التظاهر أن كل شيء بخير..

أضع وجها جامدا صرت أتقنه مؤخرا مختلفا تماما عن وجهي الشفاف الذي أعرفه..

لكن هذا القناع ومضغي الطعام بانتظام وحتى التهائي بشمسي الصغيرة وطعامها لم يكن ليحجب ما أنا به عن شريف..

أعتقد أن نظرة شريف طالت إلى عيني المتهربتين..

ملاحظ هو لكل ما أمر به منذ فترة..

سمعت صوته يسأل عن صحتي فأجبته بالقالب اليومي المعتاد بأن الأمور بخير..

لكنه هذه المرة لم يقبل الإجابة امتدت يده عبر الطاولة الصغيرة تمسك يدي..

تشوشت الرؤية أمامي..

لن أبكي!

لن أ..

كان قرارا كذبته عيناي وانهمرت دموعي معاندة بسخاء.

الفصل العاشر

شيء من القوة

"لا تسمح لأي شخص أن يحجب الضوء الذي يشرق من داخلك"

مايا أنجلو

تعددت رحلاتي للمشفى أوقات بصحبة شريف وأوقات بصحبة ليلى..

لم أصل لأي نتيجة سوى محاولة التأقلم مع تلك الأعراض كلها ومهادنتها قدر المستطاع مع تناول حبات مسكّن إذا تفاقم الأمر مع مراعاة أن يكون على فترات ومناسب للحمل..

شيء من القوة بدأ يدب داخلي ضد ذلك المتسلل بين أوردتي معلنة ثورة من المقاومة..

ثورة تعلن المحافظة على كل جميل في حياتي..

على روتيني اليومي دون الرضوخ لسيطرته علي..

مع التصميم على البحث عن هويته لأستطيع مقاومته بشكل أفضل..

معي زوجي وابنتي وصديقتي يدعمونني فيزيد إصراري ألا أخذلهم باستسلامي..

اتصلت علا لتخبرني أنهن قررن التجمع بدون الأزواج المنشغلين جميعا بمهام العمل بشكل زائد عن المعتاد..

قالت أنها تفضل أن نكون عندها هذه المرة..

وبالفعل في الْيَوْمَ التالي كنّا نجلس مجتمعين ومن حولنا يتراكض الأطفال في سعادة..

بدأت هند الحوار مازحة:

- أخيرا رأيت شخصا آخر غير وجهي في المرآة!

افتقدتكن!

افتقدت تبادل الأحاديث معكن..

فردت علا بنزق:

- وماذا كنت تنتظرين لتطلبينا وتسألينا لم لا نجتمع؟!

ثم قلبت بصرها بيننا جميعا قائلة:

- لو لم أدعوكن ما رأيتكن ولو بعد عام؟!

هل كان خبزا وملحا أم ماذا؟!

رددت على وصلة التقريع المحب قائلة لها بشبه اعتذار عن التقصير:

- والله لقد فرحت جدا بلقائكن! ربما شغلت ببعض المشكلات الصحية البسيطة فتهت في دوامتها عن غير قصد..

ثم وضعت كفي المفرود على صدري في طلب

للسماح :

- سامحينا يا علا يا أعقل العاقلات..

ضحكت سوزان بخفة قائلة:

- طبعا سامحتك تحملين أجمل عذر بداخلك..

هل نقول مبارك أم نتظاهر بعدم المعرفة إن كنت تخافين الحسد؟!

رددت مدافعة بحرج:

- وهل أخاف منكن يا سوزي؟ عيب هذا الكلام!

قالت هند محاولة تهدئة الجو:

- هي تمزح معك فقط يا جميلة..

مبارك يا حبيبتي حملك..

قامت علا لتحضر بعض الحلوى والعصائر، وكانت فرصة لهدنة!

سوزان تلك المغرورة دائما ما ترمي بعض

الكلمات مثيرة زوبعة..

حقا لا طاقة لي بها الْيَوْمَ أبدا!

قمت أبحث عن شمس فوجدتها تداعب أولاد هند بسعادة فاطمئن قلبي..

وفِي طريق عودتي لمكان جلستنا استوقفتني سوزان قائلة:

- ترى ما أخبار زوجك مع المشروع الجديد؟!

قلت لها بتلقائية:

- بصراحة طوال الوقت يعمل عليه ..

يرجع من ساعات دوامة فينكب على مكتبة وأوراقه وأبحاثه على الشبكة العنكبوتية..

لم أره مشغولا بهذا الشكل من قبل!

يبدو أنه يوليه اهتماما كبيرا ..

أنا حقا قلقة على صحته!

من الصعب الاستمرار بهذا الجهد العنيف طوال الوقت!

ظهرت ابتسامة على جانب ثغرها وقالت:

- المنافسة ليست سهلة يا عزيزتي!

زوجي محمود أقدمهم في الشركة ورغم أنه أكثر تمرسا لكنه يبذل جهده أيضا ليقدم أفضل ما عنده..

شممت رائحة غير محببة لكلماتها التي لم أفهم فحواها جيدا..

لكنها أكملت بثقة:

- أنا واثقة من أن محمود سيحقق نجاحا غير مسبوق.. فهو له خبرته..

ثم بتودد مصطنع بلا نكهة قالت:

- أتمنى التوفيق لزوجك أيضا..

بصراحة متطلبات الحياة صارت صعبة وأسرنا تكبر متطلبة احتياجات أكثر!

والمنافسة في سوق العمل تحتاج قلب أسد ..

لا يخاف ولا يهاب ولا يرمش له جفن ..

بدا لي الكلام غريبا وكأنها تحاول أن ترمي لهدف ما لا أفهمه من وراء الكلمات فوقفت لا أحري ردا وأنقذتني علا بقدومها مع الحلا والعصير..

* * *

وفِي يومي التالي..

استطعت لأول مرة أن أرسم البسمة العريضة النابعة من القلب كباب أغلق به ثقبي الأسود الخاص..

فهمت أن ليس كل ابتسامة تعني سعادة مطلقة..

بل الابتسامة هي أجمل ما تستطيع رسمه على

وجهك من أجلك ومن أجل الآخرين..

ربما لتعينك وتعينهم على تقبل كل ما تمرون به

نعم ربما أضعف المرض جسدي لكني سأقاوم لآخر لحظة ..

سأمضي بقوة رافعة رأسي ..

لن أتوقف طويلا أمام بصمات المرض علي..

كان قرارا بالحياة مع استكمال رحلة البحث ..

فهذا حقي على ذاتي ..

دخلت المدرسة فوجدت حركة غير عادية في هذا الوقت من الصباح ..

ولكن أفكار الإدارية ركضت إليّ فور رؤيتي أوقع بدفتر الحضور ..

أفكار:

- أستاذة جميلة.. حمدلله أنك وصلت..

لديك اجتماع الآن مع كل المعلمات بغرفة أستاذة إلهام!

ضحكت قائلة:

- وهل أنا مدعوة للاجتماع أم مفصولة عن العمل؟

قالت وقد تذكرت حوار الاستقالة الذي حضرته منذ يومين فرفعت نظارتها بحركة آلية قائلة بتقرير:

- هذا الأمر سواه أستاذ سعيد وأستاذة ليلى مع أستاذة إلهام ..

قلت بسخرية وأنا اتخذ خطواتي للمكتب:

- كل هؤلاء تحاوروا بشأني.. سأغتر!

دلفت للمكتب كما العادة محاولة إيجاد مكان قرب الحائط لأستند إليه..

ألقيت تحية الصباح..

وللحظة اجتمعت عيني وعيني أستاذة إلهام..

كانت تبدو مختلفة شيء فيها انكسر فجأة..

سررت قشعريرة بجسدي وأشفقت عليها لا أدري

مما ربما لأني لا أحب أن أرى ضعف البشر أيا

كانوا..

ربما بعض الناس أعداء أنفسهم دون أن يشعروا!

لكن سقوط قناع الجبروت والتسلط عنها الْيَوْمَ بدا

جليا..

ومن خلف تشققاته بدا أننا نتعرف على شخصية

جديدة.

ربما إلهام أخرى..

بدأت بإلقاء بعض ملاحظات عامة..

وطلب بعض المهام ..

ثم قالت:

- هل استعددتن للمسابقة الإذاعية؟!

بصراحة يوم لقاء المعلمات بالأمهات اقترب كنت قد أعددت خطاب عام أقدمه لهن أول المقابلة..

ثم خفضت بصرها قائلة بتردد:

- لكنني تراجعت عن ذلك لبعض أسباب..

ولكن أفكر أن تعرضن أمامهن براعة الأطفال وتقدمن فقرات المسابقة.. فما رأيكن؟!

دار نقاش احتد في مواطن ولان في أخرى..

بين رأي يرى أن ليس هذا مكان ووقت المسابقة الصباحية كما هو مفترض بحضور المعلمات والطلاب فقط ..

ورأي يرى أن الأمهات ستفرحن وتشجعن

الأطفال وهذا هو الغرض وسيحقق نجاح أكبر

وهنا أمسكت ليلى خيط الحوار بصوت واثق:

- استمعنا لرأيكن يا بنات ..

والآن سأتفاهم أنا وأستاذة إلهام ونخبركم بقرار أخير.. الأمر بسيط لا تقلقن..

التفتت الوجوه كلها لليلى وتساؤل دار بالغرفة أعلنت إجابته إلهام قائلة بتلعثم غريب عليها:

- ليلى يا بنات ستساعدني كمستشارة في الفترة القادمة ويمكنكن استشارتها بأي مشكلة..

تجمع الكل حول ليلى يهنئنها بالمنصب الجديد متمنين لها التوفيق فبأي الأحوال كانت هي الأجدر..

وهكذا عادت كل معلمة لصفها ..

وفِي استراحتي التالية جالست ليلى أحتسي

مشروبي وأصحح بعض الكتب ..

جلست تجاورني فعليا لكنها كانت بعالم آخر..

بين أوراق ترتبها لاجتماع الأمهات.. وكل دقيقتين تحضر إحداهن لطلب حل لمشكلة ما فادع ليلى ما بين يديها وتندفع في شرح مطول لخطوات الحل..

وتمر الإدارية تحمل بعض تساؤلات فتحاورها ليلى بلباقة مبددة كل علامات الاستفهام..

الغالية ليلى تغرق بين أطنان من المسؤوليات محاولة إنقاذ القسم من ما حل به مؤخرا..

كنت أتوق للتحدث معها ببساطة كما كنّا نفعل دائما في دردشات تخفف عنا أحداث يومنا..

كانت الوحيدة القريبة من روحي..

أحدثها بلا حواجز..

أتقن الثرثرة في حضرتها ..
وواثقة أنها كانت تبادلني الشعور كأخت لها طالما تمنتها..
لم أستطع الفصل بين كونها صديقتي وكونها تحمل مسؤوليات جديدة..
هذا هو أنا!
بسيطة جدا ومعقدة جدا في آن واحد..
قريبة منها بقيت بحيث لم أقدر أن أتعامل معها كمسؤولة فهي صديقتي!
ولم أقدر أن أبقى على عادات صداقتنا فقد صارت تملك مهام تشغل كل الوقت لديها!
لذا بقي الوضع كما هو عليه حتى إشعار آخر..
فصرت أقضي استراحاتي وحدي أو مع حلا..
وبهذا فقدت تواجد ليلى معظم الوقت بعدما فقدت

تواجد أستاذة لينا قبلها..

هل ينقرض من أحبهم من مجتمعي المدرسي من حولي أم أنني واهمة؟!

بات للقسم شكل غير الذي اعتدته..

العمل والعمل فقط..

وللعمل أجواء ماتعة مميزة مرحة أو كئيبة مزعجة ضاغطة كما صار مؤخرا..

وكأن هناك غيمة رمادية صارت تحلق فوق المبنى مؤخرا حاجبة عنا شمس الصباح الباسمة

فصار الوجوم سمة دائمة لجميع من حولي..

بعدما كانت السعادة تنير المكان طوال الوقت..

على أي حال..

بقيت فترة بسيطة على أجازة منتصف العام..

تلك الأجازة التي أنتظرها بفارغ الصبر!

ربما أحتاج أن أعود لوقت قصير لفراغي الذي هربت منه!

فرصة للتأمل والتفكير بهدوء في كل ما يجري حولي..

- ابتعت لك معي الدونات اللذيذة كما تحبينها..

مع أجمل كوب قهوة من صنع يدي

التفت لها غير مصدقة:

- ليلى أنت هنا أخيرا!

تملكين بعض الوقت لتمضينه مع عامة الشعب مثلي!

ضحكت من غيرتي البادية من انشغالها الدائم:

- حقا يا جميلة الصيت ولا الغنى!

ها أنا أحمل كل مشكلات القسم على رأسي

مؤخرا مع متابعة صفي وبعض اجتماعات

الإدارة مع أستاذة إلهام

متى ينتهي هذا كله!

أحتاج لوقت فراغي بقوة!

ضحكت مكملة:

- انعمي بقليل من الضجيج في حياتك يا ليلى

قالت ضاحكة:

- أي ضجيج وأي نعيم!

هذا كثير من الضجيج حقا

ثم أنني أحتاج أن اهتم بشؤوني الخاصة قليلا!

قالتها بدلال مع حمرة غزت وجهها..

رمقتها بنظرة ذات مغزي قائلة:

- أي شؤون خاصة من خلف ظهري؟!

يبدو أن في الأمور أمور وأنا لا أعلم..

قالت بخبث:

- لم تخبرك شمس؟!

قلت بتودد مصطنع:

- هل صارت شمس هي صديقتك مؤخرا؟!

ضحكت قائلة:

- بالطبع!

- ربما من الأفضل أن تعترفي الآن ما الأمر..

قلتها مهددة..

فقالت ببساطة:

- الأمر بسيط للغاية..

دكتور سامح يعمل مؤخرا مع أبي بالصيدلية..

ويفكر بالتقدم لخطبتي ..

بصراحة لقد كلم أبي حين كانت شمس عندنا

وكنت ذهبت بصحبتها للصيدلية لأبي..

وحين أخبرني أبي بالأمر قلت بالتأكيد أعجب

بالجميلة شمس وهي من عناها بالأمر..

قلت بسخرية:

- ابنتي وجه خير عليك يا شريرة ولَم تخبريني من يومها؟!

قالت بهدوء حذر:

- شغلت معك فيما كنّا فيه وبعدها بالعمل وسافر أبي لظرف طارئ.. فتوقف كل شيء!

أسندت وجهي على كفي بشكل مسرحي قائلة:

- أرى تقبلك لأمر الخطبة مختلفا!

توترت ملامح وجهها قليلا قائلة:

- بصراحة أكره مقابلات الخطبة..

أكره كوني تحت الاختبار والملاحظة من كل الحاضرين.. ذلك يزعجني..

وإذا كان بعدها الرد بالرفض من العريس يكون

الأمر موجعا أكثر وأكثر!

فقررت أن لا أضع ذاتي بهذه المواقف حفظا لها لكن دكتور سامح الأمر مختلف..

هو رآني وموافق مبدأيا على شكلي وأخبر والدي أنه استخار ويشعر براحة نفسية لإتمام الأمر..

وكذلك أنا أشعر براحة نفسية على غير عادتي في مثل تلك المواقف.. كما أنني أسمع حكايا أبي اليومية عنه خلال سرده ما جرى بالعمل وأحيانا يضحك ذاكرا موقفا طريفا مر بهم.. فكأنني أعرفه من خلال معرفة أبي به.. وهذا طمأن قلبي كثيرا لخوض التجربة.. هل تفهمينني؟!

أومأت قائلة:

- أتفهمك تماما ليلى الجميلة.. وأطمح أن أزفك بيدي قريبا..

كنت أتأمل ملامح وجهها المشرقة بسعادة مختلفة..

أرمق اللوحة الصغيرة اللامعة بطرف الغرفة بلون أبيض ناصع ماثل الفرحة بهاءَ..

هل تعلمين يا صديقتي؟!

بعض الناس كأن فرحتهم تنبع من قلبك

نجاحهم كأنه نجاحك

وكأن شيئا من روحهم يسري بروحك

إن وجدتهم لا تبتعدي عنهم أبدا فقد أحببتِهم بصدق حقا فتوحدت مشاعركم..

نعم يا صاحبة الكلمات أحسنت..

ليتني أعرفك!

صارت حروفك لها طابع مميز تتسلل لداخلي وتصاحب دائما أفكاري..

هل من الممكن أن تكونين دائما حولي دون أن أشعر بك؟!

دون أن أعرف أنك مصدر وروح هذا الإبداع الذي صار رفيقا ليومي؟!

ألا أعرف حين ألقي إليك تحية الصباح أنك حقا أنت؟!

عدت أرتشف القهوة مع كل قضمة من الحلوى اللذيذة..

دقائق وعادت الإدارية هامسة:

- أستاذة ليلى....

وآثرت أنا العودة لصفي مبكرة فقد اكتفيت من سماع مشكلات هذا المبنى المتفجرة مؤخرا!

أخرجت مفكرتي الصغيرة أستعيد ما لدي من مهام الْيَوْمَ بالصف كيلا أنسى أحدها..

- جميلة!.. سيكون أول اجتماع أمهات بحضورك!

ابتسامتي أين ذهبت؟!

فتشت عنها داخلي حتى وجدتها:

- نعم جولي هذا صحيح..

قالت بمكر كعادتها:

- ربما عليك محاولة كسب ودهن بعد مشكلات صفك المتزايدة مجددا مؤخرا..

كانت تلمح بسخافة لمشكلة مؤيد وقبلها نادين..

أغلقت فمي بالابتسامة التي صارت لها فوائد كثيرة مؤخرا..

فأكملت بغرور:

- ربما أعطيك دروسا خاصة في فن التعامل مع مشكلات العمل إن كنت تحتاجين..

كان ظاهر كلامها مزاحا ثقيلا..

وباطنه عجبا بالذات واحتقارا للآخرين..

مضيت بعض خطوات للأمام غير عابئة بها فقالت:

- جميلة يبدو أنك انزعجت أنا فقط أمزح..

كنت أودّ لو أخبرها أن الدب الذي قتل صاحبه كان لا يقصد شرا أيضا فقط كان يمزح!

بعض الناس يزيدون دقة رسم كآبة المكان حاليا بإتقان..

دلفت لصفي.. واضعة أدواتي بادئة درسي ببساطة مع حبات السكر ومضى الوقت سريعا كما العادة فجلست طالبة منهم إعادة ما حفظوه استعدادا للمسابقة..

كانوا قد اكتسبوا ثقة من التكرار أمامي مرة بعد

مرة فصاروا يؤدون بثقة أكبر وحرية أكثر..

كانوا كأجمل ما تكون البراءة مع البراعة..

الطفولة مع تحمل المسئولية..

ولكن كانت نوبة الألم على موعد..

وللحق فقد كانت ملتزمة جدا بالوقت!

تهاجم كل أجزاء جسدي بضراوة

لوهلة صمتت

وعيون الأطفال تنظر إلي..

رأيت في عمق عيونهم الألم وكأنهم بطيبة ونقاء أرواحهم قد شعروا بي..

ابتسمت كاتمة دموعي داخل عيني بحزم..

أكملت الدقائق الباقية وانصرفت اتلمس موضع حبة المسكن المخبأة بحقيبتي..

للألم قصص ودروب لا يعرفها إلا من سار بها.

فمهما وصفت لون ما لأعمى ومهما أستوعب بديع وصفك ودقيق تفاصيلك.. لا يمكن أن يعرف اللون مالم يراه!

وهكذا هي ألوان الألم عافاكم الله..

نعرف اسم المرض أعراضه وعلاجه..

يبقى مرضا في إطار عام..

إلى أن نتذوق ألمه..

وقتها يبدو للأعراض بعدا آخر تماما..

وللعلاج كذلك..

كنت فخورة بذاتي..

بقدرتي على التحمل رغم مرات انهياري..

فأنا بشر!

لكن كان بداخلي تصميم يوما بعد يوم أن أهزم هذا الألم بشموخ وصبر..

لا أحد كامل..

وهذا درب ضعفي وقد رضيت به..

لكنه لن يحرمني سعادتي ولا حياتي..

سيبقى موجودا في الخلفية داكنة الألوان..

بينما تطفو الألوان الزاهية على اللوحة بجدارة.

الفصل الحادي عشر

بين الأمواج

"مادمنا نعاني في جميع الأحوال، فلنجعل لمعاناتنا معنى"

أحمد خيري العمري، شيفرة بلال

كنت مترددة ترى ما هو المظهر المناسب بيوم اجتماع الأمهات؟!

لقد نسيت تماما أن أسأل عن هذا الأمر الهام وسط أمواج الأحداث المتلاحقة بالمدرسة!

بالتأكيد ليس أحد ثيابي الرياضية التي أذهب بها يوميا للمدرسة!

وليس زيي المحتشم وحجابي فالمقابلة نسائية..

كانت شمس جالسة بطرف الغرفة تشاهد التلفاز وكأنما أحست بحاجتي للهدوء وقد جاورها

شريف وقد أسر هاتفه المحمول اهتمامه بين صفحات فرق كرة القدم..

كانت أجازة آخر الأسبوع لكنها تفلتت من بين يدي مع وجوب ذهابي للمدرسة من أجل اجتماع الأمهات..

رنين هاتفي قطع حيرتي ورؤية اسم ليلى على الشاشة أنبأني أن الحل قريب..

الغالية ليلى صارت تعوض انشغالها بالأعمال طوال الوقت بالمدرسة بالاتصال بي من حين لآخر لنتجاذب أطراف الحديث كما تعودنا..

فتحت الخط هاتفة بالتحية:

- السلام عليكم.. كيف حالك يا ليلى؟!

ردت بمزحة ثقيلة قائلة:

- بالتأكيد أفضل من حال الواقفة أمام المرآة

محتارة..

قلت بغيظ مصطنع:

- يا لئيمة وتركتني لحيرتي!

قالت بود:

- بل اتصلت فور أن أدركت أنها أول مرة تحضرين بها مثل هذا الاجتماع..

ثم أضافت بثقة:

- ببساطة تأنقي..

نريد جميلة التي رأيناها أول يوم لها هنا بكعب عال وملابس أنيقة شبه رسمية..

توترت وأنا أقول لائمة:

- وتخبرينني الآن!

كيف سيتسنى لي تجهيز ملابس لائقة!

- من دولابك بالتأكيد..

- لكنني حامل وزاد وزني يا ذكية..

ضحكة صاخبة صاحبها قولها بمكر:

- أي حمل وأي زيادة وزن! أنت تتوهمين تبدين فقط كمن أثقلت في وجبة الغداء قليلا!

- حسنا يا ليلى سلام مؤقتا أراك بالمدرسة بعد ساعتين تقريبا..

* * *

عدت لدولابي أبحث بين أرجائه بحيرة حتى لمحته يرمقني من بين الأثواب يعلن عن نفسه بفخر ودلال ..

نعم .. اختطفته يداي بثقة كان فستانا رقيقا أبيض تتناثر عليه بعض الزهور الرقيقة تتروح ألوانها بين الوردي والبنفسجي الفاتح مع بعض وريقات بدرجات الأخضر..

لبسته على عجلة آملة أن يكون مازال مقاسه مناسبا ثم التفت للمرآة مناشدة إياها قول الحقيقة..
كان يحتضن نصفي العلوي بأناقة حتى الخصر ثم ينسدل متسعا قليلا ملتفا حول جسدي برقة متجاوزا ركبتي بقليل ..
بدا رقيقا لطيفا ومناسبا الحمدلله حسنا لقد ضاق قليلا عن ذي قبل لكنه مازال جيدا..
تسللت عن أطراف أصابعي حتى صرت مقابل شريف تماما فأصدرت صوتا منبهة إياه بوجودي لكنه كان متغيبا بالكامل مع حركات الكرة المجنونة بين أقدام اللاعبين متفاعلا معها بكل قسمات وجهه وتلافيف عقله..
لويت فمي ممتعضة..
لماذا تأسر تلك المستديرة المملوءة بالهواء عقول

الرجال؟!

مجرد لعبة كأي لعبة!

باسم أندية مختلفة يتنافسون ويتعصب كل منهم لناديه وكأنه أخيه الشقيق عليه أن يبذل له الغال والنفيس..

ثم تنتهي المباراة فيعود الفريق حاملا مكسبا أو خسارة وبضع مكاسب مادية وبالتأكيد مكاسب من قوة الجسد مع ممارسة الرياضة ويعود الرجال المتسمرون خلف الشاشات خاليي الوفاض إلا من بعض تفاصيل يتندرون حولها..

هيييييه ليس وقت فلسفة صحت بصوت عال:

- شررررييييييف

انتفض فزعا وكأنه تاه بين تفاصيل الزمان والمكان ثم عاد إليّ وقد أفاق للواقع بوجه مكفهر

من الغضب.

رفعت وجهي إليه برقة أحاول أن لا يتحول الأمر لخلاف يطول بين منطقينا:

- وددت لو تخبرني رأيك في ثوبي قبل انصرافي لكنك مشغول تماما بالكرة..

زفر يحاول لملمة أطراف انزعاجه وقد علم أنه تمادى في انغماسه بما يشاهد قائلا:

- جميل يا جميلة..

ارتسمت ابتسامة اطمئنان واسعة على وجهي كطفلة سعيدة بثوبها يوم العيد..

نعم كان يوما مميزا..

أول اجتماع أمهات..

أول عرض لأطفالي..

كنت متحمسة للغاية ويحق لي..

من بين أفكاري المزدحمة حول الْيَوْمَ المنتظر كان سؤال شريف يطل مستفسرًا:

- هل سأوصلك الآن؟!

قلت شاكرة:

- كلا ستمر بي ليلي فقط انتبه لنفسك ولشمس..

خلال دقائق أعلن هاتفي وصول ليلى أسفل البناية..

عدلت من حجابي وحملت حقيبتي وانطلقت للأسفل..

وفِي الطريق دار حوار بيني وبين ليلى..

قلت لها هامسة بتساؤل من يجرب الشيء لأول مرة:

- حسنا..

ربما لو عندك بعض ملحوظات عامة تساعدني

في هذا الْيَوْمَ..

ردت ببساطة:

- الأمر بسيط.. كل أم ستحاورك ببعض النقاط عن طفلها.. لو كنت معلمة جيدة فكل التفاصيل ستكون جاهزة بذهنك ببساطة من قربك الدائم من الأطفال وانا واثقة أنك كذلك..

عليك أن تكوني ذكية تفهمين ما وراء الكلمات..

هل تحمل فخرا بابنها؟

إحباطا من مشكلاته؟

تقبل أو نفور لما يمر به الطفل من تغيرات؟

لكن عليكِ أن تتذكري كل أم طفلها أغلى ما تملك لا تقولي لها ما يجرح شعورها كأم..

أبدأي بمميزات الطفل..

بعدها يمكنك التطرق لما تحتاجين لمعالجته من

مشكلات وعيوب بشكل لطيف وحذر.. لا تخسري الأم وتجعليها تشعر أنك تقفين بالجانب المقابل لطفلها وستقف هي بجانبه ضدك فطريا..

فكرت في كلماتها كانت منطقية للغاية فهززت رأسي مؤمنة..

لم أكن أَجِد حرجا في استشارة ليلى أو حلا أو أستاذة لينة قبلا..

فتجاربنا تنضج وتزهر عند مزجها بتجارب الآخرين وقد نوفر على ذاتنا سلوك طريق طويل مقفر ظانين أنه الطريق الصحيح بنصيحة صديق جاب هذه الطرق قبلنا وخبرها

التواضع صفة تابعة للعلم والكبر والغرور صفة تعوق العلم وتتبع الجهل على الدوام..

* * *

كانت أستاذة إلهام تبدو تائهة في حدث تواجهه لأول مرة كثير من الأسئلة عن تفاصيل خاصة بالقسم وتفاصيله التي تجهل كثير منها أربكتها، فكانت ترسل كل من يسألها عن شيء وتجهله لليلى بينما كانت ليلى تقف على أرض ثابتة جامعة كل الخيوط والتفاصيل بجعبتها مع حسن الأسلوب والاستقبال..

بدا القسم مزدانا بالزينات تطوف بعض أطباق الحلوى والشوكولاتة والمشروبات على الأمهات بكرم ضيافة واضح..

بدت كحفل لطيف هادئ يجمع الأمهات والمعلمات والأطفال المتناثرين بأنحاء المكان..

عكر صفو الجو اللطيف تأخر جولي عن الحضور بالموعد المحدد وقد تكاثرت أسئلة

الأمهات عنها وتبعثر أطفال صفها بالمكان بلا قائدة تجمعهم ليستعدوا كما كل الفصول بدأت تستعد لأداء الفقرات فوق مسرح صغير تم تجهيزه بجانب الساحة..

كان المسرح المزين على بساطته مع نسمات الهواء الجميلة والسماء الزرقاء الصافية سقفه يبدو مبهجا للغاية..

اقتربت ليلى مني بتوتر يبدو عليها لأول مرة الليلة فاقتربت منها أشد من عزيمتها:

- ليلى أدائك ممتاز مع الأمهات.. لم يبق الكثير..

قالت بانزعاج:

- جولي تأخرت للغاية..

انتهى وقت محادثتي مع الأمهات وحان وقت الفقرات وفقرتها الأولى!

تداركت سبب انزعاجها وأخرجت هاتفي مبتعدة بعد أن أشرت لها أني سأتصرف تاركة إياها وقد تجمع حولها بعض الأمهات تمتلكن مزيدا من الأسئلة والاستفهامات وليلى منغمسة معهن تحاول تقريب وجهات النظر في حوار راق مهذب..

كان رنين هاتفي على رقم جولي يتكرر مرة بعد مرة حتى كدت أيأس أن ترد لكنها أجابت أخيرا:

- جميلة!.. أهلا بك..

قلت بلهفة كلمة واحدة فلا وقت لتبادل أطراف الحديث:

- تأخرت!

قالت مستدركة بسرعة:

- أنا على البوابة بالفعل!

أغلقت الخط وأنا ألمحها تعبر البوابة مشيرة لي بكفها متجهة للداخل لغرفة المعلمات فلحقت بها لأتعجل خروجها..

كانت تقف مولية ظهرها لي تخلع ملابس الخروج وتعلقها لتظهر بزيها الذي ستقابل به الجمع بالداخل..

وتعدل مكياجها بشكل سريع..

التفتت إليّ قائلة بعدما انتهت:

- هيا بِنَا..

لكنني كنت متسمرة مكاني فاتحة فمي ببلاهة وقد تعلقت عيناي بردائها إن صح وصفه بالرداء..

قلبت نظري من رأسها لقدميها مدركة الكارثة!

لمحت ليلى القادمة بسرعة من الخارج تتعجلنا

فأغمضت عيني رافضة أن أرى الصدمة على

وجهها لكن صرختها وصلتني جيدا:

- جولي ما هذا؟!

كانت ترمق جولي التي ارتدت فستانا التصق بجسدها حتى لكأنك تتسائلي كيف وضعت جسدها بداخله دون أن يتمزق؟!

مع فتحه علوية تبرز مفاتنها بشكل مبتذل، وقد توقف طوله عند أعلى فخذيها ببساطة..

كان يبدو كفستان فتاة ليل بامتياز ساعد ذلك الشعور مساحيق الوجه المبالغ بها على وجهها وشعرها المصفف وكأنها في طريقها لحفل زفاف بلا شك!

تنفست ليلى منشدة قليل من الصبر أمام رد جولي المعاند:

- أستاذة إلهام لم تحدد شروطا لملابس الحضور

رفعت وجهها لتجابه ليلى بقسوة:

- وللعلم أنت لست مديرتي..

لم يكن وقتا لائقا للتجادل فقالت ليلى بصوت حرصت أن يكون رفيق:

- لا يا جولي لست مديرتك.. لكن حسبتك تعلمين أننا بروضة أطفال.. أنت حقا جميلة للغاية..

لكن ليس هذا المكان المناسب لهذه الملابس وحسبتك تعلمت هذا الدرس مثلي من أستاذة لينة..

كأنني لمحت شيئا من عتاب بينهما عالقا بالأجواء..

جولي بإصرارها على التحرر من كل شيء للحصول على أقصى منفعة من الفوضى كارهة أن سبقتها ليلى بمنصب مستشارة، وليلى بحزنها

من محاولة جولي لتفشيلها وهدم كل الأسس والقوانين المعروفة قبلا..

كأن رابطة الزمالة بينهن شابها شيء مع الظروف الحالية..

خرجت ليلى وقد انحنى ظهرها بحمل المسؤولية كبيرة فرضت عليها بالأمر الواقع وخرجت خلفها لا أدري بما أخفف عنها!

الجميع فجأة يتدلل بل يعاندون كأنهم صاروا صغارا!

وعليها أن تمتثل الصبر محاولة إنهاء الموقف ولدفع بالسفينة لترسو على بر الأمان..

* * *

بدأت عروض الصفوف صف وراء الآخر..

عرض بعد عرض..

لكل مجموعة من الأطفال نكهتهم الخاصة..

كان التنافس شديدا بين أطفال صف ليلى وأطفال صف جولي..

كانت ليلى قد اختارت خمس أطفال موهوبين كل يعرض موهبته..

بينما جولي اختارت عشرة أطفال يؤدون معا رقصة وأغنية..

بغض النظر أنني كنت أرى أن كلمات الأغنية لا تناسب عمرهم أبدا ولا بعض الحركات الراقصة التي لا تناسب براءتهم لكنهم كانوا منظمين للغاية يؤدون كمحترفين..

صفقت الأمهات لهن طويلا..

كنت أنتظر مع الجمع صعود الصف التالي لكن صداعا قويا أحكم قبضته على رأسي..

كنت أشعر به منذ استيقظت لكنني آثرت التحمل على تناول الدواء رفقا بجنيني..
لكنني الآن أدركت خطأي!
الضجيج من حولي وكثرة الأصوات بدت كمطرقة تقرع رأسي بلا هوادة..
اتجهت للداخل محاولة العثور على كوب ماء أبتلع به حبة مسكّن تعينني على تحمل ما بقى من يومي..
تأكدت من أفكار من موعد صفي فأكدت أنه يحين دوره بعد صفين تقريبا، وأفهمتها أنني بحاجة للحظات فأومأت أن لا بأس ووقفت مع المساعدة لضمان أمان الأطفال ريثما أعود..
وقفت أنظر إليها..
تلك الحبة الصغيرة التي صرت أسيرة لها في

كثير من الأوقات..

مع رشفة ماء ودعوة بالشفاء مع التسمية باسم الله ابتلعتها..

بمقابلتي كانت أستاذة إلهام!

متى جاءت؟!

- لماذا أنت هنا وتلاميذك بالخارج؟!

برجاء التعلم لقليل من النظام وقواعد العمل!

ألقت كلماتها بوجهي وانصرفت ترتعد من الغضب..

بعض الناس وجودها يصعب الوضع كثيرا!

وكأنها هي بحد ذاتها عقبة وجهد عليك تحمله فوق أعبائك والتحايل حولها للمرور واستكمال الطريق!

وكأنني سبب مشكلات الْيَوْمَ كله!

خرجت عائدة لأطفالي ألملم أذيال التماسك ولكن وجه أفكار كان يشي بالكثير..

سلمتني الأطفال متعجلة وانصرفت قائلة باضطراب:

- لا وقت للشرح دورك على المسرح!

أومأت لها موافقة ورحت أجمع صغاري حولي كل معلمة أشركت مجموعة من الأطفال أو بعض الموهوبين لكنني اخترت أن يشترك الجميع! لماذا تعطى الفرصة فقط للطفل الموهوب الفصيح خفيف الدم؟!

من حق كل الأطفال أن يتعلموا من التجربة وينضجوا بها كانت هذه وجهه نظري..

مع الإشارة صعدت للمسرح مع أطفالي أعطيتهم حضنا جماعيا يبث الثقة في قلوبهم الصغيرة

كأفئدة الطير تنبض الآن بالتوتر ربما وبعضها بالحماس..

طلبت منهم أن يركزوا بعيني أنا ولا يقلقوا لو أخطأوا..

نزلت بعدما رتبتهم على المسرح..

بعضهم يغني في مكبر الصوت ثم يعطيه للذي يليه وهكذا والبعض الآخر حولهم في ترديد جماعي بينما آدم يقوم بما يبرع به!

أداء حركات معبرة لطيفة خاصة بكل أنشودة وتجرأ البعض منهم ليسايره مقلدا..

كنت أراقبهم بفرحة عارمة أودّ لو أشير لكل من حولي هاتفة بفخر هؤلاء أطفالي رغم أنهم يعلمون..

على بساطتها أثرت مشاركة كل الأطفال الفقرة

فبدت مختلفة..

انتهت الفقرة فارتفعت عاصفة من التصفيق لهذا الأداء الطفولي المنظم ..

أقبلت ليلى تحتضنني مهنئة بروح الصديقة ..

ثم قالت وقد تذكرت أني أخبرتها أنني مريضة:

هل أنت بخير؟!

بفخر قلت لها : أنا الآن بأفضل حال..

بعض الألم رغم أنه سكن حنايانا بسبب عضوي مرضي لكن قليل من الفرح والسعادة يلقيه خارج أسوار العقل فيندثر كأننا لا نشعر به فأرواحنا تحلق بين سعادة تطمس كل ما سواها

واقفة أنا الآن بين أطفالي الفرحين الفخورين بأنفسهم يغمروني بأحضانهم وكلماتهم الفرحة كنوع من الشكر تشاركهن أمهاتهن بسعادة..

نعم.. بفضل الله وبعد ما يقارب نصف عام دراسي استطعت أن أقدم صورة مختلفة للأمهات عن جميلة معلمة حبات السكر!

انتهى اللقاء أخيرا..

وانفض الجمع..

وقفت أوقع قبل انصرافي بدفتر الحضور والانصراف مع أفكار كانت تبدو مرهقة للغاية

همست لها بتوجس:

- لم تحك لي ما حدث ما الأمر؟

قالت:

- جولي تشاجرت مع حلا وحين تدخلت ليلى غضبت أكثر وارتدت ملابسها وانصرفت تاركة الأمهات والأطفال!

قلت لها بدهشة:

- هل كل هذه الفضائح كانت بث مباشر أمام الأمهات؟!

قالت مطمئنة:

- لا احتوينا الأمر وأخذناهم للداخل وبلغنا الأمهات أن جولي انصرفت لأمر طارئ..

وفور أن سلمتك أطفالك بقيت مع أطفال جولي لموعد الانصراف..

كنت أحاول تخيل الموقف، كل هذا جرى في دقائق قليلة غبت فيها؟!

هل لهذا كانت أستاذة إلهام غاضبة للغاية؟!

كل شيء كان يوضح لأي حد وصلنا من الفوضى!

في سفينة صارت بلا ربان..

فريق صار بلا قائد..

فضاعت وطمست كل القوانين أو سبحت مع تيار الأهواء..

تتخبط مركب قسمنا هنا وهناك ولا ندري هل سترسو بأمان أم تتحطم على صخرة الفوضى؟!

الفصل الثاني عشر

فوضى!

"ما وراء الألم إما أن ينبت شوكا فيدمي، وإما أن ينبت زهرا فيدوي، فاختر لنفسك أي النتائج تريد.."

أحمد صلاح

كان قد بقي أياما معدودة على إجازة نصف العام

ومازالت أستاذة لينة لم تعد بعد من سفرها..

وليلى تحمل مسؤوليتها حتى حين!

حلا لا تحادث جولي وجولي لا تحادث حلا..

باقي المعلمات انقسموا لقسم يؤيد حلا..

وقسم يؤيد جولي!

بقيت ليلى على الحياد قدر المستطاع، ولكن بدا عليها أنها صارت أكثر رسمية مع الجميع حرصا

على سير العمل..

كثير ما تجمعها اجتماعات منفردة مع أستاذة إلهام والإدارية أفكار محاولة شرح كيف يسير العمل بالقسم لها والوقوف على المشكلات وحلها لتعود بعدها لصفها حاملة مسؤوليته كمعلمة..

استطاعت أن توازن بين مسؤوليتها الإدارية والصفية بمهارة قل من يدركها!

لكنها لم تستطع الحفاظ على علاقاتها مع المعلمات حولها..

بين من أكلت قلبها الغيرة منها ومن تراها تتقلد منصب لا تستحقه وبين من لا تتقبل تلقي الأوامر منها..

صارت كل الأوامر تصدر باسم أستاذة إلهام بعدما تستشير فيها ليلى..

نعم كنّا نحاول الدفع بمركب قسمنا الرائع سابقا المتعثر حاليا لبر الأمان في حالة تأهب وطوارئ داعين الله كل يوم أن يمر على خير هذا الْيَوْمَ.. يمر وقد حللنا مشكلة ما ولَم نضف مزيد من التعقيدات والمشاكل للقسم..

لكن كل شيء تغير لا أنكر..

منذ أن تطأ قدمك القسم تدرك ذلك ببساطة حتى زهرات الساحة لم تعد مبتسمة! فجرى تبديلها ببعض النجيل الاصطناعي!

المعلمات صرن يلبسن كل شكل ولون من الملابس..

فهذه ترتدي ملابس كاجوال وتلك تؤثر فستانا كلاسيكيا والأخرى ترتدي الجينز!

كالشوارع تماما كل أنواع الملابس موجودة

يصاحبها الاكسسوارات بمختلف أذواق مرتديها وكذلك طلاء الأظافر الفاقع اللون أو المزركش مع أظافر صار معتاد أن تطول بعدما كان ممنوعا لسلامة الأطفال!

أما مساحيق التجميل فلن أتحدث عنها على كل نمط ولون!

هل هذا قسمنا حقا؟!

من هُن هؤلاء المتحولات؟!

كنت أتعرف بعض المعلمات بصعوبة بعد تغير كل تفاصيل الزِّي والمظهر..

لكن على أي حال انتهى المنهج الدراسي وهذا ما جعل ليلى تزفر براحة..

فقط أيام تمر بهدوء قدر الإمكان وتبدأ أجازة تحتاجها بشدة..

فرصة وهدنة ليزيح الجميع العبء من على أكتافهم لبعض الوقت!

طرقت باب الغرفة التي صارت مخصصة لليلى وقت راحتها لتنجز أعمالها الإدارية وقد أعددت لها كوبا من مشروبها معي..

كانت غارقة بين تفاصيل مختلفة وملفات متعددة وضعتها أمامها وانصرفت أفكار فابتسمت ابتسامة الطفل الفرحة بملابس العيد حين لمحتني أدلف بالكوبين يتصاعد منهم الأبخرة

قامت مرحبة:

- بيوتيفول!

قلت لها بحاجب واحد مرفوع:

- لدي مزيد من الشطائر منزلية الصنع تكفي كلينا أيضا..

ما بين رشفات المشروب وقضمات لذيذة يحلو للحوار أن يدور..

عادت ليلى لملفاتها والحاسوب أمامها محاولة إنجاز ما يمكن في وقت الاستراحة المتبقي قائلة بتلذذ:

- وجبة شهية جدا، ووصلت بوقتها

حاولت مساعدتها وترتيب الملفات معها لكن ريحا عاصفة اقتحمت المكتب فجأة كانت أستاذة إلهام بكل علامات غضبها الظاهرة أمامي تقرع بكعب حذائها الأرض بحدة تزيد انزعاجي قائلة:

- أرى أنك تضيعين وقت ليلى الثمين..

حاولت فتح شفتي للرد لكنها أكملت بكبر:

- انصرفي لغرفة المعلمات أستاذة جميلة ..

مضيفة بصلف آمر:

- حالا!

لم أشعر بما جرى بعدها..

كنت قد استكفيت من كل ما يجري وامتلأ كوب غضبي لحافته ففاض!

- هل تصدقين نفسك أنك المسؤولة هنا؟!

كفى هراء!

أفيقي سيدتي فقد تعبنا!

تعبنا ونحن نهدهد مدللة أستاذ سعيد

بينما ننهك أرواحنا حتى لا يظهر ذلك جليا للأهل!

حتى لا يتخبط كل شيء في هذا القسم الذي صار لعبة في يدك!

كفى

كفى كفى!

كانت عينا حلا متسعتين بصدمة خلف أستاذة إلهام وقد جذبتها الضجة سببا لتوقفي فجأة..

أحصي كلمات كالحجارة رميتها!

أفقت للواقع..

نظرت لها بارتياع ماذا فعلت؟!

يا إلهي!

كانت تلملم جرح كرامتها المهانة وذاتها المسكوبة..

كنت قاسية معها للغاية!

هذا ما تمتمت به خارجة بعيدا عن عيني حلا وليلى..

مضت ليلى خلفها تحاول معالجة الأمر..

بينما تبعتني حلا تحاول فهم ما جرى..

في غرفة المعلمات كانت الورقة بانتظاري كما

العادة..

صفراء باهتة بأطراف برتقالية كورقة شجر تعبث بها رياح الخريف بعدما سقطت بوهن عن شجرتها..

من بين عيني المشوشتين بالدموع رأيت كلماتها المصفوفة..

هل تعلمين يا صديقتي!

كل ما حولي كان فوضى!

أشياء تتناثر حولي بجنون!

أجزاء من أشياء متفرقة تتجمع حينا وتختلف حينا..

كنت أشعر بتشوش مبهم..

هي فوضى بلا شك لا أدري إن كانت خلاقة أم أنها فوضى بلا أي صفات حميدة!

* * *

عدت للمنزل مثقلة للغاية بهمي..

فكما الأشياء المفرحة تخفف عن كاهلنا فنشعر أننا بأفضل حال ..

فإن الصدامات والحزن تضفي ثقلا لروحنا المثقلة أصلا فتزيد الطين بلة جالبة معها كل أنواع الألم..

عدت وشمسي للمنزل أوصلتنا ليلى بطريقها متجنبة التحدث في الأمر تاركة لي الوقت قبل مناقشة ما جرى..

أنا زدت ضربة معول في قارب مسؤولياتها المترنح أصلا!

كنت كالدب الذي قتل صاحبه!

فتحت باب شقتي ويبدو كأنني فتحت باب الألم معه..

ألم يغزو عظامي وجسدي بقوة..

كالعادة شريف بالعمل كما صار يحدث دائما مؤخرا..

سيعود في المساء يطمئن عليّ وعلي الصغيرة ببضع كلمات ثم يغوص في بحر النوم عميقا خلال دقائق ربما قبل حتى أن أكمل كلماتي!

تناولت وشمسي الطعام مع مقعد خال بمواجهتي حاولت أن أعتاده لكنه مازال غصة أتناولها مرغمة مع طعامي يوميا في الفترة الأخيرة..

بعد الطعام لبيت دعوة النوم شاكرة وكذلك فعلت شمس بعد مجهود يوم طويل..

أفقت بعد وقت ليس قليل فقد بدا خارج النافذة

مظلما!

كانت ثمة خشخشة خارج الغرفة..

التفت لسرير شمس فوجدته فارغا..

قمت أترنح أحاول التوازن وبقايا نوم عالقة بأهدابي لكنها تلاشت فجأة بخروجي من الغرفة ومشاهدة ما قابلني!

كانت رسومات شريف الهندسية مبعثرة في الصالة والغرفة بعضها مقطع أو مبلل فيما يبدو وضعته شمس بفمها تتذوقه!

بعض الأدوات الهندسية مكسرة!

أو ملقاه بإهمال..

مشيت أتتبع الكارثة ألملم ما يواجهني محاولة عبثا إصلاحه قدر الإمكان..

الآن صار باب الغرفة مقابلي وصوت شمس

تدندن أغنية طفولية..

لمحتني فبدأت تضحك وتشير لي بكفها الصغير لآتي وأشاركها اللعب..

اقتربت من المكتب واضعة حصيلة الكوارث بين كفي عليه..

وانحنيت أمام عينيها الشغوفتين بما تصنع..

ما هذا على كفها؟!

يا إلهي قطرات من الدماء!

يبدو أنها جرحت نفسها أيضا..

حملتها وجريت تجاه الصنبور آخذه ما بيدها ألقيه أرضا غامرة كفها بالماء الجاري..

بكت الصغيرة بألم كأنها لم تشعر بالجرح إلا الآن!

لففتها بمنشفة وجلست على الأريكة يغزو الندم

والألم كل خلايا جسدي..

هل صرت فاشلة لهذا الحد؟!

تصحو الصغيرة وربما تؤذي نفسها ولا أشعر بما حولي؟!

يبدو لي أنها احتاجت وقتا طويلا لرحلتها التخريبية تلك!

فاض الدمع من عيوني حاملا معه حزنا فاض ولَم يعد كتمه ممكنا..

- هل أنتم بخير؟!

كان هذا شريف الذي على ما يبدو دخل توا بينما أنا ذاهلة لا أعي ما حولي..

لمح المنشفة وقطرات الدماء عليها فحمل شمس هلعا..

قلت أحاول توضيح الأمر لئلا يقلق وقد بدأت

ألملم ذاتي:

- هي بخير لا تقلق.. جرح بسيط فقط..

لم أسمع أي جواب..

بدا مصدوما بشكل كلي..

سلمني الصغيرة وانصرف في طريقه ليبدل ملابسه..

سار بضعه خطوات مطرق الرأس لكن النور القادم من غرفته لفت نظره..

لم أكن أملك ما أبرر به ما حدث فصمت أراقبه..

اتجه للغرفة مسرعا فاتسعت عيناه بهلع وهو يرمق كومة الأوراق على المكتب..

راح يقلب فيها منزعجا ثم خرج يواجهني بوجه محتقن زاعقا:

- هذا كثير!

سار بضعة خطوات إليّ صارخا:

- جميلة! تحملت كثيرا في الفترة السابقة لكن هذا إهمال لا يغتفر!

أنا أعمل ليل نهار حاملا مسئوليات ثقيلة لأعود يوما بعد عمل دام ما يقارب الشهر تعب فيهم جسدي وعقلي وعيناي لأجد ما أتممت هباءً منثورا لأن جميلة لم تهتم ولَم تنتبه..

كان صوته عاليا فبدأت الصغيرة تبكي وتصرخ

كان كابوسا نعم..

كان كل ما حولي يدور أنتظر أن يوقظني أحدهم لكنه للأسف كان كابوسا واقعيا هذا ما أدركته بعد وهلة حينما التقط سلسلة مفاتيحه وانصرف مغلقا الباب خلفه بعنف أصدر دويا مزعجا..

الْيَوْمَ صار كل ما حولي مجرد كابوس

فوضى عارمة..

بالعمل وبالمنزل..

فوضى بدأت بالأساس بين خلايا جسدي فصرت أقاوم مستعينة بجمال الحياة لأصمد..

لكنني الآن لا أملك أي مقاومة أمام طوفان اكتسح كل شيء لأعود أمام ثقبي الأسود..

لكنه صار كبيرا هادرا يهدد بابتلاع كل شيء..

يهدر حوالي عابثا بأماني وأمان كل ما حولي..

كانت دقات هاتفي بتلك اللحظة بوابة عودتي للواقع من أفكاري المجنونة القاتمة..

وكان رقم أحن الناس ومن أحتاجها الآن فقد كانت أمي..

فتحت الخط فداعب أذني صوتها:

- السلام عليكم يا حبيبتي..

ازدرت ريقي محاولة أن يبدو صوتي طبيعيا عبر الأثير:

- وعليكم السلام يا غالية..

كيف حالك أمي؟!

- جميلة ماذا بك؟!

هل يمكن أن تخفي شيئا عن قلب الأم ولو بعدت لأبعد نقطة بالكرة الأرضية؟!

كنت الآن متأكدة أن الإجابة لا!

لكنني حاولت المماطلة قائلة:

- أنا بخير فقط استيقظت للتو مع بعض متاعب الحمل أنت تعرفين!

ضحكت محاولة طمأنة قلبها مفصحة عن مفاجأتها بفرحة:

- تحدد زفاف أخيك أخيرا بعد أيام..

أكملت بحنان:

- ربما هي أجمل فرصة لنراك ونطمئن عليك

لا تدري أمي ماذا فعلت بكلماتها الحنونة والعفوية ومع ما أشعر به من ضغوط أكبر من احتمالي وجدت عقلي يرسم طريقا للخلاص أو للهروب لا فارق!

نعم المهم أن أخرج من تلك المتاهة التي صارت تحاصرني..

أعود بيت أهلي؟!

أعود جميلة فراشة البيت!

حيث لا مدرسة بمشكلاتها وتعقيداتها التي صارت ضغطا وعبئا بلا حلول تلوح في الأفق عن مرضي الذي ربما أتناساه هناك!

ربما يتوه الثقب الأسود فلا يجدني!

ربما يساعد تدليل أمي واهتمام أبي أن أَجِد بعض الراحة التي هجرتني منذ وقت ليس بالقصير..

ربما تجد شمس من يهتم بها قبل أن تؤذى بسببي كما الْيَوْمَ!

فقط هدنة فقد أستطيع بعدها ترتيب تلك الفوضى..

قد أرى المخرج لو ابتعدت قليلا..

سمعت صوت مفتاح شريف يدور بالباب برفق دلف ينظر إليّ بإرهاق وحزن..

فتح شفتيه ربما نوى أن يقول بعض كلمات ملطفا للأجواء..

وربما أراد أن يشرح وجهه نظره فيما جرى..

لكنني لم أكن أملك الطاقة لسماع أي شيء..

ماذا سأسمع بعد ساعات تغيبه الطويلة حتى كأنه

لم يعد يعيش معنا..

عصبيته بالآونة الأخيرة..

انهماكه طول الوقت بعمل ومكالمات ونقاشات تبدو معقدة رافضا الإفصاح ماذا يجري رغم تكرار سؤالي..

نعم كنّا قد ابتعدنا..

صار كل منا يعيش بعالمه وهمومه ولا نلتقي إلا نادرا لنمثل أن كل شيء بخير..

حسنا متأخرا جدا حديثك يا عزيزي!

لن أسمعه!

كان هذا صوت عقلي الذي أغلقت عليه شفتاي لكنني أفرجتهما عن حديث آخر يبدو كآخر حل وآخر ضوء في هذا الممر المظلم:

- فرح أخي بعد أيام..

أريد أَن أرحل في الصباح من فضلك..

هل شحب وجهه واختلجت عيناه أم أنه يخيل إليّ؟!

تشوشت عيناي بالدموع التي طالما كرهت أن يراها فهربت لغرفتي فاتحة شنطة سفري أضع بها ما تطاله يداي من ملابسي وملابس شمس معلنة أن قراري نهائيا مدعية قوة لا أملك منها ذرة!

كان يقف بحلق الباب هامسا:

- لا بأس.. أوصلكم بالصباح!

لكنني آسف لن أستطيع الحضور معكم لأن..

أشرت له أن لا يكمل مكملة بصوت خفيض مرتعش:

- لا أريد أن أعرف أصلا..

هل كان انتقاما من طول كتمان أرهقني لليال طويلة ؟!

ربما! لم أعد أهتم أصلا فقط أريد أن أعود

* * *

في الصباح أوصلني شريف للقطار المكيف وحدي بصحبة شمس وحقيبة كبيرة لأول مرة..

قطع تذكرتين وساعدنا لنجلس..

لم يتكلم وكأنما فهم أنه وقت الصمت والتزمت أنا به كذلك..

فقط نسمات الصباح الباردة التي استشعرت بردها بين عظامي كورقة في مهب الرياح وحدها مثلي!

كان ينظر إليّ عبر واقفا على الرصيف بعينين تقولان الكثير وفم مغلق..

بينما بادلته النظرات بعينين زجاجيتين فارغتين لأول مرة في حياتي..

كتمثالي شمع بئيسين للغاية بين حركات من حولنا النشطة وصوت شمس بكلمات مبعثرة كخلفية تشي بأي هوة سقطنا وأسقطناها معنا!

الفصل الثالث عشر

العودة للماضي

استيقظت لأجدني في غرفتي أشتم رائحة طهو أمي الشهية، أسمع صوت أبي وأخي بالردهة يتحدثان بصوت خفيض تارة وتتصاعد أصواتهم تارة في حوار عائلي مميز التفاصيل..

كأنني عدت للخلف سنوات كثيرة حيثما كنت في صغيري فتحت عيني وأنا أحسب أني حين أرى وجهي بالمرآة سيزينها ذيلي الحصان على جانبي رأسي وغرة متطايرة تزين جانبي وجهي..

عيناي اللامعتان..

وابتسامتي الشغوفة..

نهضت يطاردني هذا الخاطر واجهت نفسي بالمرآة لأجدني كما أنا بوجهي الذي تركته أمس

على سطح المرآة قبل نومي!

بلا ذيلي حصان!

بل حتى عيني اختلفتا!

لم تعودا تلك العينين البراقتين بآلاف نجمات الأمنيات اللاتي كنت واثقة من تحقيقهن جميعا!

نعم تملك الفتيات أفكارا وردية عن الحياة حقا!

لكن الواقع يملك قلما أكثر اعتدالا مختارا لونا آخر..

أغمضت عيني بمرارة..

نعم الزمن لا يعود للوراء أبدا!

رغم كل البهجة في قلبي للقاء أهلي لكن بقيت وخزة تنتابني كلما مر وجه شريف وقت ودعنا بابتسامته الحزينة..

بقيت كل متعة منقوصة بدونه!

نعم الزمن لا يعود للخلف يا عزيزتي جميلة!

أنت هربت وابتعدت لكنه بقى بقلبك وعقلك طوال الوقت موجود بمكانه الخاص كما كان دائما وإن طغت سحب الخلافات مزمجرة في سماء علاقتكما!

مددت أناملي تداعب شاشة هاتفي ترى هل أتصل؟!

وماذا يجب أن أقول؟!

تناثرت الكلمات بفضاء عقلي مبعثرة..

أحاول جمعها لكنها تأبى إلا الشتات..

زفرت بانزعاج متراجعة..

لا يصلح الهاتف للعتاب..

ربما يجب أن ننتظر حتى نلتقي..

وجها لوجه يكون للكلام معنى..

لكل كلمة نظرة وربما حركة يد أو تعبيرات وجه تضيف إليها صبغتها الخاصة..

أما هذا الجهاز البارد فلا ينقل إلا الكلمة مفردة دون أي رتوش..

تململت شمس تبكي قلقة فألهتني عن أفكاري كلها مقتربة منها بحنو..

تلك الصغيرة لا تنفك منزعجة منذ وصلنا مما يقارب يوم كامل!

زفرت ببؤس وأنا أحمل صغيرتي التي هدأت ونامت بعد وقت ليس قصير أبدا، أهدهدها وأقرأ لها بعض آيات القرآن..

بينما أشعر بالحنين للمكان..

بالحنين لكل تفاصيل عشتها فيه لما يزيد عن عشرين عاما..

تعيش ابنتي الطريق المعاكس في رحلة التأقلم عليه كمكان إقامة لم تعتده أبدا!

رميت كل أحمال التفكير العميق عن كتفي وأحطها بذراعي كاعتذار أن فضلت راحتي على راحتها..

وبيتي على ما تحسبه بيتها!

ما هذه التخاريف!

يبدو أن هرمونات الحمل تتلاعب بعقلي راسمة ساحة من التراجيديا لا بأس بها أبدا!

كان ضوء هاتفي الصامت يعلن وصول اتصال مزدانا باسم ليلى رددت خافضة صوتي:

- السلام عليكم..

كيف حالك ليلى؟ اشتقت لك!

ردت بغضب هادر:

- على من تكذبين يا حجرية القلب!

سافرتِ!

سافرتِ دون إخباري؟!

ثم تابعت بيأس:

- تركتني وأنا كنت أحتاجك فأهل سامح سيحضرون قريبا وأنا تائهة!

أحتاج أختي الكبرى لكنها تجاهلت الأمر ببساطة..

رفعت كفي لوجهي متفاجئة:

- حقا! صدقيني كنت مضطرة ولَم أحسب أن الأمر قريبا جدا هكذا!

قالت بسخرية:

- قريبا جدا؟!

يا غالية هذا العريس لا أذكر رقم كم!

اقتربت أمي أن تضع اسمي بإعلانات مبوّبة!

لا تحرجيني أكثر من ذلك!

ضحكت أخيرا بعفوية مردفة:

- حسنا وسائل التواصل لم تترك مشكلة!

أنا معك الأربع وعشرون ساعة بأي استشارة!

ثم أكملت بمكر:

- ثم تعالي أخبريني!

أنت مهتمة هذه المرة على غير العادة؟!

صوتك مختلف ولا أَجِد روح الكآبة التي ترافق مثل هذا الحدث الجليل معك..

بحياء وصلني عبر الأثير فأرتجف له قلبي:

- نعم مختلف!

كدت أتساءل ما هو المختلف؟

هل هو الشخص المتقدم أم أنها تعني تقبلها لفكرة

لقاء الخاطب وأهله أخيرا!

ترددت أصوغ الكلمات برقة لئلا تجرحها..

ولكن قبل أن أنطق بها يبدو أنها وصلتها من صمتي فأكملت دون أن أسألها مدافعة عن نفسها:

- صدقيني لم أتحدث له قبل مجيئه لبيتنا سوى كلمات بسيطة كلما تصادف أمر يدعو لذلك!

لكنه حضر الأسبوع الماضي وحده مع أبي للمنزل لحديث بينهما بخصوص العمل واستأذنه أن يحدثني على انفراد دقائق ووافق أبي..

أخبرني أنه اختارني لأنه استشعر قبولا مبدأيا تجاهي قبل أي معلومات عني حين حضرت أول مرة للصيدلية بوجوده..

هل تعلمين لقد قال أنه سمع أبي مرة يتحدث مع أمي بالهاتف عن خاطب لي أخو صديقتك وتمنى

لو لم يتم القبول حتى يكون له النصيب إذا تقدم بعده..

قال لي أيضا أنه يطلب رأيي شخصيا قبل أن يتقدم رسميا لأنه يهمه ولا يريد أن أقع تحت أي ضغط أو احراج من أهلي..

قال أن العمر رقم ومازلت أخطو أول سنوات شبابي برأيه..

نعم كانت كلماته بردا وسلاما على كل هواجسي ففررت للداخل مبتسمة بحياء حدد بعده موعدا مع أبي!

كانت تتكلم بأنفاس مبهورة متسارعة تحكي كيف يسري الحب في العروق لأول مرة تحت مظلة الحلال..

دعوت لها بالتوفيق وهمست ببعض نصائح على

وعد بالتواصل إن احتاجت أي شيء..

من فتحه الباب أطلت أختي الأكبر هدى تشير لي أن أخرج إن كانت الصغيرة نامت..

كان شكلها مضحكا وهي تشير إشارات عدة بلغة غير مفهومه حرصا ألا تستيقظ شمس نحن الأمهات نملك مهارات غريبة للتواصل!

نهضت برفق على أطراف أصابعي وعلى الطاولة في الردهة كانت العائلة مجتمعة بانتظاري لتناول فطور خفيف..

فطور كنت أنا من أعده سابقا مع هدى قبل أن نتزوج..

بعد ٢٤ ساعة اكتشفت الأمر

كان الوضع مختلفا!

كل التفاصيل تغيرت

كلا بقيت كل كل التفاصيل

عدا شيء واحد

اختفيت منها أنا ببساطة!

كأنني شيء لا مرئي رغم مرور كل التفاصيل نفسها كما تركتها ورائي منذ أعوام..

تستيقظ أمي بنفس الموعد تدخل لمطبخها بعد الصلاة تؤنسها آيات الذكر الحكيم المنبعثة بصوت رخيم..

كانت تقف كما وقفت منذ أعوام طفولتي وصباي وإن ظهرت على وجهها تجاعيد تشي بتقدم العمر.. لكنني لم أكن ألهو حولها كما كنت في طفولتي!

ولَم أكن على يمينها أساعدها كما كنت في صباي وقبل زواجي!

أبي يجالس أخي مع أحاديث الصباح التي كنت بطلتها بلا منازع!

تهتز جدران البيت بضحكات أبي الصاخبة على كلماتنا أنا وأختي ومناغشاتنا بينما كان هذا الشاب الذي أمامه طفلا يتعثر في خطواته الأولى حولنا!

هل هو نوع من عقابنا نحن المغتربون أننا تركناهم؟!

أم كان أمرا تلقائيا بعد أن مروا بمرحلة الألم لغيابنا لفترة!

ولكن يجب أن تمر الحياة بكل تفاصيلها بدوننا معظم الوقت..

تحت نظرية المؤامرة هززت رأسي بسخرية مريرة..

لململت الأطباق مع أختي وأمي وأنا أطرد تلك

الأفكار الكئيبة والتي لا أدري من أين هبطت على رأسي في تلك الساعة!

كان رنين هاتفي فرصة لأهرب منها إليه..

كان شريف..

كنت أتجنب الحديث إليه..

منزعجة أنا مما جرى..

لا أحري جوابا لأول مرة!

حتى متى؟!

وبدا صوت أختي من الردهة تهتف:

- الشاي سيبرد يا جميلة..

ثم أردفت أمي بمكر:

- لا بأس.. فيبدو أنها مشغولة للغاية!

خرجت إليهن ضاحكة لقد صرت فاكهة الحديث على ما يبدو..

ومع أكواب الشاي الساخنة كان فكري يسرح بعيدا..

في عالمي الخاص!

أضع خطتي في البحث عن هذا الرابض بداخلي..

خطة مكثفة عند كل طبيب خبير يصلح لتلك المهمة الصعبة بالتنقيب معي بداخلي!

أشحذ قوتي وألملم صمودي..

مستعينة ببعض المسكنات إذا لزم الأمر فلا أملك غيرها حلا حاليا!

بعض الرياضات الخفيفة..

كمحاربة لا يشق لها غبار أرسم خريطة نجاتي من هذا العدو..

في حياة سرية..

تخصني وحدي..

لا يجوز الحديث عنها فهذا يفتح نوافذ الوهن..

بل تبقى طَي الكتمان..

كفيلم رعب يرفع الأدرينالين معطيا إياي متعة المثابرة..

كلعبة صعبة لا يجرؤ عليها كثيرون..

كأفعوانية خطيرة تخفق لها القلوب..

فجائزة الصبر جزيلة

وأنا لها!

قطع صوت أمي حبل تفكيري المتهالك قائلة بحزن:

- صحتك لا تعجبني يا جميلة!

ما كل هذا الوهن؟!

ثم أضافت مهاجمة إياي:

- بالتأكيد أهملتِ ولَم تتابعي جيدا مع طبيبة!

رددت أدفع تهمة الإهمال عن نفسي وداخلي صوت يصرخ لو تعلمين كم طبيبا زرت يا أمي!!
لكن ما خرج من بين شفتي كان مختلفا:
- سأزور بعض الأطباء هنا يا أمي..
أنا حقا أشعر أنني لست بخير أبدا..
ولَم أَجِد من الأطباء من يملك الخبرة بتلك المدينة التي أسكنها لكن هنا يكون الأمر أفضل بأمر الله..
جذبتني أمي إليها واضعة رأسي بحجرها قائلة:
- دعيني أرقيك يا جميلتي عسى الله يعفو عنك..
بينما وثبت أختي محضرة هاتفها مؤكدة كم تملك من أرقام الأطباء ذوي الخبرة وستحجز لي موعدا عندهم لنذهب سويا غدا بينما يمكث الأطفال عند أمي..
شيء من الشفاء سرى بجسدي بمجرد اهتمامهن

هذا!

وأي شيء غير الشفاء يكون شعور الراحة هذا برمي أحمالك كلها على من تثق فيه بعد الله عز وجل..

شعور غمرني ورسم سعادة واضحة على وجهي فرحت لها أمي وتشربت ملامحها بها..

طرقات على باب الشقة بعثرت هذا الجو الأُسَري الدافئ..

فنهضت أختي تفتح الباب متسائلة عن القادم..

كانت السيدة نيفين هذا ما فهمته حين رأيتها تدخل بصحبة أختي مبتسمة تختار كرسيها بعناية في مواجهتي تتفحصني متسائلة ثم صاحت فجأة:

- جميلة! نورتِ الدار يا ابنتي

تلفظت ببضع كلمات مجاملة:

- منورة الدار بك يا خالة نيفين..

غمرتني بحضن عميق أنت منه عظامي..

ثم جلست ممسكة بيدي قائلة باندفاع أربكني:

- كيف حالك يا جميلة؟

وكيف حال زوجك؟

مرت عينيها بتفحص على معصميّ ونحري وأذني ثم قالت غاضبة:

- يا غشيمة أين الذهب؟! ألم أوصيك بشراء الذهب من تلك المدينة الجميلة؟! كلهم يمدحونه!

استطردت في عجالة:

- ابنتي هدى اشترى لها زوجها أكثر من طقم من هناك..

قلت مزدردة ريقي:

- ما شاء الله مبارك عليها..

لكنها أكملت باندفاع وهي ترمق شمس التي صحت وكانت قادمة إلينا محاولة فتح عينيها:

- لا تقولي أنك لم تنجبي غيرها بعد!

ثم ارتسمت علامات الفخر على وجهها:

- ابنتي تزوجت معك وهي حامل بالطفل الرابع!

جلست شمس بجواري متشبثة بي تناظرها بريبة أضحكتني كيف للصغيرة أن استشعرت عدم الراحة لها! حقا الأطفال لهم حاسة سادسة!

أحضرت أمي كوب شاي وبعض قطع الكيك مرحبة بخالة نيفين ..

وجلست أختي بجوارها تربت عليها بعطف..

حاولت الانسحاب بلطف لغرفتي لكن نظرات أمي سمرتني بمكاني منزعجة ولكن السيدة نيفين أبت إلا مضاعفة انزعاجي قائلة بابتسامة واسعة:

- ما بك يا جميلة؟!

أنا فقط أحرص على مصلحتك يا حبيبتي فأنت مثل ابنتي وأعرف أمك طيبة لن توعيك..

حاولت الابتسام مجاملة لكن عضلات وجهي رفضت لكن أمي أنقذتني قائلة لها:

- شكرًا لك يا نيفين! أنت تعلمين غلاوتك عندي من يوم تعارفنا هنا أول زواجنا..

مربتة على كتفها بحب حقيقي ارتفع له حاجباي لكن السيدة نيفين حولت نظرها إليّ قائلة بترضية:

- لا تحزني يا جميلة أهم شيء الصحة وأنت تبدين كما كنت منذ أعوام لم يتغير فيك شيء أبدا محظوظة أنت!

ضحكة ساخرة عالية ترددت بداخلي سمعتها من

الرابض بداخلي ساخرا..

أكملت أمي بعجلة:

- ما شاء الله تبارك الله عليها ابنتي الله يحفظها..

انتفضت السيدة نيفين بغضب:

- وهل سأحسدها مثلا؟!

تدخلت أختي مخففة من حدة الموقف بحديث لبق وتهت أنا في دوامات تفكيري..

كيف لأمي أن تحملت السيدة نيفين لسنوات..

منذ صغري كنت أرى تصرفاتها غير مبررة وغير سوية أحيانا..

كانت حنونة للغاية وتحبنا لكنها كانت تلقي بعض الملاحظات والنصائح الخاطئة بل الكثير منها طوال الوقت..

لماذا لا نملك حسن عشرة الآخرين في أيامنا

هذه؟!

صرنا نحاسب بَعضُنَا بعضا لا يقبل أحد منا الآخر على عيبه وكلنا بالطبع نملك عيوبا!

تذكرت صديقاتي بالمدينة واشتقت إليهن..

وتذكرت كل من بالمدرسة حتى جولي اشتقت إليها!

سمعت باب الشقة يغلق ثم عادت أمي بعدما ودعت السيدة نيفين قائلة بتقرير كما كانت عادتها بعد كل زيارة للسيدة نيفين:

- ما دخل من أُذنك اليمنى أخرجيه من اليسرى..

ابتسمت قائلة:

- حقا يا أمي أنت تملكين قدرة تحمل عالية!

كيف تحملتها كل تلك السنوات؟

ضحكت هدى عاليا فزجرتها أمي بنظرة قائلة

باستهجان:

- ومن يتحملها إن لم أفعل يا بنات!

ثم إني أرى طيبة قلبها قبل كل شيء..

ألمح قلبها المكسور كسره زوجها عن عمد طوال سنوات فكان بري بها صدقة عن سعادتي واعتنائي بها سبب بركة ترجع في بيتي صدقوني..

هي ليست مؤذية أبدا هي فقط مكسورة ومشوشة فترى الأشياء بوجهة نظر غير متعقلة وأنا أعلم من شوش داخلها فلم أعاقبها هي!

كان منطق أمي مفرطا في الطيبة، حقا أشعرني كم أني شريرة ربما لو تعودنا التماس العذر هكذا لكانت الدنيا أجمل بكثير بكثير جدا!

مر بذهني وجه جولي..

ووجه أستاذة إلهام..

ربما ظلت مرآتي تعكس جانبا غير محبب لشخصياتهم لعدم تقبلي لسلوكهم..

ربما أحتاج أن أمزج شعوري بهم ببعض من حكمة وطيبة قلب أمي لعل ميزان قلبي وعقلي ينصفهم قليلا..

ليتني أرقب العالم من خلال نظارة أمي المشعة بالحب والتقبل والطيبة..

تهت بأمواج أفكاري مرة أخرى..

كم قسوت على نفسي الفترة السابقة..

هل تعلمين يا صديقتي؟

اليوم أعترف تحت وطأة تأنيب الضمير من كل قلبي أعلنها:

- أنا آسفة

لطالما قصرت في حقه..

لطالما تجاهلت أناته..

ربما عالجتها ببعض مسكنات تخرسها متجاهلة طلبه الملح للراحة..

ذاك الجسد الذي كان ومازال يأن تحت وطأة أطنان من الأعباء والأشغال حملتها له رغم أنفه ولم أدع له فرصة أي فرصة للتملص أو طلب هدنة رغم علمي السابق بأنه أصلا يحمل بعضا من الآلام..

هل تعلمين؟! أنا حقا أعتذر إليه اليوم وأعده ألا أحرمه حقا حرمته عليه بالراحة ولو قليلا فقط حين يصاب بالسقم..

ربما أكفر قليلا من طغياني السابق..

فهل تراه يقبل؟!

الفصل الرابع عشر

قاب قوسين

كان بعض الأقارب يترددون على منزلنا مباركين مهنئين.. عارضين المساعدة في الإعدادات الأخيرة للزفاف..

من بيت العروس بالبيت المقابل كانت تنبعث أصوات مرح واحتفال أقامتها قريبات وصديقات عروس أخي الجميلة ياسمين..

كانت أجواء شارعنا احتفالية تبث البهجة والفرحة يهنئ الجميع بعضهم بعضا بقرب زفاف الغالي سيف ابنهم بياسمين ابنتهم الكريمة مرددين كلمات المباركة داعين لكل من لم يتزوجوا من أبناء وبنات الحي بأن يحتفلوا بهم قريبا..

فيضحك الشباب مؤمنين وتعلوا وجوه البنات

حمرة الخجل حياءً..

كنت أسير أنا وهدى نرد شاكرين الكلمات اللطيفة لكل من قابلنا نتهامس حتى لا يسمعنا أحد..

قالت هدى بصوت خفيض: لا تقلقي يا جميلة..

ربما هو حمل متعب قليلا..

ليس كل مرات الحمل كبعضها..

سيؤكد لك الطبيب كلامي أنت بخير صدقيني..

كنت أعرف أنها تحاول طمأنتي أو ربما لا يستوعب عقلها ما أصفه لها من أعراض ملقية كل الأعراض على عاتق الحمل وأنا واثقة أنه ليس المذنب الوحيد..

سرت أجاريها أطمئن قلبها بما أنا واثقة أنه ليس صحيحا هامسة:

- نعم.. ربما أنا مفرطة القلق والشكوى..

ثم ضحكت ومزحت هامسة:

- أتدلل عليكم..

ضحكت هدى قائلة:

- تدللي يا غالية.. تدللي..

انتهى بِنَا المطاف أمام عيادة أنيقة وبعد روتين معتاد ودقائق انتظار ليست قصيرة أبدا شرد عقلي بها في سماء الاحتمالات الواسعة أخيرا سمح لي بمقابلة الدكتور الاستشاري..

دلفت لغرفة الكشف كمخبر سري يدرس ما يواجه..

من كثرة ما ولجت غرف الأطباء صارت لي نظرة..

فهذا يجلس في عيادة فاخرة لكنها أفخر ما يملك فقد أعطى عقله أجازة ليملأ جيبه بطلب مزيدا

من التحاليل والأشعات وربما كتابة بعض أدوية كلها لا علاقة لها بما أشعر لكن لها علاقة لمنافعه الشخصية وطيدة..

وذاك يحاول ويحاول راسما الثقة على ملامحه لكني أرى في أعماق عينيه أنه محتار غير واثق من تشخيصه لكنه تائه يبحث مرة بعد مرة وعلاج بعد علاج عله يصل يوما لأصل العلة!

وثالثة لا تقبل النقاش لا تملك الوقت لتسمع تفرض رأيها فرضا واثقا بلا جدال..

لكن هذا بدا مختلفا..

عيادة أنيقة لكن غير مترفة..

بل كل تفاصيلها مرسومة بعناية..

على المكتب كان يجلس بأريحية ناظرا لي باهتمام وابتسامة مرحبة على وجه خمسيني يملك

الخبرة على ما يبدو من نظرة عينيه..

دعاني ببشر قائلا:

- تفضلي أستاذة جميلة..

جلست بثبات وجلست أختي بالكرسي المقابل بتوجس قلق..

قلت ببساطة:

- اسمع يا دكتور..

أنا لم آت هنا لأقول لك أعراض ما أشعر به..

رد باستغراب مع حاجبين مرتفعين:

- لم حضرت إذا؟!

ثم أكمل بخفة ظل: أأطلب لك القهوة؟!

رددت بتماسك مطرقة: للأسف لا تناسبني أبدا بتلك المرحلة..

ثم رفعت وجهي إليه مردفة:

- لقد بحثت لوقت طويل على كل أعراض مرضي..

ووجدت عدة نتائج وأمراض..

بعضها نفاها من كان قبلك..

وبَقى البعض يحيرني..

ضحكة متزنة وقورة جلجلت بالمكان:

- أنت لا تشترين فستانا لنختار سويا !!

أجبت بغير مرح:

- أعرف..

أنا لا أختار.. بل أبحث عما اختاره القدير لي وأنا حقا راضية به..

نظرة إعجاب أبوي التمعت بعيني العجوز مختلطة بشيء من الشفقة ،هربت منه بسرد ما أعانيه من أعراض لا أذكر متى بدأت بالضبط..

دوار متكرر.. إرهاق حتى حين أصحو من النوم.. آلام متفرقة بجميع أنحاء عظامي وجسدي تضعني على حافة الانهيار النفسي..

كأن كل الآلام اليومية العادية كبرت وضُخِّمت وصارت مزمنة!

آلام واضطراب معدتي وقولوني ومزاجي!

صداع صار صديقي الصدوق!

أدوار زكام صارت لا تفارقني حتى تعود إليّ!

كلها شكاوى تبدو عادية وقد يهزأ أحدهم إن شكوت منها أصلا!

لكنها معا تشكل كابوسا مزعجا يفضي للجنون!

كنت أتحدث وكأنني أخيرا أنوء بحملي أشاركه أحدهم..

أحدا لا أخشى أن ينكسر فؤاده لأجلي فأنا بالنسبة

له مجرد اسم من آلاف الأسماء التي جاءته تشكو ألامها لكنه قد يكون معين في طريقي للشفاء وتفهم الأمر أكثر..

أتحدث دون انفعال أو أي مشاعر تذكر..

هل أسمع شهقات باكية مكتومة؟!

رفعت رأسي للطبيب فكان يرمقني متفهما.

هنا تذكرت هدى!

تلك المسكينة هنا!

التفت إليها لأرى وجهها مغطى بالدموع..

لم أَجِد ما أواجهها به من قوة وشجاعة فقوتي تخفت مع الاعتراف أمام الغاليين المقربين..

تتلاشى ويتصاعد تأنيب ضميري أن آذيتهم ولَم أحسن تحمل آلامي وحدي..

نظرة اعتذار واحدة لم تكن كافية ولَم أملك

غيرها..

وقاطع أفكاري صوت الطبيب:

حسنا..

هل أجريت تحليل روماتويد؟!

فيتامين دال؟!

هل تعانين من أي روماتيزميات؟!

آخر موعد لفحصك عند طبيب العظام؟!

كنت أجيبه ويبدو أن إجاباتي كانت تثير اهتمامه ولمعان عينيه ذكاءً يعطيني الأمل..

فقال بهدوء:

- حسنا بعض التحاليل بعدها نتحدث..

زفرت بحزن كنت على بعد خطوة واحدة من معرفة ما يجري شعرت أنه لامس حقا ذاك الشيء في أنحائي..

رمقته ببغض غريب لرفضه الإفصاح فقال مدافعا:

في العجلة الندامة!

وأكمل مازحا ليخفف عني:

- المرة القادمة أعطيك جوابا نهائيا.. بلا أي خيارات أخرى..

بدا واثقا من كلامه فاطمأن قلبي قليلا.

ربما لا ضير من بعض الصبر..

القليل فقط بعد..

الصبر حين يكون عزيزا غاليا مع طول الانتظار

لكن لا مفر منه على ما يبدو..

شكرته هدى عني مع وعد بالعودة وشددت على ذراعي تحثني على النهوض..

فانصرفت أسير بجوارها لكن عقلي يسبح

بملكوت بعيد..

ما إن خرجنا للشارع حتى اختفت ابتسامتها ونهرتني قائلة:

- ما بك يا جميلة؟!

قلت بشرود:

- لا أدري! لعلي أعرف المرة القادمة.

وكزتني في جنبي قائلة:

- ليس هذا ما أقصد بل كتمانك المبالغ فيه! تعيشين بصندوق مغلق عليك مباعدة بينك وبيننا!

قلت بوهن:

- لا أودّ إزعاجكم..

قالت هدى بعصبية:

- أي ازعاج يا مجنونة؟!

ما هذا الوهم الذي عشش برأسك؟ لمَ لم

تصارحينا؟!

قلت خافضة بصري:

- خفت على أمي وأبي مع كبر عمرهما.. هل سيحملان همنا للأبد؟!

وضعت كفيها بوسطها ووقفت بمنتصف الطريق وقد علا صوتها الحاد قليلا فبدأ بعد المارة يراقبوننا:

- وأنا؟!

شددت ذراعها أحثها على السير مبررة:

- يا هدى أنا عشت وحدي كثيرا حتى لكأنني نسيت كيف تكون مخالطة الآخرين..

تعودت حمل همي وهم أسرتي الصغيرة وحدي.

قد لا تصدقين شريف لا يعرف سوى اليسير مما أعاني!

قالت بصوت حاولت جعله هادئا وقد استدركت أننا بالطريق العام أخيرا:

- هذا خطأ! بل خطأ فادح!

لاح محل عصير القصب بجانب الطريق فلمحت انشغال عيناي به فتسارعت خطواتها تجاهه وبعد نقد الرجل ما يحتاج ليعطينا كأسين كبيرين من المشروب المنعش كنت أرتشفه بمتعة..

نعم نسيت كل شيء في لحظة!

كأننا نحتاج لتلك المتع الصغيرة نحتاج أن ننغمس فيها تماما وننسى ولو للحظات ما يزعجنا..

كجرعات من الحلوى أو حبات من السكر تقلل مرار مشكلات الحياة!

كان يبدو على هدى أنها مازالت غاضبة مني غضب الأم على طفلتها المذنبة.

فاقتربت منها قائلة:

- انتهى الأمر من الآن فصاعدا ستصابين بالصداع من ثرثرتي.. هل أنت راضية الآن؟!

ضحكت ضحكة المغضب قائلة:

- سنرى إن كنت ستصدقين..

قلت لها بحذر:

- لكن الزفاف غدا.

دعينا لا نخبر أمي بأي شيء ولندع المجال للفرح والسعادة بزواج أخينا..

ثم أضفت بلمحة انزعاج:

على أي حال ليس هناك ما نحكيه من الأساس .. كلها افتراضيات حتى الآن..

قالت مؤكدة ببهجة:

بالطبع دعينا نفرح اليوم نحن أخوات العريس..

أومأت مؤكدة صحة قرارها وأنا أرتشف كوبي بتلذذ..

ربما رحمة ربنا بنا هي مشاركة الفرح فيسعد الجميع لأجل الواحد فيذوقوا السعادة..

وبالمثل نتقاسم الأحزان فتصغر وتهون بالمشاركة..

عدت للمنزل محاولة تناسي الأمر فالتفكير لن يجدي.. لا مناص من انتظار الموعد القادم للطبيب..

حاولت الهروب بإعداد ثوبي وثوب صغيرتي المتماثلين باختلاف الأحجام..

ثوبين بلون فيروزي كماء البحر الصافي..

عسى الله يرزقنا راحة بال بلون أمواج البحر الصافية.

فرحة أمي وفخر أبي وسعادة أخي كلها أشياء لا توصف..

كم كان سيفوتني لو لم أستطع الحضور؟!

نمت كنوم الصغار بانتظار صباح العيد نوما يتخلله أحلاما وردية بأفراح الغد..

* * *

في الصباح كانت البهجة مرسومة على كل ما ومن حولي..

يشع المكان بها بشكل رائع!

لا أظن أحدا قد يمرض مع هذا الكم من السعادة مهما كان ما يؤلمك سيتلاشى بالتأكيد مع تلك الجرعة الزائدة من السعادة..

طرقات منغمة على باب بيت أمي عرفتها أنا على الفور بل وعرفتها شمسي الذكية وأخذت خطواتها

تجاه الباب بلهفة..

التقت عينانا كنّا الوحيدتين التي استوعبتا ماذا يجري بين الجميع الذين كانوا منغمسين تماما في وضع آخر رتوش للاستعداد للمغادرة لقاعة الحفل..

كنت قد كلمت شريف بضع مرات أتعجله القدوم من سفره مبكرا ليحضر معنا..

فقال ببساطة:

- سألحق بكم لمكان الحفل مباشرة..

بصراحة امتعضت..

أحب أن نتواجد سويا في مثل هذه الأجواء نتوجه للمكان سويا كأسرة..

لكنني أجبت باختصار محاولة ألا أبدى أن الأمر لا يعجبني:

- كما ترى!

فتحت الباب واثقة من هوية الموجود وراءه..

كان شريف ببساطة..

مرتديا حلة أنيقة تليق بالحفل يحمل باقة زهور منسقة مقدم لي إياها إلى بحركة مسرحية..

تأثرت تماما حتى كادت دموعي تفر لكنني كتمتها حتى لا أفسد زينتي!

تلك الدموع التي تداهمني طوال الوقت صرت أتقبلها كصديقة تغيم عيناي وقت السعادة والحزن والتأثر وبعض أوقات أخرى.. يا للسخرية!

ضحك شريف بعدما فشل في التماسك أكثر:

- حسنا فهمنا أنه لا أمل من مفارقة دموعك لمقلتيك..

أشاح بيده مكملا وقد لاحظ محاولاتي لتدارك

الأمر:

- لا بأس!

المهم أنها دموع سعادة!

افتقدتكما يا أميرتي!

احم احم..

كانت هذه هدى تصدر صوتا لتنبيهنا أننا على باب المنزل الذي يسكنه حاليا نصف عائلتنا وأقاربنا ومعارفنا للتوجه سويا لبيت العروس واصطحابها!

كنّا نشكل عرضا رائعا على ما يبدو هذا ما لمحته بأزواج العيون المحملقة وإشارة خالة نيفين أن أحسنت فانسحبت خطوات للوراء بخجل..

ودلف شريف بهدوء ملقيا التحية قائلا:

- مبارك لعريسنا الغالي..

فأجابت أختى ضاحكة:
- الله يبارك فيك..
بعد وقت قصير كانت أبواق السيارات تعزف لحنا من السعادة بشكل متتالي في طريقها لبيت العروس ثم لمكان الحفل.
أن تشعر أن الفرحة تغمرك وتدق بطبول قلبك يشاركها الآخرين من أحباب وأقارب..
تلك المشاعر المشتركة شيء لا يعوض!
فرحة كبيرة حقا كما يسمونها!
لم تكن التسمية هباءً..
أمضينا يوما لا يعوض حقا وأوصلنا العروسين بنفس إيقاعات السعادة حتى باب عش الزوجية..
وفِي طريق عودتنا لبيت أمي دق هاتفي..
كانت ليلى الحبيبة أجبت الاتصال هاتفة:

- عقبال يوم فرحتي بك يا ليلي..

أتاني صوتها سعيدا مباركا:

- مبارك لأخيك يا بيوتيفول..

طمأنيني على أحوال صحتك..

ثم قالت بحزم:

- بأمانة..

رمقت شريف مبتسم بجواري ماض بِنَا نحو البيت وشمس تدندن ببعض كلمات أغنيات الفرح خشيت أن ألوث جو السعادة حولي فقلت بصوت واثق:

- كل شيء تحت السيطرة..

سمعت زفرة مرتاحة قالت بعدها:

- رائع!

افتقدتك منتظرة عودتك لإقامة خطبتي على أحر

من الجمر..

قلت شاردة ولا أدري هل أكذب أم لا:

- قريبا جدا يا حبيبتي..

اندفعت ليلى قائلة بصوت بدا مختلفا:

- لقد قابلت أستاذة لينة!

عادت من سفرها!

قلت بغير اهتمام حقيقي فقد بدا كل شيء خارج نطاق تفكيري باهتا شاحبا لكنني لم أرد أن أحرجها:

- حقا!

تابعت بحماس:

- القصة غير ما رأيناها..

تلك المسرحية الصامتة بينهما..

لم تفصح إلهام..

ولَم تفصح لينة..

ولَم يبوح الوالد سوى بالقليل..

فبقينا نرسم من الكلمات والنظرات خيوط الحكاية

من منطلق دوافعنا نحن وعواطفنا نحن..

قلت وقد بدا طريق البيت قريبا..

ولكن حوارها لفت انتباهي:

- ماذا تقصدين؟!

لم أفهم!

قهقهت ضاحكة ضحكة صاخبة مجنونة ثم قالت:

- ليس الامر بهذه السهولة..

كنت ببيت لينة قابلتها لمدة أربع ساعات تقريبا

من الكلام..

حتى حسبتني خرجت عن الواقع ودخلت حكاية

من حكايا الجدات..

طبعا الأمر مؤتمنة أنا عليه..

قلت بنزق وقد بدا صبري نافدا:

- كل هذا لتقولي مؤتمنة ولن أبوح؟!

نامي يا ليلى!

ردت مسرعة:

- بالفعل بحاجة لأنام ولأفكر أيضا..

لكن أنت معي بالأمر لنحله سويا قالت لينة أن من حقي أن أطلع شخصا واحدا أثق به ليساعدني بمهمتي تلك..

بدا باب البيت قريبا للغاية:

- حسنا يا ليلى..

وبدأت شمسي تبدو علامات الحاجة للنوم واولها بكاء خفيف من الإرهاق..

فقالت ليلى بحرج:

- يبدو أني أطلت عليك غدا أحادثك ونتكلم بكل شيء..

أغلقت الخط ولكن باب التفكير بعقلي لم يغلق

ترى ما القصة؟!

الفصل الخامس عشر

عدت من الزفاف على أجنحة السعادة بين تجمع أسرتي الصغيرة أخيرا وبهجة عائلتي فماذا أحتاج بعد لتتم سعادتي؟

كان شريف قد اتفق مع أختي أن ترسل من تنظف وترتب بيتي دون علمي وقد فاجأني أننا سنعود على شقتنا وليس على بيت أمي ونحن بالسيارة.

كانت لفتة لطيفة منه لنقضي وقتا جميلا ببيتنا الذي لا نكاد نقضي فيه بعض أيام كل عام!

في طريق العودة للمنزل نامت شمس المرهقة جدا من يوم طويل من اللعب والمرح..

صوت عجلات السيارة تعانق الطريق برتابة كانت خلفية مناسبة مع صوت المذياع الهادئ ونسمات الهواء المتسللة من النافذة ليرسموا جوا

لطيفا كنزهة صغيرة كان طريق العودة..

فتح شريف باب الشقة حاملا شمس وطلب مني الصعود على مهل وعدم التعجل..

تعجبت طلبه فأنا لست عجولة بطبعي والحمدلله حملي بخير فمما يقلق ولكني لم أشأ أن أعلق فأجبته بكلمته المفضلة:

- حاضر لا تقلق..

بعد دقائق كنت أمام باب الشقة التي دلف لها شريف قبلي فمددت يدي أفتح الباب لكنني فوجئت به مقابلي أمام الباب مواربا إياه قائلا:

- حسنا أغمضي عينيك أولا!

هنا فهمت كل الطلبات الغريبة المريبة لمَ كانت تبدو أنها مفاجأة!

آثرت الحفاظ على سمات عدم الإدراك على

ملامحي لأعطيه أكبر مساحة للعبته المشوقة وكل مدى ما تزيد بسمته اتساعا وعينيه التماعا بسعادة..

أغمضت عيني ودلفت هامسة:

- هل بإمكاني أن أنظر الآن؟!

قال بسرعة وأنا أسمع خطواته من حولي مسرعة في حركة دؤوبة:

- بالطبع لا! بضع ثوان بعد!

ارتسمت البسمة على وجهي وتسللت لعيني المغمضتين كذلك فاتكأت مكتفة ذراعي على باب الشقة المغلق قائلة:

- حسنا.. لكنني لا أملك الصحة للوقوف كثيرا بعد هذا اليوم الشاق! أحضر كرسيا وسأنتظرك الليل كله..

بعض اللحظات يكمن جمالها في الانتظار!

فكما وقوع البلاء خير من انتظاره.

فانتظار السعادة وتوقعها يمنحك لحظات قصوى من الإثارة والسعادة ربما تفوق في قوتها سعادة المفاجأة نفسها بعد ذلك.

نعم أثمن كثيرا تلك اللحظات وأحبها..

ومما تتكون الذكريات الحلوة سوى بعض لحظات سعادة وفرح مع من نحب حولنا سعداء؟!

طافت الكلمات بذهني وأنا أسترجعها مسلية نفسي متذكرة يوم رأيتها على اللوحة الصغيرة لامعة الأطراف أعجبتني ولكن غاب عني معناها فكتبتها بمفكرتي الصغيرة كما صرت أكتب كل كلمات اللوحات التي أراها يوميا..

تنحنح قائلا:

- حسنا يمكنك أن تفتحي عينيك!

افترق جفناي المطبقين بكسل لكن المفاجأة غطت كل شعور آخر!

كان شريف يقف مقابلي أمام السفرة المصفوف عليها بعض أنواع الشوكولاتة التي أحبها وفِي المنتصف قالب صغير من الحلوي على شكل قلب وفوقه قلب كبير وردي وقلب أصغر أزرق شاحب.

كتب على الأول شمس وعلى الثاني كتب علامة استفهام باسمة..

كنت أحاول أن أفهم صامتة من شدة دهشتي!

تسرب لأذني صوت شريف يقول بتوتر: لم أشأ أن أختار اسم للطفل وحدي!

التفت إليه بذهول قائلة:

- ومن قال أصلا أنه طفل وليس طفلة؟!

رد ضاحكا بحرج:

- عندك حق لم نعرف بعد..

قلت بانزعاج حاولت مداراته:

- وهل هناك مشكلة لو كانت طفلة؟!

رد بسرعة مبررا:

- ليست هناك أي مشكلة كل ما في الأمر أنني رأيت أننا لم نحتفل كما يجب بخبر حملك رغم أنه نعمة عظيمة! وطمعت أن يكون طفلا نشتري له الملابس الزرقاء فقد ذقنا جمال الوردي مع شمس ونشتاق لنذوق الأزرق مع المولود الجديد..

ابتلعت ريقي بطمأنينة هامسة:

- شكرًا لك !

اقترب مني واضعا ذراعه حول كتفي برفق مقتربين من الطاولة المزينة وعيناه ترمقاني بحب لكن عيناي ما لبثت أن فتحت على اتساعهما بصدمة ارتد معها بصرة للطاولة ليرى ما المشكلة وكاد يسأل لكنني سبقته هاتفة: هذين الكأسين!

قال بتوجس مصطنع:

- ماذا بهما حبيبتي؟!

قلت متفهمة محاولة تملقه تلك مضيقة عيناي بغضب رسمته بعناية:

- من النيش؟!

ارتد للخلف قليلا مكملا بتهكم:

- نعم بالطبع هل هم ملك لنا أم للجيران؟!

قلت بسرعة ضاحكة:

- لنا طبعا! لكن هل تدري كم ثمنهما؟!

هذه الأشياء لا تستخدم هكذا يا شريف ولا تخرج من مكانها للاستخدام العادي!

كانت عيناه قد بدأتا تبرقان مزمجرا:

- عادي؟!

أدركت فداحة ما أقول فاعتذرت وقد هرعت إليه مازحة:

- حسنا بل يوما رائعا مميزا!

نعم كحلم جميل وذكرى لا تنسى كانت أمسيتي!

وفِي الصباح نهضت بكسل تدور عيناي في أنحاء الغرفة أسمع نداء شمس باسمي بصوت ناعس يبدو أنني أتوهم!

كنت أتقلب في سريري محاولة البحث عن يقظتي وبدا لي أن هناك ضوءا قادما من الغرفة

الخارجية..

تقلبت على جانبي الآخر بتململ هربا من شعاع الضوء المؤرق لنومي..

بعد وهلة انتبهت فزعة

أي ضوء!

لم يطلع النهار بعد!

وليس هناك سوى أنا وشريف النائم بجواري وصغيرتي بغرفتها المجاورة..

تلك اللحظة التي تدرك فيها أن هناك شيئا خاطئا يحدث..

وتتوه مترددا بين أنك تريد أن تعرف ماذا يجري وتود لو ألا تعرف في الوقت ذاته لأنك تعرف أنه شيئا سيحزنك..

لم تكن سوى ثوان تاه فيها تفكيري أيقظني منها

ضجيج طرقات قوية على باب شقتي وألسنة لهب بدت واضحة بمقابلي بالغرفة الخارجية بمجرد خروجي من غرفتي يجرني شريف للخارج جرا وقد استيقظ فزعا على أصوات الطرقات العالية..

دار كل شيء بعدها بسرعة حمل شريف طفلتنا النائمة واعتمرت حجابي كنت أهم لفتح باب الشقة أجري باتجاهه وكأن المسافة سارت بيني وبينه أميالا..

أميالا طويلة حارة معبئة بالأدخنة..

كنت أسعل بقوة..

وفجأة كسر الباب بقوة وبدأت وجوه كثيرة تتدفع إلينا فبدأ عقلي لعبته بالغياب عن الوعي..

اختار الذهاب وأخذ لحظات بين أيدي أمينة ريثما يستوعب ما يجري ويرتب الأمر بين جنباته..

لا أدري كم مر من الوقت لكنني كنت أشعر بثقل جفني وأنا أجاهد لأفتحهما أصرخ داخلي باسم شريف وشمس في قلق لكنها كانت تخرج من بين شفتي كتمتمات ضعيفة واهنة..

(لقد استيقظت!) كان صوت أمي بجواري وهي تمسح على رأسي بحنان..

أقبل أخي يحمل بين جفنيه بحور من القلق رغم محاولته التماسك..

سمع تمتماتي على ما يبدو فاندفع محاولا طمأنتي:

- هما بخير.. فقط شريف يراجع مع الطبيب الاطمئنان على صحة شمس لقد هاتفته سيكون هنا خلال دقائق..

بدا الارتياح يتسلل لجسدي الضعيف أرمق

المغذي المتصل بعروقي يحكي ما حدث.. كنت أسمع نهنهات بكاء أختي بجواري فالتفت إليها بصعوبة محاولة بث شيء من الطمأنينة إليها بكلمتين:

- أنا بخير..

دلف شريف للغرفة بخطوات عجولة قلقة..

كان يبدو أنه يكابد ضغطا عصبيا هائلا..

لا أدري ماذا جرى لكن خلال ثوان كانت الغرفة خالية إلا مني ومنه جالسا على المقعد المجاور لسريري حيثما كانت أمي قبل أن يخرجوا جميعا تاركين لنا مساحة من الخصوصية..

مد شريف يده محتضنا كفي بحزن يقطر من كل ملامحه..

قلت بصعوبة:

- أين شمس؟!

رد مطمئنا:

- هي بخير والدك معها حتى أعود..

بدا يقاوم دمعة تقاتل بشراسة على عتبة مقلتيه..

شددت على كفه ببقايا قوتي كلها قائلة:

- نحن بخير

لا شيء يعدل أمان عائلتك وسلامتها دعوني أخبركم عن تجربة..

أسند رأسه على كفيه محاولا ألا ينهار هامسا بصوت متقطع وكأنه يهذي غير مدركا لما يقول:

- هل نحن حقا بخير؟!

لم أعد أدري ماذا يجري حقا؟!

فتحت الدائرة بآلامك ومرضك..

ثم هذه الحادثة والحريق..

هلعي أن يصيبكما مكروه!

ضغط العمل وتهديدي بالطرد أو على أفضل الأحوال النفي لمكان مهجور لا يمكنني اصطحابكما معي فيه!

فأكون مهددا أيضا بالافتراق عنكما وقتما يقرروا هم ذلك!

الأصدقاء؟!

هذا الركن الشديد الذي كنت أركن إليه!

هل مازال كذلك؟!

لم أعد واثقا بعد تصرفات مالك الأخيرة وتهامس علي ونادر عما يفعله مؤخرا رغم محاولتي عدم التصديق!

هل كل شيء ينهار أخيرا أم أنا أتوهم..

لمحتها تسقط فترتطم بالأرض تلك الدمعة

المناضلة تبعتها أخرى ببؤس..

حاولت الاعتدال مقتربة منه هامسة:

- لقد مر الأمر.. سنكون بخير صدقني!

شريف الغالي يناضل وحده في كل الجهات وأنا مشغولة فقط بدائرتي الخاصة من الهموم منذ فترة!

لم أفهم كلماته عن مالك زوج سوزان وإن كانت كلماتها الأخيرة الغير مفهومة بلقائنا قبل سفري أوحت إلي بأن هناك شيئا ما خاطئا!

تجنب صديقاتنا لها في الفترة الأخيرة يوضح أيضا بعض الأمور وأنا تقريبا الغافلة الوحيدة هنا!

يبدو أن شريف تمالك أعصابه وقد انتابه تأنيب الضمير لبوحه بما يواجه وقد وجد سيماء التفكير

العميق على وجهي فقال محاولا تقمص روح الدعابة كعادته:

- لكن أتعلمين يا جميلتي كؤوس النيش خاصتك بخير رغم كل شيء!

انفجرت ضاحكة وقد نسيت كل شيء وشاركني شريف الضحك بصخب وأنا أجزم أن من يرى دموعنا منذ لحظات ثم ضحكاتنا الآن سيؤكد أننا نعاني خللا ما!

لكن بما يمكن أن نواجه فيض الألم سوى بضحكات تزرع الأمل وتطمأن القلب بعد الرضى والثقة بالله!

ضحكات تقوي قلوبنا وعزيمتنا مؤكدة أننا بخير حقا رغم كل شيء!

طرقات على باب الغرفة تبعها دخول أبي هاتفا

بمرح:

- انظروا من جاءت معي!

كانت صغيرتي شمس بابتسامتها المشرقة بين ذراعيه التقمتها بين ذراعي بكل شوقي للاطمئنان عليها شدت ذراعيها حولي تبثني شيئا من الطمأنينة أو تستمده مني لا أدري!

ارتفع رنين هاتفي بجوار السرير فالتفت أنظر إليه كانت الغالية ليلى!

آه يا ليلي كأن أنفاسك معي بالغرفة ما كنت لتتركيني وحدي هنا لو كنت بالجوار يا بعض أهلي!

لم أكن أملك القوة للإجابة وقد توقف الرنين وكأنه علم ذلك!

لملمت أمي حاجاتنا المتناثرة بأنحاء غرفة

المشفى وقالت بتقرير لا يقبل النقاش:

- ستأتون معنا للمنزل..

قال شريف محاولا إثنائها:

- لا داعي لذلك لا تقلقي سنعود لشقتنا الأمر بسيط بأيه حال..

لكن أمي رفضت رفضا قاطعا قائلة:

- أختك سبقتنا للمنزل يا جميلة وحضرت لكم الطعام سنتناول الغداء معا كلنا وستبقوا معنا أنت وشريف وشمس حتى يحين موعد سفركم..

نظرت لشريف مترجية أن يقبل..

ربما كنت جوعى لهذا الاهتمام الأسري الدافئ وأحسبه كان أكثر جوعا له مني فلم يسبق أن رأيته ضعيفا كوقت بوحه في صباح اليوم..

نحتاج أحيانا لقلوب الأحباب حولنا تمد حياتنا التي

قد تظلم الغيوم سماءها قليلا بأشعة شمس أرواحهم المحبة وتعاونهم المشرق فيكون النهوض بعد السقطة أسهل..

ضعف شريف أمام نظراتي المتوسلة وشمس التي جرت لأحضان جدتها بسعادة فوافق قائلا بحرج:

- لا نريد أن نتعبكم يا أمي ..

فقالت أمي بفرح:

- أي تعب يا غالي!

تعبكم راحة..

الحمدلله أن الأمر مر على خير دعونا نعود لفرحتنا بعريسنا وعروسه ولتنسوا أي شيء آخر..

زفرت براحة محاولة الاتكاء على هذا الدعم

والحب لأقف بثبات!

فأحيانا يكون هذا ما نحتاجه لنواجه ما يمر بِنَا..

عدنا للمنزل بأجواء عائلية مميزة لعدة أيام وكان اليوم موعد جمع لا أدري متى كانت آخر مرة اجتمع!

حضر أخي وعروسه وأختي وزوجها وأولادهم وأمي وأبي أيضا وطبعا أنا وشمس وشريف..

كأجمل ما يكون الجمع حقا!

بعد تناول الغداء الساخن الذي صنع بأيد محبة وتبادل الأحاديث..

أكواب الشاي الساخنة تدور وتدور مع الحلوى المنزلية..

وأصوات لعب الأطفال..

لكزتني هدى فتبعتها للداخل خلسة متظاهرة برفع

بعض الأطباق كما فعلت هي..

وفِي المطبخ قالت بهدوء:

- حسنا يا جميلة لقد اتصل الطبيب وهو ينتظرك رغم تظاهري بالشجاعة سابقا فكل منا يملك نقاط ضعف وخوف..

ولا أدري لما كلماتها البسيطة تلك لمست اضعف نقطة بداخلي..

كنت أحببت الجو المرح السعيد وتناسيت به أن هناك نتائج أنتظرها..

دمعة تدحرجت مع ايماءتي بنعم..

ضمتني هدى إليها بحب قائلة:

- لا تقلقي كل الأمر خير إن شاء الله..

ثم أبعدتني عنها قليلا مردفة:

- بصراحة يجب أن أفهم وأطمئن قبل موعد

عودتك الوشيك كما فهمت من شريف.

ثم التفتت إلي وكأنها تذكرت شيئا ما:

- ما رأيك أن يأتي معنا للطبيب؟!

انتفضت برفض قائلة:

- لا .. لا داع!

سنذهب كما المرة السابقة!

بدا على وجهها التعجب ولَم أستطع أن أشرح أكثر.

كيف أخبرها أن نظرات الألم على ما أصابني في عينيه ستكون أكثر ألما من المرض نفسه!

هل أستطيع أن أخبرها كم يعاني من ضغوط وهو ما سيقلقها علينا أكثر فأحمل تأنيب ضميري في حقائب سفري أن أثرت زوابع قلقها؟!

تنهدت مغلفة كل ذلك برد بسيط:

- لا داعي أن نقلق الجميع دعينا نتعلل بشراء بعض الأغراض للمولود..

قالت بابتسامة:

- فكرة رائعة وسنشتري بالفعل بعضها لنبث البهجة في نفوسنا!

كم أحب تلك الملابس والأغراض المنمنمة!

لقد اشتقنا حقا لهذا العمر!

ابتسمت فرحة لفرحتها الملتمعة بعينيها..

تسللنا وقد صدق الجميع كذبتنا البيضاء تاركين الأطفال معهم بتلك الجلسة العائلية اللطيفة..

كان وجيب دقات قلبي عاليا هذه المرة!

دققنا باب الطبيب ودلفنا على الموعد..

كانت ملامحه البشوشة الأبوية مع لمعة أعين فائقة الذكاء تميزه..

جلست على رأسي الطير وكأنني تحولت فقط لعينين وأذن..

أسمع تبادله الحوار مع أختي ومع الممرضة بهدوء..

ألاحظ نتائج التحاليل والفحوصات بين يديه دون أي قدرة على التحدث..

قالت أختي ببشر:

- حسنا يا دكتور هذا كلام رائع!

كونك تقول أن كل التحاليل والفحوصات تثبت أنها لا تعاني شيئا!

تنحنح وارتشف رشفة من الكوب أمامه قائلا:

- نعم هذه التحاليل والفحوصات أثبتت خلو جميلة من كثير من المشكلات الصحية بفضل الله ولكن، كل هذه الأعراض والآلام التي تذكرها بدقة

تأخذنا لمنحى آخر..

قبضت كفي حتى ابيضت مفاصلهما وانا أنصت بصبر..

فأكمل:

- هي لا تتوهم!

هي تعاني فعلا!

تعاني مرضا جديدا لا يعرفه الكثيرون لتخفيه بين أعراض تقارب الإجهاد الشديد وأعراضه في بداية المرض وتقارب أيضا أعراض ضعف المناعة عند بعض البشر..

لكن حسبما تدل حكايتها فأنا أجزم..

جميلة تعاني من (الفايبروميولجا)..

كان الاسم يدق في رأسي بتتابع كأنه صوت عميق من مغارة سحيقة أنساني كل ما حولي..

فايبروميولجا..

فايبروميولجا..

فايبروميولجا..

ثم التفت إلي مازحا:

- عليكي أن تفرحي أنك تمكنت من اكتشافه مبكرا يا جميلة ووجدت من يساعدك على إيجاد هذا المرض الخفي..

أومأت موافقة وبداخلي أمواج عاتية من المشاعر والأفكار لم أحسن معها نطقا..

فايبروميولجا!

يبدو وقع الاسم غريبا حقا!

لملمت بقايا شجاعتي المنصهرة بابتسامة أو شبه ابتسامة..

سمعت الطبيب يكمل لأختي عن بعض الأعراض

وطرق العلاج لكنني كنت بعالم آخر غائبة..

لقد وجدته بعد كل هذا البحث!

الفصل السادس عشر

رغم كل شيء

رغم كل شيء نملك ضعفا بين جوانحنا كبشر، مهما رسمنا خطوط القوة، مهما ملكنا من طاقات الكتمان، يبقى هناك حيزا نحتاج أن نجتازه أحيانا لنصل لموقع خاص جدا بنا، حيث يمكننا أخيرا التعبير عما بداخلنا..

كانت دموعي الهاطلة تغطي وجهي كله بغزارة لا أذكر متى كانت آخر مرة رأيتها بها بهذا الشكل تحكي وتنطق بمشاعري بين ألم وقلق وحيرة.

كانت عيناي تتجولان بين السطور بنهم لمعرفة الحقيقة التي توخزني دون شفقة كوخز الدمعات لعيناني، أحاول رغم كل شيء أن أركز لأقرأ وأفهم تلك الكلمات المتراصة أمامي على شاشة

جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتي، كلمات تحكي الكثير.

ولأول مرة أفهم كلمات تلك اللوحة اللامعة الأطراف التي لم أفهمها يومها..

"بعض الكلمات ليست كلمات حقا!

بعضها كان خناجر ماضية في عالم آخر على ما يبدو!

بعضها كان طاقات نور!

بعضها كان قاتما كئيبا!

بينما البعض الآخر كان نورانيا مشعا!

نعم كلها حروف متناسقة لكنها تحمل أكثر من ذلك أنا واثقة!"

عدت بعينيّ للشاشة مقابلي وعليها تراصت الكلمات (الفايبروميالجيا: مرض غامض يدب

بين الناس.. أسباب المرض غير معروفة، لكن بعض الأطباء انتبهوا إلى ظهور الأعراض بعد نكسة صحية أو عملية جراحية أو التهاب شديد، أو بعد تعرض المصاب إلى ضغط نفسي حاد، وتتراكم الأعراض بمرور الوقت، وقد تجتمع كل هذه الأسباب لتؤدي إلى مرض "الفايبروميالجيا" أو ما يعرف أيضا بمرض "الألم العضلي الليفي")

أغمضت عيناي بهلع ولكن محرك البحث فتح نافذة أخرى بحثا عن ذات العنوان الفايبروميالجيا فارتدت عيناي تطلب المزيد من المعلومات، نسب الإصابة التي سجلها الأطباء تؤكد أنّ المرض يصيب النساء بشكل خاص، لكن توجد وبنسبة أقل بكثير إصابات بين الرجال أيضا وفي

مختلف الأعمار، تترافق هذه الأعراض في بعض الحالات مع الآم في المفاصل وصداع متناوب حاد، وأحيانا صداع صباحي، ونوبات من سوء الهضم والانقباض المعوي، والكآبة والقلق.

بعض العلماء يعتقدون أنّ تكرار المحفزات العصبية باتجاه توكيد الألم في مناطق معينة من الجسد، قد يؤدي إلى ارتفاع مستويات مركبات كيماوية بعينها في الدماغ، تبدأ في إظهار أعراض الألم، وهو عارض سوف يتكرر لأشهر ثم لسنوات حتى تمتلك مستشعرات الألم ذاكرة مرضية تحفز المريض للتألم بمجرد تذكره أنه مصاب بآلام غامضة، وهكذا سيعيش المريض دوامة الألم وذاكرة الألم التي لن تنتهي.

كانت طرقاته على الباب مطمئنة تستأذن بلطف للعبور لمنطقتي الخاصة من الحزن..

كنت واثقة أنها طرقات شريف الواقف خلف الباب بانتظار الإذن بالدخول..

مسحت دموعي وحاولت إظهار بعض التماسك الذي لا أدري أين ضاع فجأة!

حين عودتنا من عند الطبيب صحبت أختي الصغار بلطف لغرفة نومهم متولية عني كل الأعباء عالمة أن بداخلي كثير من الوجع المحتاج لمعالجة على انفراد، تسللت لغرفتي بعد وقت قليل متعللة بمداعبة النوم لأجفاني، تاركة لها مهمة إخبار زوجي وأهلي بكل شيء سامحة لذاتي بخلوة مستحقة ولازمة.

تقابلت عيني وعينا شريف كان يعلم أنني ذاهبة

لغرفتي وكان واثقا من أنني لن أنام أيضا لكنه آثر أن يترك لي بعض دقائق حين أشارت له أختي من طرف خفي أن ينتظر فلها حديث هام مع الجميع..

وها هي مرت الدقائق الثقيلة وهي تروي ما قاله الطبيب، وهاهو شريف فقد صبره من الانتظار بينما وقفت كلمة تفضل مترددة بين شفتي.

كبوابة أخشى أن أفتحها لأنني لا أريد أن أواجه ما خلفها ، كثير من الأشياء للمناقشة وكثير من القرارات تحتاج حسم لا أملك القوة لأجله.

دلف شريف خطواته بوجل قائلا بوجه شاحب:

- ما الأمر يا جميلة؟!

وكأنه فتح بوابات الدمع التي بالكاد أغلقتها فانسابت كالطوفان بلا قدرة مني على وقفها.

ارتاع لمرآي منهارة هكذا فأغلق الباب خلفه بإحكام وأكمل خطواته تجاهي يرمق الحاسوب المحمول أمامي وما على شاشته بيأس محاولا إظهار كل إمارات التماسك حيال الأمر ولكنني لمحت رجفة جسده القلقة.

نعم هي لحظة المواجهة ولحظة الاعتراف.

جثا على ركبة واحدة جوار السرير يرمقني ساحبا نفسا عميقا يواجه به ما يجب أن يقوله من كلمات وعينيه مثبتتان بعيني:

- لا بأس يا جميلتي.. سنكون بخير

هو قدر الله.. هو مرض كأي مرض

حاول إظهار روح المرح خاصته فامتدت يده تغلق شاشة الحاسوب بكلماتها البائسة باعدا إياه لركن قصي وجلس مكانه أمامي ممسكا كفي

بقوة:

- لكنك متفردة كما العادة حتى في مرضك!

ارتفعت نهنهاتي ببؤس وقد أغلقت عيناي هربا، بدا كابوسا مزعجا يمكنني الصحو منه.

- جميلة!

فتحت عيناي على هتافه باسمي بخفوت لأواجه عيناه وكل مخاوفي لأجدها تلك الدمعة المتلألئة بين جفونه يمنعها بعنفوان.

مسحت دمعاتي بعنف مغلقة صفحة الآلام تلك قائلة بقوة حاولت التماسها في أنحائي:

- أنا راضية حقا! أنا فقط قلقة على ليلى.

ثم امتدت يدي تلامس بطني بخفة:

- قلقة على ذاك الصغير الذي يتكون بداخلي، حائرة هل أعود معك لأعتني بهم وحدي أم كفاني

عنادا ولأبق هنا مع أمي.

وقف شريف منزعجا وقد التمعت عيناه غضبا وليد اللحظة:

- بالطبع ستعودين! ما كل هذا الوهن يا جميلة! لقد حملت الأمر فوق حده حقا!

سنتعامل مع الأمر، ستتابعين حياتك وعملك لو أحببت! سنرتب كل الأمور سويا!

وكأنني كنت أحتاج كلماته لأستعيد زمام نفسي الذي أفلته فأومأت وملامح شبه ابتسامة تغزو وجهي أن نعم.

فالتفت متحمسا:

- هيا سنعود غدا عليك بجمع كل أغراضك وأغراض شمس بالصباح.

ثم أكمل مؤكدا:

- أنا لا وقت عندي للمكوث هنا أكثر من ذلك ولن أعود بدونكما.

أومأت مرة أخرى مصدقة وقد شعرت براحة أكبر بمساندته.

بعض الأشياء لا تقدر حقا بثمن ولا تشتريها أموال العالم كله!

في الصباح واجهت وجهي أمي وأبي القلقين بصمود أكبر مطمئنة إياهما:

- كل شيء سيكون بخير.

وكأنهم كانوا عطشى لمثل تلك الكلمات ليطمئنوا علي.

لكن رغم كل تلك المحاولات بقى القلق باديا بعيني أمي وظهر واضحا في صوتها قائلة:

- مازلت أرى أن تبقوا معنا أكثر.

رد شريف بود وامتنان:

- أنا واثق أنني أريد ذلك أيضا لكن ماذا أفعل والعمل يناديني وينادي جميلة أيضا فقد كادت أجازتها تنتهي!

ضحك أبي قائلا:

- كنتم ونسا لنا بحق الأيام الفائتة، ننتظر عودتكم بأقرب فرصة.

قلت مؤكدة:

- قريبا بأمر الله.

قلت محاولة التصبر:

- سنحدثكم طوال الوقت وكأنما معكم..

كان بداخلي شيئا يكذبني يخبرني أنه ليس كاللقاء سويا نتشارك الأنفاس بذات المكان لكنني وأدت شعوري في مهده فلا نملك حلولا أفضل حاليا..

بعد أحضان الوداع الدافئة ودعوات الأهل التي كانت معنا طوال الوقت.. استقللنا القطار لنعود حيثما كنّا.

عائدة أنا بوجه غير الذي ذهبت به، عائدة بشوق لبيتي الصغير الدافئ، لعملي الذي اشتقت له، لصديقاتي وزميلاتي، لحبات السكر خاصتي ، بل حتى للورقات لامعة الأطراف!

اشتقت كل التفاصيل التي كانت ربما معتادة بل ومملة في أحيان كثيرة!

أحمل شوقا لليلى وشغفا لحفل خطبتها المرتقب!

ربما كتب علينا الشوق نحن أصحاب الترحال شوق لمن تركناهم وراءنا وشوقا للذاهبين إليهم، وكأن ذواتنا قسمت نصفين بين مكانين يحمل كلا منهم جزءا منا!

بين مجموعتين من البشر بمكانين بعيدين لم يلتقوا يوما ولن يلتقوا يوما غالبا لكن لكل منهم مكانه الخاص بقلبنا!

مد شريف يده يربت على كفي مطمئنا فابتسمت تلفحني هبات الهواء من النافذة بجواري.

لكل رحلة بداية ونهاية وكل رحلة هي بداية جديدة مشرقة.

بضع ساعات مضت على وصولنا صففت الحقائب أنوي ترتيبها بوقت لاحق وتناولنا طعام ساخن أحضره شريف على عجل واستسلمت لنوم عميق كأنني كنت جوعى للنوم!

كان الرنين متواصلا صاخبا وكأنه يهتف بي منزعجا كفاك نوما!

فتحت عيناي بتململ كان اسم الغالية ليلى يضيء

الشاشة.

رددت بلهفة:

- ليلى! اشتقت إليك يا غالية

ردت ليلى ساخرة:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بل أنا اشتقت لك ولصديقتي الصغيرة شمس.

كيف حالك وحال صحتك؟!

قلت باندفاع:

- أنا بخير وحال صحتي يطول شرحه حين نلتقي

قالت بحياء:

- ومتى يسمح جدولك باللقاء؟

ضحكت قائلة وأنا أمشي في الشقة مدركة أن شريف ذهب لعمله وشمس مازالت نائمة بينما بقايا طعام الأمس تنتظر من يحنو وينظفها

والحقائب ترمقني بتوسل أن أفرغها:

- ربما يمكنك الحضور حالا لمساعدتي في ترتيب الأجواء هنا ونتحدث سويا!

قالت بحماس:

- عين العقل! دقائق وأكون عندك.

وقد صدقت!

كنّا نجلس على السرير وبيننا كوم من الملابس نطبقها بإتقان تمهيدا لإعادتها لمستقرها بالأرفف بعد طول سفر.

بدأت ليلى كلامها قائلة:

- لا أخفي عنك سرا وراك كل شخص ترينه يوميا شخصا آخر بأسراره وأفكاره خارج العمل!

قلت بتوجس وحاجب واحد مرفوع:

- وهل وجدتي أني شخص آخر يا شرلوك

هولمز؟

ضحكت قائلة وهي ترتب أطراف المنامة بين يديها:

- لا بالطبع أنا أتحدث عن أناس آخرين ترتبط علاقتنا بهم بالعمل فقط!

قلت مسترسلة:

- مثل أستاذة لينا وأستاذة إلهام.

قالت بحماس مفاجيء:

- بالطبع!

استقبلتني في بيتها الذي يماثلها رقة وأناقة غير متكلفة، ورأيت طفلتها وصغيرها يملكان نفس لمعة عينيها التي تنضح ذكاءً.

كان حوارا وديا مختلف عن كل حواراتنا الرسمية تماما!

خارج جدران المدرسة وداخل جدارنها الخاصة.

وكأنها سمحت لي بولوج عالمها بشكل ما.

جلست أمامها أرتشف كوب القهوة الذي قدمته لي بعد السلام منتظرة أن تبدأ الحديث.

طاف شيء من الخجل بملامحها ثم قالت بوجه باسم:

- أنا حقا أعتذر عن الزج بك في كل هذا!

قلت بارتباك:

- لا بأس العمل عملي على أي حال وكل مسؤولية حملت معها خبرة!

أكملت بامتنان ظهر بعينيها:

- نعم لقد كنت نعم السند للمكان وقتما احتاج!

ظهرت الدهشة على ملامحي فأكملت مصدقة:

- نعم للمكان روح تحتاج لسند حين يعز السند

حتى لا ينهار، لو فكر الكل في مصلحته لما تحمل القسم كل تلك النوازل في الفترة السابقة.

اتسعت ابتسامتها قائلة:

- لذا من حقك سماع القصة التي تورطت بين أطرافها!

وضعت الفنجان والتقطت الوسادة بجانبي بين ذراعي، كنت قد بدأت أشعر بالراحة ونعم أرغب بشدة في فهم القصة!

أكملت أستاذة لينة قائلة:

- عرفت إلهام بالمدرسة حين حضرت هنا للمدينة للعيش مع جدتي بعد وفاة أبي وأمي.

لم أكن طفلة متطلبة بطبعي.. تجاوزت الصدمة وإن بقيت جرح بداخلي لكن جدتي كرست حياتها لإسعادي.

لكنني كنت متوجسة من مجتمع المدرسة الجديد فكنت منطوية غالبا.

لكن إلهام لم تقبل ذلك، كانت حبيبة الكل بالمدرسة شخصية شهيرة يلتف حولها الجميع يعرفونها وكل المعلمين والمعلمات يعرفونها ويعرفون والدها أيضا يتلقونه بكل ترحاب وقتما يحضر مما أوحى إلي كم هو شخص مهم في المكان.

كانت إلهام تتسلل من بقعة الضوء تلك وتأتي إلي في الظل لتتحدث معي.

قبلت حديثها اللطيف بابتسامة ويوما بعد يوم صرت أحكي لها بعض الأشياء أيضا.

كنت أكره الأضواء وأحب الهدوء وكانت تحترم ذلك فنجتمع سويا في مكان هادئ لا يرانا فيه أحد نتشارك الطعام وربما بعض الأفكار وأحيانا

نذاكر سويا، كنّا نقيضين.

فتاة هادئة منطوية مجدة في الاستذكار طول الوقت وأخرى صاخبة عالية الصوت هي نجمة كل التجمعات ولكنها لا تهمل دروسها أيضا.

تبادلنا الزيارات عرفتها على جدتي وبيتي وتعرفت على والدتها ووالدها و إخوتها وبيتها.

ومرت سنتين تقريبا وكنا على مشارف الثانوية العامة وحثنا والدها على التعاون والاجتهاد وبالتنسيق مع جدتي اتفقوا ان نجتمع دائما للمذاكرة.

وفِي يوم وجدت إلهام بالمدرسة مختلفة!

قلت قاطعة صمتها أستحثها أن تكمل:

- كيف؟

مسحت دمعة انزلقت من بين جفونها بكبرياء

وأكملت:

- كانت مختلفة غير تلك الودودة التي عرفتها كانت صاخبة لكن بشكل مختلف كأنها سيارة فقد قائدها السيطرة عليها!

تصطنع المشكلات كل لحظة بشكل غريب وأنا أراقبها غير مستوعبة!

حاولت أن أتحدث معها لكنها رفضت كذلك قائلة كلمات متناثرة عن التخلي والفراق لم أفهمها!

كنت أعدها أختي بل وصديقتي الوحيدة رغم أنني لست صديقتها الوحيدة!

كنت حائرة وكان تبقى على الاختبارات أيام فقررت جدتي بحزم أن من الأفضل أن أركز على دروسي وأنسى الأمر.

وقد حاولت.

بعد أيام تغيبت فيها ولَم ترد على الهاتف لم يتحمل قلبي القلق الذي ينهشه أكثر فمررت على بيتهم بطريق عودتي.

فتحت الباب الخادمة التي أعرفها فدلفت طالبة منها أن تخبر إلهام بحضوري فبدت مترددة أن تناديها.

كدت أن أنصرف كي أتجنب الاحراج لكن صوتا عميقا ناداني.

كان والدها الذي بدا وكأنه كبر عشر سنوات عن آخر مرة رأيته!

قال بصوت يقطر بؤسا:

- هل تعلمي لم يسأل عنها أحد إلا أنت؟!

وهي التي كانت تهتم بالجميع طوال الوقت.

جلست على طرف الأريكة خجلة أن أسأل ماذا

أصاب أهل البيت بهذا الشكل المدمر ولَم يتأخر جوابه عن سؤال عيني فقال:

- والدة إلهام لن تعود لهذا البيت مرة أخرى!

وسيبقى الصغير معها حتى حين

لكن إلهام لا تتقبل هذه الحقيقة للأسف!

الآن اتضحت الرؤية وفهمت ما يجري

إلهام فقط مجروحة!

بعدما انجلت الحقيقة سمحت جدتي بحضورها لمنزلنا لنذاكر سويا علها تستطيع التركيز في الأيام الباقية.

كان والدها ممتنا للغاية لجدتي التي احتضنتها كأخت لي بكل حب وحنان مما خفف عنها كثيرا وساعدها لتجاوز الأزمة وبَقى رابط خفي يجمعنا هي ووالدها وأنا وجدتي بشكل ما كان الامتنان

موزع بيننا بين اهتمام جدتي بإلهام ورعاية أبيها لي ولجدتي.

ومرت الأعوام وتخرجنا وتزوجنا وسافرت إلهام للخارج مع زوجها وبقيت أنا هنا لكننا كنّا نتواصل طوال الوقت.

ثم عادت إلهام بذاك الوجه!

عادت وصممت أن تعود للعمل ولَم يكن والدها ليرفض لها طلبا!

لم تخبرنا لما عادت بأية حال وحتى متى ستمكث ولكنني لمحت ذاك الجانب الخارج عن السيطرة الذي ينم عن غضبها الشديد ولم أكن أستطيع مواجهته لذا آثرت الانسحاب وترك المساحة لوالدها ليتصرف!

لم تكن إلهام تقصد الإساءة لي أو لكم!

هي فقط فقدت بوصلتها

قلت بتأثر:

- لماذا؟!

فأكملت مؤكدة:

- لا أدري حقا.. حتى الآن ما زالت ترفض الحديث!

قالت ليلى وقد استغرقت بثنايا الحكاية:

- كان شعورا بالإشفاق تولد داخلي تجاهها بشكل أو آخر.

هل شعرت بذات الشعور؟!

فرددت بتأنٍّ:

- ربما.

فأكملت ليلى ببساطة:

- على أية حال الأمور الآن بين يدي لحين عودة

أستاذة لينة هكذا قرر الأستاذ سعيد.

قلت مؤكدة:

- هذا أفضل بأية حال.

قمت أضع الملابس بمكانها المخصص قائلة بكسل:

- بصراحة لقد أنقذتني يا ليلى كنت لأشعر بالملل لو لم تكوني هنا لقد أنجزنا الأمر.

أمسكت ليلى بشمس المتسللة من خلف ظهرها لتعبث ببعض القطع الباقية قائلة:

- تعالي أيتها المشاكسة!

انطلقت ضحكات شمس تحاول الهروب ولا تدع ليلى لها مجالا ولكن صوت مفتاح شريف بالباب جعل ليلى تعتدل واضعة حجابها بشكل مرتب.

فأسرعت لاستقباله قلقة من عودته بوقت مختلف

عن المعتاد كان يعبث بأدراج مكتبه باحثا عن شيء ما فقلت مستفسرة:

- ما الأمر؟! هل أنت بخير؟!

قال بكلمات سريعة:

- أنا بخير لكن ربما يفضل أن تطمئني على سوزان فزوجها ليس بخير!

الفصل السابع عشر

أحيانا قطعة ناقصة من حبات البازل، فقط معلومة وحيدة مفقودة من الحكاية تقلب كل شيء رأسا على عقب، تجعلنا ندرك كم كنّا مخطئين في فهم الواقع بعيدين تماما عن إدراك الحقائق.

كنت أحاول أن أفهم من بين كلمات شريف المبعثرة المنزعجة في طريقنا للمشفى فقال وهو يراقب الطريق أمامه:

- اتصل بي الزملاء، كنت في موقع بعيدا عن الشركة أخبروني أنه حال انصرافه من الشركة عائدا لمنزله ارتكب حادثا نقل بعده للمشفى..

فسألته بقلق:

- حسنا هل حالته خطرة؟

أجاب متوترا:

- لست أدري.. حين نصل سنرى الجميع هناك الآن.

أطرقت رأسي أدعو أن يسلم الله وينجو لزوجته وأطفاله.

أحاول تخيل حال سوزان الآن فلا يسعني إلا الدعاء لها.

كانت السيارة تطوي الطريق طيا وكأن الثانية دهرا من الزمن!

ليلى مشكورة اصطحبت شمس معها حتى أعود فليس المشفى مكانا مناسبا لتواجد الأطفال.

لم يكد شريف يوقف العربية حتى قفز خارجها وتبعته في عجلة ولهفة للاطمئنان.

في الاستقبال سألنا على رقم غرفته فأشاروا لنا لموقعها وأمامها وجدنا علي ونادر وكأن على

رؤوسهم الطير.

اقتربت من علا التي كانت تحاول بث روح الصبر لسوزان المنهارة كليا تهتف بكلمات متخبطة ذاهلة:

- أنا السبب!

أنا من وضعته بهذا الموقف أصب الكلمات المحرضة في أذنه صبا!

ليتني مت قبل أن أكون سببا في فقد أطفالي لأبيهم!

لفت علا ذراعها حولها تشد عليها:

- أرجوك اهدأي.. سيكون بخير

علينا فقط الدعاء له.

مررت بهم فكأن سوزان لم ترني من الأساس بينما هند ترمقهما بنظرة غريبة، سلمت على

ثلاثتهم وشددت على كف سوزان قائلة:

- لعله خير طمأن الله قلبك عليه ولا يصيبه أي مكروه إن شاء الله.

هزت رأسها شاكرة بعينين منتفختين من البكاء ووجه أكل منه القلق وشرب.

أمسكت هند بيدي تشدني وابتعدنا خطوتين تاركين علا تخفف عنها فسألتها بقلق:

- هل الأمر خطير؟!

رفعت لي عينيها بذات النظرة الغريبة وقالت:

- أعتقد إصاباته بسيطة بأمر الله الطبيب بالداخل لكن لا يبدو الأمر طارئا فقط اطمئنان روتيني أنه لم يصب بشيء.

قلت وقد زويت بين حاجبي بقلق:

- شكلك لا يطمئنني على الإطلاق!

ردت ببساطة:

- لم يحك لك شريف شيئا صحيح؟

قلت بحذر:

- عن ماذا؟!

قالت:

- عما جد بالشركة.

قلت بتلقائية:

- بلى حكى عن بعض المشكلات وأنه يعمل على مشروع هام للغاية يتنافس الجميع لتقديم أفضل تصور له، من يكونون أفضل ثلاثة سيبقون هنا بالشركة الرئيسية والباقون ربما يرسلون لأماكن أبعد ومشاريع أقل أهمية.

قالت وقد وقفت بمواجهتي:

- نعم هذا ملخص معظم التفاصيل تقريبا!

قدم الجميع ملفاتهم أخيرا.

الكل انتظر النتيجة بقلق.. كنت أنت مسافرة منذ فترة وكان علي ومالك وشريف و نادر يستبسلون لتقديم أفضل ما يستطيعون.

يتناقشون بشكل عام ويفرغ كل منهم رؤيته على الورق ومن خلال تصميمات دقيقة.

قال لي نادر منذ فترة أن مالك بدا غريبا مؤخرا في تصرفاته.

وكذلك بدت سوزان.

قلت لها وأنا شاردة:

- نعم فعلا .. لاحظت تطرقها للكلام عن الشركة بشكل غريب قبل سفري.

أكملت موافقة:

- نعم..

حين لاحظ نادر ذلك جلس مع مالك وسأله مباشرة:

- ما المشكلة؟!

لا تبدو كما عادتك!

لا تحمل هما سيوفقنا الله للخير إن شاء الله.

إلا أن مالك كان فاقدا لتماسكه تماما وقد تفصدت حبات العرق على جبينه:

- نعم.. نعم..

أنا فقط قلق بشأن المشروع القادم!

وأموري مع سوزان ليست على ما يرام!

أجاب نادر محاولا بثه بعض الطمأنينة:

- أقدر قلقك صدقني كلنا تعودنا طبيعة عملنا والموقع والشركة هنا، لكن يبدو أن كل شيء تغير ولا بأس سنحاول التأقلم مع الوضع الحالي.

ثم ضحك قائلا:

- لن تكون أول ولا آخر مشكلة نمر بها ! كم دقت على الرأس الطبول!

حاول مالك الضحك مجاريا إياه ولَم يعد لفتح الأمر مرة أخرى!

لكنهم لاحظوا تباعده عنهم دائما متعللاً بانشغاله بالإعداد لملفه الخاص للمشروع وكذلك سوزان صارت تتباعد عنا بحجج مختلفة لم نعد نهضمها.

ومضت الأيام كذلك طوال سفرك وقدم الكل ملفاتهم ليلة سفر شريف وتسلمها المدير على وعد بقراءتها وأخبارهم بالملفات الثلاثة الأفضل التي اختارتها الشركة.

قلت ساهمة:

- نعم كان شريف قلقا جدا حقا أثناء السفر

وأخبرني بذلك وسمعته يحادث على زوج علا يسأله عن النتائج حال عودتنا لكنه طمأنه أنها لم تظهر بعد.

ردت هند قائلة بنزق:

- الكل كان قلقا إلا مالك!

كان مطمئنا بشكل يناقض قلقه السابق بشكل غريب جدا كما أخبرني نادر.

ولكنهم لم يعيروا الأمر اهتماما.

واليوم حدث ما فجر المفاجأة!

كدت أفتح فمي متسائلة عما حدث لكنها كانت تنظر وراء ظهري باهتمام فالتفت لأجد الطبيب قد خرج فهرع الجميع متسائلين ولكنه أجاب بلهجة عملية:

- ليس هناك أي إصابات مقلقة كلها سطحية

يحتاج فقط للمتابعة وربما يخرج غدا.

سألته سوزان بلهفة:

- هل يمكنني الدخول إليه الآن؟

فقال مؤكدا:

- نعم لكنه يحتاج للراحة فقد أعطيناه مسكنات حتى يرتاح حاليا ولا داع لازعاجه بكثرة الكلام.

قلت لها مطمئنة:

- المهم أنه بخير.

فتراجعت شاكرة الطبيب.

خرج الجميع عائدين لمنازلهم بعد ساعات عصيبة بكل الأحوال.

ولَم أفهم بعد ما حدث اليوم لكن شريف أصر على العودة للمنزل، كانت عيناه تمتلآن بريقا مخيفا من الحزن والغضب يقود بصمت لم أعتده ويعني

أن هناك كارثة لا أعرفها، هاتفت ليلى شاكرة إياها على جميل صنيعها وتحملها مخبرة إياها أنني بالطريق للمنزل وسأمر لأصطحب شمس، أغلقت المحادثة والتفت لشريف محاولة فهم سر بركان غضبه الموشك على الانفجار بحذر لئلا نقع بين طوفان الحمم:

- حبيبي هل تخبرني ما يزعجك؟!

ابتسامة واسعة ارتسمت على وجهه وقال متهكما:

- وهل أبدو منزعجا حقا؟!

قلت بهدوء لا ينم عن قلقي المتزايد بتخبط داخلي:

- نعم يبدو ظاهرا جدا، أرجوك يا شريف أفصح فقد زاد قلقي!

قال منفجرا:

- لا شيء!

حقا لا شيء يذكر غير أن عشرة عمري مع صديقي لم تعد تعني أي شيء!

لم يتعامل بالمهنية التي كنت أنصحك بها!

بل انزلق للخسة للوضاعة!

قلت متفاجئة:

- أي صديق كنت تقف مع نادر وعلي ولَم يبدو أن أحدهما سبب مشكلة؟!

قال وقد بدأ صوته يعلو:

- لا يا جميلة علي فعلا صديقي جاء الشركة بعدي بعدد من الشهور ونادر بالأساس صديق مالك تعرفت عليه من خلاله.

لكن صديقي الذي جاء معي هنا ومن قبلها كانت عشرة عمر خلال دراستنا الجامعية هو من نسى

على ما يبدو سهوا معنى الصداقة!

قلت بذهول:

- مالك؟!

قال وقد التفت إلي:

- نعم مالك، هل تتخيلي ذلك يا جميلة؟!

ذاك الذي كنت حين أكلمك عن المهنية أخبرك لكن الأصدقاء القدامى كمالك وأنا لهم شأن آخر!

كان يحدثني ناظرا إلي وقد ازدادت سرعة السيارة لسرعة جنونية وهو غير عابئ بالطريق ولا بأي شيء فقلت بفزع:

- شريف أرجوك راقب الطريق!

نظر أمامه وطرق بكفه المقود في غضب وقال بصوت خفيض:

- حسنا!.. هذا ما حدث كما حكى لي نادر وعلي.

الحمدلله أنني لم أكن بالشركة اليوم حقا لم أكن لأتحمل.

بالكاد أحاول ألا أجن منذ سمعت الحكاية فماذا لو كنت هناك؟!

قال لي علي:

- كان صباحنا في الشركة عاديا كأي صباح؛ كل في مكتبه يهتم بأشغاله حتى نادانا سكرتير المدير قائلا أن هناك اجتماع عام، طريقته في إلقاء الخبر أوحت لنا أن هناك أمرا.

توجه الجميع للمكتب وما إن جلسنا حتى بدأ المدير كلامه قائلا:

- لقد اطلعت على الملفات جميعا مع اللجنة المسؤولة لكن ما أدركناه ونحن ندرس بعض الملفات ونسأل أصحابها في تفاصيل مشاريعهم

كان مثيرا.

البعض زعم أن الملف ناقص وأن قدمه محتويا على تفاصيل أكثر وأن بعض الصفحات مفقودة!

وهناك مشاريع بدت أجزاء كاملة منها متطابقة بما لا يدع مجالا للشك أنه ليس من قبل التشابه العفوي وتوارد الأفكار!

كان المزمع إعلان النتيجة اليوم لكن مع هذه الملفات غير المكتملة والأخرى المتشابهة ضاع جهد الجميع!

الآن أحتاج أن أعرف من المسؤول عن تلك الكارثة؟!

خيم القلق وعدم الراحة على الجميع ولكن المدير أكمل قائلا:

- سيجرى تحقيقا وقد بدأ بالفعل مع الشخص الذي

كان مكلفا بجمع الملفات فكلها كانت بحوزته وفِي مكتبه.

ثم مد يديه يعقد كفيه معا على المكتب أمامه رافعا عينيه يواجه الجميع:

وفِي الحقيقة لقد اعترف ببعض المعلومات سنتحقق منها ونجازي كل من تسبب في ذلك!

وقف نادر وعلي خارج الغرفة يتسائلان ترى ماذا يجري حقا؟ لكن صوت جلبة بغرفة قريبة جذبهما إليها وما إن اقتربا حتى رأيا مالك غاضبا يتحدث مع الشخص الذي كان يجمع الملفات، كان يبدو نقاشا حادا وتهديدا مزدوجا من كلاهما يشي بالكثير ما إن لمحهما مالك حتى ابيض وجهه وخرج من الشركة كلها.

بعد ساعة أعلن أن مالك متورط حقا للأسف مع

هذا الموظف؛ لقد اطلع على جميع الملفات وأعد مشروعا يجمع كل مزايا مشاريع الآخرين، لقد سمح لنفسه بسرقه أفكارنا جميعا.

ولَم يكتف بذلك بل أنقص كل ملف بعض أوراق في محاولة لإخفاء التشابه بين ملفه وهذا الملف المسروق منه وليكون مشروعا غير منظما ولا واضحا أيضا!

أوقف السيارة أمام بيت ليلى فجأة فندت عني صرخة لكنه أكمل:

العجيب أن أكثر مشروع أعجبه كان مشروعي!

أكثر ملف اقتبس أو سرق منه كان ملفي!

أكثر ملف حرص على إفساده كان ملفي أنا!

تاهت الكلمات فعجزت عن مواساته، كنت أراقبه يودع.. يكبت ألما أعرفه.

يرفض الاعتراف أنه أول من كسر قوانين المهنية خاصته.

فكيف له أن يعتبر مالك الصديق والأخ منذ سنوات طويلة مجرد زميل؟!

بل كيف يقبل مالك ذلك فينافسه منافسة غير شريفة ضربا تحت الحزام كما يقولون؟!

ربما ليست المهنية فقط المطلوبة بل بعض الشرف وبعض التحلي بحسن الخلق وإلا صرنا في غابة!

وهذا هو ما أفاق عليه شريف.

غابة يأكل القوي الضعيف بمبرر المصلحة ببساطة.

انتقلت أرض المعركة للغابة.

وهناك حبيبي لا يتقن قوانين اللعبة القذرة.

أصعب شيء أن صِمَام الآمان ذاك الذي كان يبقيه هادئا ضربته تلك الهزة في مقتل.

فما عاد يملك الاستقرار النفسي والحسي الذي يعينه، صار متخبطا بمشاعره بين آفاق حزنه.

صديق العمر.

أي صديق الذي خان؟!

وأي عمر الذي ضاع كثير منه مع من لا يستحق؟!

نزلت لأحضر شمس فقابلتني ليلى تتساءل بقلق:

هل صديق زوجك بخير بعد الحادث؟!

وكأن سؤالها آلمني فقلت ببعض تماسك حاولت رسمه:

- نعم بفضل الله.

وبداخلي شيء يصرخ لا!

هو ليس بخير ضميره مكسور معطوب!

لا، ليس صديقا من الأساس!

لم يكن الحادث ما جرى له وقتما هرب من مواجهة الكارثة التي فعل بل الحادث هو خيانته التي انفجرت فأصابت الجميع وكسرت قلب زوجي!

لاحظت ليلى شرودي فقالت مواسية:

- تبدين مرهقة للغاية حاولي أن تحصلي على قسط من الراحة قبل الدوام غدا.

وكأنها ذكرتني بما نسيت لقد انتهت الأجازة وغدا عودة الدراسة!

* * *

في الصباح كنت أعود لروتيني المفقود خطواتي اليومية الطبيعية للاستعداد للذهاب للمدرسة.

كانت شمس سعيدة للغاية تدور حولي قفزا في حلقات من فرط التشوق والسعادة.

أبهجتني فرحتها رغم كل شيء لكن شريف بدا منهكا الإنهاك الناجم عن أذى نفسي ربما يفوق الإرهاق البدني بمراحل هذا ما لاحظته فور رؤية وجهه الشاحب قليلا.

لكن برغم كل شيء ليست أي صدمة هي نهاية الكون، ليس أي حزن أول ولا آخر محطة في حياتنا بل يبدأ كبيرا مفاجئا جارحا ثم يصغر تدريجيا حتى يتناسى تماما بعد فترة وقد طغت عليه أحداث أخرى كثيرة حتى نتفاجأ أننا نسيناه نحن الذين أقسمنا أنه جرح وضع بصمة لا تزول في حياتنا.

نعم كنت أعول على الزمن بعد التوكل على الله

طبعا ليعين شريف على تقبل أو نسيان تلك الحقيقة القبيحة التي صدم بها.

لأن تصدم في صديق فهذا يعني جرحا أليما لأنه كانت آثاره بادية بعينيه مهما حاول مداراتها!

الجرح حين يأتي من قريب ينفذ حقا للداخل..

لأننا نكون متوجهين إليه بكليتنا متحفزة داخلنا خلايا استقبال السعادة والفرحة..

نائمة خاملة خلايا الدفاع عن النفس في ثقة أن لا تهديد منه..

تأتي الطعنة فتخترق الروح والجسد بعنف..

عنف المفاجأة..

قبل الألم..

العجيب أننا ننسى أو نتناسى بعدها يرفض عقلنا أن يصدق أن هذا حدث رغم النزف والألم..

لكن الإنكار وسرعة قبول السماح يكون أقل ألما من تصديق الواقع..

قلت مبتسمة:

- صباح الخير.

رفع شريف رأسه مغمغما وهو يكمل إنهاء هندامه:

- صباح الخير، هل أنت جاهزة؟!

قلت بحنان:

- نعم فور انتهائك أكون كذلك.

كنت متشوقة للعودة للمدرسة، للعودة لحبات السكر خاصتي ورؤية ليلى وحلا، بل متشوقة لرؤية حتى جدران المكان، حتى إلهام اشتقت لرؤيتها!

خطوت للداخل بأعين لامعة عطشى لكل

تفاصيل المكان لأجد حلا تهرع إلي تحتضنني بحب صاف كوجهها الملائكي قائلة بحبور:

- جميلة افتقدتك حقا!

كيف حالك وكيف صحتك وكيف كانت أجازتك؟

توقفت بعد سيل الأسئلة أخيرا تاركة لي مساحة من الوقت فأجبت ضاحكة:

- بخير حال الحمدلله يا حلا!

أنا أيضا افتقدتك جدا جدا!

بعض الناس يملكون نقاءا تكاد تجزم أنهم لم يتعاملوا مع البشر، لم تتلوث فطرتهم النقية من مخالطة الآخرين بسواد قلوبهم المعدي، هكذا كانت حلا!

تذكرني كل يوم بضرورة تذكير نفسي بالحفاظ على قلبي وروحي واقتباس كل حلو من الآخرين

ومحو ما قد يلوث روحي من كره أو بغض أو حقد أولا بأول.

داخل غرفة المعلمات كان سيلا من الأحضان والقبلات وعبارات الترحيب.

بعضها كان من القلب تستشعر حرارته وبعضه كان مصطنعا باهتا باردا ترتجف روحك انزعاجا منه.

عدت لصفي فسمعت صيحات الفرح البريئة ترحبا بعودتي الكثير من أحضان وقبلات لا أصدق منها، منهل براءة يروي الروح.

ها قد عدت!

وبداية جديدة بعد وقت مستقطع.

الفصل الثامن عشر

بداية جديدة

خرجت من الصف وقد شعرت بإرهاق شديد، ويبدو أن جسمي يحاول أن يتذكر هذا الجهد الذي كان نسيه بالإجازة!

كخير لقاء كان لقائي بجولي في تلك اللحظة كدلو من ماء بارد صب فوق رأسك بالشتاء القارص

بدت كلماتها:

- جميلة كيف حالك؟ سمنتِ كثيرا وبرزت بطنك، كيف سيصير شكلك بالشهر التاسع إذن؟!

حاولت رسم أي انفعال لطيف على وجهي قائلة ببرود يليق بها:

- عقبالك!

قهقهت واضعة أطراف أصابعها على فمها

مردفة:

- شكرًا! بصراحة لا أكاد أتمالك نفسي من مظهرك!

لم أملك رد فعل مناسب لتعمدها إغاظتي سوى الانصراف من أمامها مكملة الرواق في طريقي لغرفة المعلمات.

مررت بجوار غرفة أستاذة إلهام متذكرة ما كان بيننا آخر مرة فطرقت الباب برفق راغبة في بداية جديدة أجابت بصوتها من الداخل سامحة بالدخول، دسست رأسي من فتحة الباب فوجدت ليلى بصحبتها فزاد شعوري بالراحة وخفف وجود ليلى من حرجي.

درت حول المكتب معانقة أستاذة إلهام وقلت:

- عودا حميدا إن شاء الله

كان صدرها رحبا وعلى ما يبدو قلبها أبيض ونسيت ما مر فأراحني هذا كثيرا.

جلست مقابل ليلى أمام مكتبها فقالت ببشر:

- هل تعلمين يا جميلة نحن مدعوون لحفل خطبة ليلى الصغيرة ستتزوج!

قلت مازحة:

- نعم أعلم! ولكنها الخائنة لم تخطب إلا وأنا بحالي ذاك! أي فستان مناسبات سيناسبني الآن!

تعالت ضحكات ثلاثتنا بشكل مرح وأجابت ليلى بغضب:

- أيا ناكرة الجميل انتظرت عودتك من السفر هل أنتظر ولادتك أيضا؟!

أنت تريدينني أن أجلس جوار أمي للأبد على ما يبدو!

قلت ضاحكة:

- لالا! فأل الله ولا فألك! لنخلص الوالدة الغالية منك أفضل لقد ملت المسكينة من الانتظار!

بعض الأوقات تتسلل فيها لحظات مرح خارج نطاق التفكير خارج نطاق الحسابات والاعتبارات الشخصية!

لحظات تبدو كومضة أو شهاب عبر السماء مسرعا.

لحظات من عمر إنسانيتنا دون أي اعتبارات أخرى..

أكدت ليلى بصوت سعيد:

- نعم لقد انتظرت تلك اللحظة كثيرا! ستشرفيني بحضورك أستاذة إلهام!

قالت إلهام برفق:

- لا أعلم كيف ستكون ظروفي بالأيام القادمة لكن سأحاول!

شيء من حزن عصف في عينيها فجأة واحترت أمام فهمه!

بعض العلاقات محيرة تجمعنا قشرة الإنسانية الخارجية ربما حديث أو حوار لكن عمق ما يكنه قلب كل منا لا يملكه إلا صديق قريب، تمنيت لو أزيح عنها ما تشعر من هم لكنني لا أملك المساحة لمشاركتها شيء خاص كهذا!

طرقات على باب المكتب أوقفت تأملي، قامت أستاذة إلهام بسعادة لتستقبل القادمة بينما ابتسمت ليلى برضا لكنني كنت الوحيدة التي حملت أطنانا من الدهشة حين رأت أستاذة لينة، نعم هي بشحمها ولحمها هنا أمامي!

قطع دهشتي صوت إلهام قائلة بود:

- مرحبا بعودتك!

أجابت لينة بتفهم:

- لا حرمني الله منك!

عناق صامت كان حظي من اللقاء انصرفت بعدها أنا وليلى تاركين لهما مساحتهما الخاصة.

فور خروجي من الغرفة قلت لليلى:

- كنت تعلمين أنها آتية؟!

ضحكت من الغيظ الظاهر على وجهي قائلة:

- صدقيني لا فارق!

سواء علمت أم لا للمفاجأة وقعها حقا!

لكن نعم كنت أعلم أخبرتني أمس!

أريد أن أتفرغ لحياتي كعروس!

أتبعت كلماتها بقهقهات خافتة مرحة دفعتني

لأقول مشاركة إياها:

- بل أجمل عروس!

لفرحة المقربين طعم خاص تذوق حلاوته في فمك حقا ، وكأنها فرحتي أنا!

عادت أستاذة لينة، تباينت ردود الفعل حيال ذلك فهناك من استبشرت بعودتها فرحا بعودة الاستقرار والنظام وهناك من لم تفرح حقا فقد أحبت عدم وجود قوانين وضوابط، أحب الفوضى بمساحاتها الفضفاضة، وهناك نوع ثالث من استشعرت قرب الحساب على ما فات وهذه كانت جولي بشكل خاص.

بدت المدرسة على حافة تحول جديد ينتظره الجميع بين شغف وبين انزعاج.

ترى ماذا دار بالمكتب؟

ماذا قالت إلهام وبماذا ردت لينة؟!

كيف بدا الأمر؟

لا أدري ولن أدري أبدا..

كل ما علمته أنه بنهاية اليوم جاءتنا أفكار بغرفة المعلمات قائلة:

- أستاذة جميلة، أستاذة ليلى وأستاذة حلا أنتم مطلوبون في مكتب أستاذة لينة!

تبادلنا نظرات تبحث عن إجابة لكن يبدو أن كل منا حملت ذات التساؤل ولا إجابات!

وإذا علم النبأ ذهب العجب!

هذا ما دار بذهني.

في مكتب أستاذة لينة استقبلتنا بابتسامتها المعهودة، بدت مرتاحة تماما في مكانها وكأنها كانت هنا كل يوم ليس عائدة بعد وقت مستقطع،

ربما لأنه مكانها المناسب!

دارت عيني حولي دون قصد فقالت بابتسامة رفيقة بفضولي:

- إلهام ليست هنا.

ثم عانقت نظراتها المكتب هامسة بحروف شبه مطموسة:

- فضلت الانصراف بهدوء لم ترغب في أي وداع من أي نوع.

ثم رفعت رأسها مستعيدة ابتسامتها:

- لكن كل شيء سيكون على ما يرام!

ستكون بخير بإذن الله.

ثم كتفت ذراعيها مكملة:

- ونحن أيضا سنكون كذلك معا بأمر الله.

لم يجبها إلا الصمت.

لا أدري هل هو صمت دهشة أم سعادة بعودة الأمور لمجراها!

لكنها أكملت بحماس:

- معكن سيكون كل شيء بخير بأمر الله، لقد كنت مخطئة، الإدارة ليست شخصا واحدا.

سيكون هناك فريق مصغر من المعلمات لا المشرفات لمساعدتي وسيتم تغييرهن كل فترة.

بالمناسبة أنتم فريقي المختار الأول.

قالت حلا بتساؤل:

- وماذا سيكون دورنا؟!

أجابتها بتلقائية:

- الدور الذي قمتم به بالفعل في غيابي! محاولة الحفاظ على القسم وتنميته وتعلم المزيد عن المهارات الإدارية!

فريق عمل أفضل كثيرا من أن يعتمد العمل علي بشكل شخصي.

قالت ليلى:

- وجولي؟!

بان الانزعاج على وجه لينة وقالت:

- ربما تكون في لجنة مشابهة وقت آخر لكن بعد كل ما جرى أثناء غيابي لن تشارك في تلك اللجنة.

تخيلت غضب جولي فقلت محاولة مساعدتها على القرار الصحيح:

- لكنها الأقدم! أنا أتنازل لها عن مكاني، خاصة مع ظروفي الصحية الحالية و..

لكن أستاذة لينة قاطعتني بحزم:-

ليست قطعة من الحلوى تؤثر كل منكم الأخرى

بها، إنها مسؤولية وهي تكون للأقدر والأكفأ والأكثر حرصا، وجولي لها حديث آخر بهذا الشأن.

الكلمة الأخيرة دائما للقائد ولينة خير من يحسن ذلك بكل ذوق وأناقة وحنكة!

خرجت من المكتب شاعرة أن القادم أفضل، أيا كان ما مر لقد تعلمت منه الكثير.

استأذنت ليلى وحلا للعودة لفصولهن بينما ذهبت أنا لغرفة المعلمات أكمل وقت راحتي.

ما إن خطوت أول خطوة حتى لاحظت خلو الغرفة من أي أحد ولكن ورقة لامعة الأطراف كانت على المنضدة مع بعض دبابيس تثبيت بجوارها.

كانت أول مرة أراها قبل أن تثبت على اللوحة

أمسكتها أشتم رائحتها الفواحة تلامس أناملي إطارها برقة وعيناي تعانق كلماتها، تلك اللوحة التي صارت جزءا لا يغفل من يومي!

نقطة ومن أول السطر!

هل تعلمين يا صديقتي لم تعد النقطة حتى كافية..

هي تعني بدء سطر جديد..

لكنني أحتاج لقلب الصفحة تماما..

بل ربما أحتاج أن أتخلص من الدفتر كله وأشتري آخر جديد!

بصفحات بيضاء ناصعة تعيد لي شغف البدء من جديد!

كانت الكلمات مصفوفة على ورقة بيضاء بطرف أسود لامع مميز..

رفعتها فرأيت أخرى تحتها بلون رمادي

وأطراف فضية كنت آكل الكلمات بعينيّ بنهم..

ورقتين بيوم واحد!

كنقطة سوداء لوثت بياض صفحة ناصعة..

هل حقا كانت ناصعة قبلها؟!

أما كانت مليئة بنقاط سوداء صغيرة للغاية من فرط كثرتها وتراكمها غشيتها سحابة رمادية وبمرور الوقت اندثرت!

وبدت صفحة ناصعة!

رغم أنها لم تكن كذلك يوما

رغم أنني لم أكن الوحيدة التي أضافت لها نقطة!

لكن أصابع الاتهام لم تحد عني والعيون ما لبثت ترمقني شذرا كأنني المجرمة الوحيدة بالكون كامل الطهر!

مسحت نقطتي بدموعي معتذرة فتركت أثرا باهتا

كالنقاط التي سبقتها كان هذا كافيا ليسعدوا..

وانصرفت بعدها بروح باهتة رمادية فقدت نورها مع فقدان رأيها.

كانوا سعداء أن صرت مثلهم!

يهللون بفرحة وصرت أبتسم، أمثل السعادة بينهم كأنني فعلا فرحة..

وبداخلي حزن دفين على ألواني التي ضاعت وفقدت!

وضعت الورقتين وقد سمعت خطوات مقتربة فرجعت للخلف متأهبة هل هي صاحبة الأوراق حقا؟!

فتحت باب الغرفة بثقة ألا أحد بها، أمسكت الورقتين محتارة ثم انتقت البيضاء وجعلت الأخرى على المنضدة بحرص، مدت يدها

للورقة تثبتها بطريقتها المحترفة وهي تقرأ كلماتها بصوت معبر.

كنت متجمدة من الدهشة حتى أنها لم ترني!

ولكنها حين التفتت لتنصرف اصطدم بصرها بي فقالت بصدمة:

- أستاذة جميلة!

نعم لقد كانت هي!

من غيرها تعرف متى تصير الغرفة فارغة؟!

من منا تملك مواعيد الجميع غيرها؟!

قلت مذهولة:

- أفكار!

كنت أنت من البداية!

كيف لم أعرف أنها أنت؟

مدت يدها تغلق باب الغرفة بارتباك تلملم

الأغراض بسرعة لتجمعها في حقيبة صغيرة بشكل يبدو أنها اعتادته كثيرا ثم قالت بعدما تأكدت أن كل شيء انتهى:

- نعم كانت كلماتي وأحببت أن أتشاركها معكن!

قلت وقد اقتربت منها ببهجة:

- كلماتك رائعة! لمَ لم تذيليها بتوقيعك؟!

هزت رأسها رافضة الفكرة:

- لا ليس الأمر فكرة لمن الكلمات فقط أردت أن نعيش معانيها معا!

كل منا ربما تعطيه معاني أخرى وإسقاطات مختلفة.

تتسلل لروحنا وداخل قلوبنا.

لم أرد أن يربطها أحد بشخصي أو أحداث حياتي أو عملي!

ثم أكملت وقد احمرت وجنتاها:

- حسنا أنا أيضا خجولة.

ضحكت مربتة على كفها الصغير قائلة:

- مادامت رغبتك سيكون سرنا الصغير.

رفعت إلي عينين لامعتين قائلة:

- حقا! شكرًا لك!

دق هاتفها كان اسم أستاذة لينة يتوسط الشاشة فانصرفت مسرعة لا تلوي على شيء وبقيت أنا أتأمل الكلمات مرة أخرى أتذوقها كما أحب دائما، لقد عرفت صاحبة الكلمات!

أفكار.

دائما ما كانت قليلة الكلام، تتكلم بشكل عملي للغاية تحمل أوراقها طوال الوقت لم تعطني أي انطباع برهافة الحس لديها لكنها كلماتها تحكي

عنها الكثير!

ربما بعض الناس نراهم من خلال كلماتهم أكثر من أن نراهم عبر مظهرهم الخارجي.

وكأنه قناع تخبئ داخله حقيقتها المميزة.

- لا أريد أن أقطع تأملك اليومي لكن احذري ماذا؟!

كانت تلك ليلى التي جاءت بنبأ هام على ما يبدو!

قلت مستفهمة:

- ماذا!

قالت بفخر:

- سنبدأ تدريب الحفل!

قلت ببساطة:

- حسنا لا بأس!

كالفقرة التي أعددناها من قبل؟!

ضحكت معلنة:

- لا بل حفلة حقا بكل التفاصيل.

اسمحي لطاقاتك الإبداعية بالخروج لأرض الواقع.

ثم رفعت أصابعها تعد بثقة:

- ملابس خاصة لكل صف من تصميمك.

ثم رفعت إصبعا أخرى مكملة:

- حركات رشيقة لا أدري كيف مع بطنك المنتفخ هذا؟!

ورفعت إصبع ثالثة قائلة:

- بالطبع قبلهم جميعا أغنية مميزة تنسقي معها ما سبق.

رفعت كتفيها مفصحة:

- عرض كامل لك ولحباتك من السكر!

كنت أحاول تخيل المجهود البدني والذهني المطلوب (خاصة أنني لا أملك أي خبرة بالموضوع) مع وضعي الصحي الحالي فأصاب بالدوار!

وضعت حقيبتي على كتفي وخرجت قائلة:

- الحمدلله أن شريف وصل! سلام يا ليلى! يا مفاجآتك!

ثم توقفت وقد كادت العبرات تسيل من عيني من الصدمة قائلة:

- أنت تمزحين صحيح!

هزت رأسها نافية ومدت يدها ببعض أسطوانات مدمجة قائلة برفق:

- على هذه الأقراص بعض نماذج من حفلات سابقة، حسنا صدمتك بالواقع لكن لابأس سنكون

معا!

سنكون معا!

كانت كلمتين كافيتين جدا لتقديم الدعم الكافي!

فلوحت لها مودعة.

كل يوم أكتشف مهام جديدة لم أتخيل أن تطلب منى يوما كمعلمة روضة!

وها قد اكتملت بعرض!

الفصل التاسع عشر

نظرة انزعاج ظلت تتأرجح بين جفوني ترمقها حلا كاتمة ضحكة تكاد تفلت من بين شفتيها ملوحة لي بكفها بينما أنا أدرب أطفالي يوميا لحفل التخرج، بينما ليلى تكتفي بنظرة حانية مقدرة ما أمر به، تقف تساعدني أحيانا إذا سمح وقتها في مؤازرة يندر وجودها!

لا أدري هل كانت مساعدتها من باب الصداقة فقط؟ أم أن بطني التي صارت أمامي تأن منها قدماي مع علمها بتفاصيل مرضي جعلوا قلبها الأبيض لا يتحمل تركي وحدي في مواجهة هذا التدريب الشاق على جسمي الواهن بتلك الفترة؟

رغم كل شيء لقد عرفت أخيرا خريطة الفايبروميلجا بين عروقي وعضلات جسمي.

صرت أفهم كيف أتصرف إذا شعرت بهذا وما معنى شعوري بذاك متقبلة الأمر بصدر رحب يساعدني في ذلك مساندة شريف وليلى وأسرتي تلك المساندة التي علمتني أن الإنسان يستطيع أن يواجه أي شيء فقط لو أعطيته القوة اللازمة من الحب والاحتواء والمساندة.

لم يخبرني أحد أنني يجب أن أكون مدربة رقص محترفة للأطفال أيضا خصوصا أنني أمر بالتجربة لأول مرة فأحتار في تفاصيل الحركات والملابس المفترض تجهيزها ومن أين والديكورات وكل تلك المعضلة التي هبطت على رأسي!

وقفت أستاذة لينة بجانبي تتابع حركاتي وليلى متابعين الأطفال و محاولة تعلمها وتقليدها

فينجح بعضهم ببراعة ورشاقة مذهلة بينما يبدو البعض الآخر مضحكا كمهرج بطريقته المختلفة في تقليد الحركات ولكنها براءة الأطفال على أية حال!

همست أستاذة لينة بعينين لامعتين حتى لا تشوش على الأغنية وانسجام الأطفال في التدريب:

- يتحسنون كثيرا يا جميلة!

ستكون فقرة جميلة ومميزة إن شاء الله.

ابتسمت بوهن ممتنة لدعمها الدائم :

- نعم إن شاء الله!

ثم أردفت بلهجة شابها القلق:

- أنا فقط أخشى أن بعضهم خجول فربما لا يملك الجرأة للأداء أمام جمهور!

قالت بثقة:

- لا تحملي هما فقط أحسني التدريب حتى الإتقان و لا تخشي شيئا وسيبهرونك!

التدريب المستمر يساعد كثيرا وتجربة الأداء علاج في حد ذاتها للخجل الزائد إن اهتممنا بها بالشكل المناسب.

كنت أستمع نصحها بسعادة أتشربها بثقة أنها معلومة ثمينة موقنة أن عودتها تعني الكثير وتحمل الكثير من الخير للقسم.

وفِي آخر الأسبوع كان موعد الحدث السعيد تأنقت أنا وصغيرتي للذهاب لحفل مبكرا.

بقى شريف مع والد ليلى وباقي المدعوين بينما تسللت أنا (تاركة له شمس) لغرفة العروس.

صحبتني أم ليلى مرحبة فطرقت الباب ودلفت هاتفة بسعادة:

- من العروس اليوم؟!

أجابت المزينة بضحكة وأجابت ليلى بمرح:

- أنا أنا.

احتضنتها معطلة عمل المزينة وكل شيء، اغرورقت عيني بالدموع ، دموع الفرح بالطبع.

أبعدتها قليلا أتأمل ملامح وجهها الرقيقة المزينة برقي وتصافح عيني تفاصيل فستانها الرقيق بلونه الأخضر وفصوص لامعه صغيرة تناثرت بين النقوش المميزة التي زينت جانبا منه بشكل مبهر فقلت بابتهاج:

- أجمل عروس أختي الصغيرة أنا!

كادت ليلى تشاركني دمعات الفرح لكنني مسحتها قبل أن تفسد زينتها تاركة المزينة تكمل عملها بترتيب خصلاتها.

انبعثت بالمنزل أناشيد الأفراح بكلمات حلوة ذات معاني معبرة لم أكن سمعت مثلها من قبل ولَم أعتدها بالأفراح ويبدو أن شيئا من الدهشة ظهر بملامحي فقالت ليلى ضاحكة:

- هذه أمي قالت لن تبدأ ابنتي حياتها بمعصية لن يكون هناك إلا ما يرضي الله وقد أذعنت لها فقد أقنعني منطقها.

قلت لها معقبة:

- ليت هناك من نصحني مثل تلك النصيحة الغالية لخير ما نبدأ به حياتنا أن نبدأها بطاعة لا معصية.

مرت الأحداث سريعا بعد ذلك تكرر حضور أم ليلى تتعجل المزينة لإنهاء عملها لأن المدعوين جميعهم بالخارج.

لم يكن الحضور كثر زميلات ليلى وبعض

الأقارب فقد كان احتفالا بسيطا بعقد القران تمهيدا لعرس قريب يجمع الجميع في حفل كبير.

ساعات سعيدة بتداول كلمات المباركة والتهنئة والدعاء للعروسين ثم ودعنا ليلى تاركين لها وقتها مع العريس وأسرتها.

بعض الأيام في حياتنا تكون مميزة تكون حقا أياما لا تنسى كنت واثقة أن هذا اليوم سيطبع في ذاكرتي للأبد كيوم من أجمل الأيام وهل هناك أجمل من أيام الفرحة لمن تحب؟

تعاقبت الأيام بين تدريب للحفل وتدريس لما بقى من المنهج وتعاون إداري جديد، كانت المدرسة كخلية نحل لا تهدأ أبدا.

بقيت أيام الاختبارات يعقبها الحفل.

هل مرقت الأيام حقا بهذه السرعة؟!

انقضى عام دراسي كامل منذ جئت إلى هنا؟!

عام تغيرت فيه كثيرا واضعا بصماته على عقلي وروحي بكل أفراحه وأوجاعه وأشخاصه الكثر!

الاختبارات وما أدراك ما الاختبارات!

لأيام الاختبارات نكهة خاصة جدا في مرحلة التمهيدي ..

شعور بالحصاد بعد عام كامل من العناية ببذرة شديدة الرقة والحساسية..

نتيجة جهد ومثابرة وتواصل..

مع كل ورقة حصدت أعلى تقدير (ممتاز)..

كأنك كمعلمة اكتسبت نيشانا جديدا..

مع كل ورقة لطفل له ظروف خاصة أو مشكلة فكرت فيها ليال وتواصلت مع الأم وبحثت كيف

تعالجها.. تواصل مكثف مع الأم.. لفهم أبعاد المشكلة.. لا تدري هل أنت تسانديها في مشكلة تحتار معها.. أم هي تساندك.. تعملين معها كفريق حل مشكلات لتجدوا الحل معا..

تتخذي خطوات تدرسي جدواها.. تملكي من الشجاعة الاعتراف بخطأ الطريق وتعودي لتبحثي عن حل آخر..

تتسلمي منه الورقة لتتعلمي أخيرا أي طريقة كانت أنجح..

تكادي تقفزين فرحا معانقة إياه مع نظرة شكر وفخر وكلمات التشجيع تتزاحم على لسانك..

ترين آخر للأسف لم يجار الآخرين.. تدعمينه.. تقول نظراتك بعمق عينيه أنك تثقين به..

تتلمسين بحنو عمق جرحه.. شعوره بالإخفاق..

بالدونية.

تحكم هائل بأعصابك كي لا تنفجرين في وجهه.. لقد قلتها بدل المرة ألف.. لا تكن غبيا.. تستدعين كل مشاعر الأمومة لتتقبليه كما هو.. مؤمنة أنه متميز في حد ذاته.. وسيصل يوما ما.. كثيرا ما ألمح بين لمعة عيونه شكرا بلا حدود على ثقة وحب يشعر أنه ربما لا يستحقها لتقصيره كما يظن..

أعد ورقاتي آخر اليوم.. أحصي كم نيشانا حصدت؟!

"هل تسمحين لي بالجلوس بجانبك؟"

قالتها بخجل لين ذات الخمس سنوات وعينين مبتسمتين..

- تفضلي بالطبع

أجبتها بحنان

جلست بجواري تقترب من حين لآخر تمنحني بسمة وتعود لمتابعة الكارتون على الشاشة..

فهمت الصغيرة أنها ستنال إجازة طويلة تكون بعدها بصف جديد.

نظرة للأوراق ونظرة للصغار حولي يلعبون..

أخيرا بعد دقائق طويلة من التركيز والكتابة..

نظرة للأوراق ثانية .. ثم رفعت وجهي لأتفاجأ ب ثلاث وعشرين زوجا من العيون مع أجمل ابتسامات مشاغبة..

في وداع جماعي لوقت دراستنا معا!

أخرجت جوالي أسجل تلك اللحظة بصورة ستعني لي دوما الكثير.

بعد أيام كان يوم الحفل، قاعة احتفالات مزينة

بشكل يناسب الصغار ومسرح وأضواء جلست الأمهات ترقبن بشغف ظهور أطفالهن على المسرح وفي القاعة الداخلية كان الكثير الكثير من الأطفال.

كل مجموعة مرتبة بركن مع معلمتهم والمساعدة تحاولان ترتيب كل تفاصيل ملابسهم المبهجة.

براءة

اليوم حفل آخر عام بالروضة.. صالة العرض مستعدة بالزينات لاستقبال الأمهات بالكراسي المخملية والزينات الراقية والحلوى والمقبلات..

وفي القاعة الخلفية حيث (السندريلات) جمع سندريلا تعملن بكل جد ودأب ليكون الحفل

ناجح.. ترتدي كل معلمة ما يواكب الحفل وأصول التأنق بيوم كهذا.. وتقف بكامل زينتها بين أطفال صفها.. تتأكد أن هذا أكل طعامه وهذا استطاع فتح علبة العصير وشربها دون إفساد ملابسه.. تهمس للمساعدة أن تصحب من يحتاج الحمام إليه قبل أن تحدث كارثة..

تحرص أن يكون كل الأطفال سعداء ترفع روحهم المعنوية بالتشجيع والثناء.. نعم هي تجربة الوقوف علي المسرح لأول مرة.. تدريب علي الجرأة والثقة بالنفس وأيضا روح العمل في فريق متناغم يتحرك بانسجام ويتحدث بطلاقة أو شبه طلاقة التي يسمح بها عمرهم الصغير.. تزين العرض أطنان من البراءة والجمال النقي وكلهم يرتدون ملابس مميزة رسمية وكلهن

ترتدين فساتين من طبقات التل.. فيبدون كالملائكة..

انتبهت من شرودي أراجع معهم مايجب أن يقولوه ويفعلوه..

وألتقط بعض الصور للأطفال.. لاحظته متوترا..

" آدم هل أكلت طعامك؟!"

أومأ الصغير بتوتر.. تابعت النظر له بابتسامة عساه يفصح عما يريد.. ليقطع حوارنا حضور أفكار ببعض التعليمات والترتيبات للحفل..

عدت أذكرهم من جديد بخطة الفقرة بحماسة..

لكن آدم مازال شارد كأن الكلمات تذوب علي طرف شفتيه فلا يستطيع إيصال ما يريد فقط يقف حائرا..

"آدم هل تريد الحمام؟" همست له

"ل لا" تلعثم الصغير

قربته مني في أول الصف أبثه طمأنينة لربما هو التوتر..

اقترب الوقت اصطف الأطفال في طابور طويل انهمكت أتمم علي كل التفاصيل ليظهر الصغار بأجمل شكل.. دعوت الله بالتوفيق لهم في هذه التجربة الواعدة.. نظرة فخر تملؤني وأنا أتطلع إليهم.. كما تنظر الأم لأولادها يوم زفافهم.. دمعة تتلألأ بعيني.. يا إلهي كبر الصغير! تتذكر أول ضحكة.. أول خطوة.. أول نجاح مدرسي.. والمعلمة تتذكر.. أول يوم.. أول حرف كتبه.. أول جملة شاركها أصدقاءه.. سنة طويلة حتى عرفت عنهم كل التفاصيل.. كم غضبت منهم كغضب الأم إن أخطأ طفلها من حرصها عليه..

وكم ضحكت حيث تصدر كلمة (ماما) من بين شفاتهم البريئة حين ينادونني ثم يعقبها تلعثم وخجل (أقصد معلمة) لم تخطئ صغيري فأنا أيضا أبادلك ذات الشعور.. ما صدرت الكلمة منك إلا عن شعور حب واطمئنان.. فقت من شرودي أمسح وجوههم بنظرة تطبع صورتهم بقلبي فهذا آخر يوم..

"معلمة"

نادني آدم بتردد..

"هل ت تملك أمي رقم هاتفك؟ اكتبيه لي علي ورقة لأحدثك كلما اشتقتُ إليك "

عانقته مبتسمة الصغير علم أنه آخر يوم.. لكم أحبك يا صغيري"

كأجمل ما يبدو الصغار كانت حبات السكر بلون

وردي جميل كان فستان بناتي وذيل منتفخ وتاج صغير لامع كانت كل منهن تتأمل فستانها وفستان صديقاتها بسعادة كأنني أرى أفكارهن عنه تعبر عنها كلماتهن البسيطة.

كأميرات جميلات خرجن من بين دفتي كتاب خيالي جميل.

كنت أحب سعادتهن بالملابس تنقلهن لعالم وردي خيالي لطالما تتمنينه.

بينما أولادي بدوا بزي رسمي أنيق قميص أبيض وبنطال أزرق غامق مع ربطة عنق بلون مماثل وشعر صفف بعناية من كل أم بدوا كأجمل ما يكون حقا ونظرة الثقة عن مظهرهم تعكس لي هذا.

فيعود فخري بهم وحنيني إليهم.

جاءت أفكار تركض:

- دوركم على المسرح جاهزون؟

قلت بتوتر:

- نعم نعم حالا نحضر.

بعد لحظات كان صغاري على المسرح بدأ صوت الأغنية يصاحبها حركاتهم للعرض وحركاتي أمامهم مشيرة لهم كي لا ينسوا وابتسامة جميلة تزين شفتي وشفاههم في تواصل بصري نادر وتناغم لذيذ.

فهمت لماذا قالت لي ليلى سابقا عن تجربة المسرح وكم هي مفيدة للأطفال وكم تعشقها!

كنت الآن أملك كما من الأدرينالين بين عروقي وشعور غامر بالتأثر والسعادة في آن واحد.

نعم هان كل التعب!

* * *

بعد مرور أربعة أشهر صيفية..

عدلت هندامي بزيي الرياضي المريح وتسريحة شعري الناعمة أسير بخطوات نشيطة بعدما أودعت شمس صفها في أول يوم دراسي لها وأودعت أنس حضانة الأطفال للمعلمات.

نعم لقد رزقت أنس كما تمنى شريف من الله علينا بنعمة وفضل منه!

تسألين عن شريف؟

لقد تجاوز الأمر، يبدأ كل شيء صعبا ثم يهون بمرور الأيام وهذه رحمة ربي بِنَا، تغيرت خريطة أصدقاؤه بشكل مؤلم لكنه استوعب بعض دروس الحياة من خلال ذلك.

بمحاذاتي ظهرت ليلى تلوح بكفها من بعيد قادمة

نحوي ببطن منتفخ ذكرني بحالي العام الماضي.

على عتبات مكتب أستاذة لينة كانت حلا و جولي تلقيان التحية عليها بمناسبة العودة للعام الجديد.

ومن باب الرواق بدت!

بزي أنيق وكعب عال رأيتها قادمة تسأل من يقابلها أين مكتب أستاذة لينة.

رؤيتها عادت بي للخلف عاما كاملا تذكرني بأول حضور لي.

كانت بداية عام جديد بداية قصة جديدة نعم!

قصة ألف حبة سكر وحبة

تبدأ بأبطال جدد يرونها بطريقتهم مضيفين تفاصيلهم فيها فتكون نسخة جديدة من الحكاية بلا تكرار فلكل مرة مذاقها المنفرد..

وفِي الرواق على لوحة مميزة الزخارف علقت

حديثا كانت ورقة فضية لامعة الأطراف تزين منتصفها كتب عليها بذات الخط المنمق:

- نكتسب خبرة في أي مجال نعمل به بمرور السنوات..

قد تساعد القدرات والمهارات العالية لواحدة منا أن تكتسب خبرات أسرع..

وقد يبطئ واحدة قدراتها الأقل..

لكن عاجلا أو آجلا سنتعلم ويصير رصيد خبراتنا أكبر..

لكن كم من السنين الضوئية نحتاج لنعلم قلبا أسود كيف يكون صافيا؟!

لنعلم ضميرا خبيثا كيف يكون ناصعا؟!

أشياء لا تكفي سنوات وعقود ودهور لتعلمها..

فقط يتربى الإنسان عليها تحوطه التقوى..

نعم..

هي أشياء لا تشترى!

تمت